سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

سُورة الحجّ

وأذن في الناس بالحج
يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق

دار المحجة البيضاء

بينات من فقه القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سورة الحج)

ISBN: 978-614-426-048-7

هوية الكتاب

* الكتاب: بينات من فقه القرآن، دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم (سورة الحج).

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م. (٣٢٨ صفحة).

* تحقيق: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.

* الناشر: دار المحجة البيضاء

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٢/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)
الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)
اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦)
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعمتَ عَلَيهِمْ
غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾

المحتويات

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله.

هل جرَّبت مرة أن ذهبت إلى بلد لا تعرف أهله، أم هل جرَّبت ليلة في ظلمات إذا أخرجت يدك لم تكد تراها؟. إذاً هل كان ينفعك ثمة سمعك وبصرك؟.

كذلك الذي لا يهتدي بالوحي، أوَتَدري كيف؟.

إن للخليقة من حولك، هذه السماء من فوقك، والجبال من حولك، والأرض والأشجار والدواب.. ولكل شيء محيط بك أو أنت محيط به لغة، فإذا عرفتها نفعك سمعك، وإن لها نوراً إذا أبصرته نفعك بصرك، وإلاّ..

وتسألني: إذاً كيف نتعلم لغة الخليقة، ونرى نورها؟.

أقول لك: بالقرآن؛ إنه ليس مجرد خارطة طريق إلى جنان الخلد،

وإنما أيضاً بطاقة دخول إلى رحاب الخليقة، إنه يعلّمك لغتها ويبصّرك نورها.

تتكرر في القرآن مثل هذا التعبير: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فماذا يعني ذلك، أَوَلَيس يعني أنك قادر على أن ترى مباشرة ما يبينه الرب بعد هذه الكلمة؟.

مثلاً يقول ربنا سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾(1).

أليس من حقنا، بل من واجبنا، أن نسعى جاهدين لكي نرى مثل هذه الحقائق؟. وهل نرى شيئاً من دون بصر ونور، وحين لا يكون بيننا وبين تلك الحقائق حجب من الكبر والكفر وحتى من الغفلة والسيئات؟.

إذا بلغنا يوماً بإذن ربنا مستوىً، رأينا فيه عند طلوع الشمس سجود ضوئها لله سبحانه، وعند بزوغ القمر تسبيح نوره لربه، ورأينا كيف يولج ربنا (بيده وقدرته) الليل في النهار، والنهار في الليل، وكيف يرسل الرياح مبشّرات برحمته ويزجي السحب ويحيي الأرض بعد موتها، وكيف يرزق كل دابة ويدبر أمرها.. يومئذ إذا بلغنا هذا المستوى، نشكر ربنا أنه رزقنا السمع والبصر. وأما من قبلُ فلابد أن نعرف أن بيننا وبين كتاب ربنا حجاباً.

إنّ الكتاب الذي تقرؤه ما هو إلا مسعى في هذا الطريق، إنه

(1) سورة الحج، آية ١٨.

قـراءة لآيـات الخلق بنور آيات الكتاب، ونرجـو أن نكون نحن وأنت ممن يسعى ثم يوفق للاهتداء إلى نور الكتاب.

إنّه منظومة من البصائر التي رزقنا الله سبحانه فيما يتصل بسورة الحج، التي هي صبغة الأمة الإسـلامية، والله سـبحانه نسأل أن يوفقنا لمعرفتهـا ويدخر لنا ثواب ذلك ليـوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم، والله المستعان.

محمد تقي المدرسي

٢٤/ رجب/ ١٤٣٢هـ

اتَّقُوا ربكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ (في حديث طويل): «التَّقْوَى.. التَّقْوَى، احْذَرُوا السَّاعَةَ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. اذْكُرُوا المَمَاتَ وَالْحِسَابَ وَالْمَوَازِينَ وَالْمُحَاسَبَةَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ. فَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أُثِيبَ عَلَيْهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْجِنَانِ نَصِيبٌ»[1].

---

(١) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٨٢.

وقال رسول الله ﷺ: «خَصْلَةٌ مَنْ لَزِمَهَا أَطَاعَتْهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَرَبِحَ الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ.

قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟.

قَالَ: التَّقْوَى»[1].

وسئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَيُّ عَمَلٍ أَفْضَل؟ قَالَ: التَّقْوَى»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ»[3].

تفصيل القول

لا ريب في أن السور القرآنية تنطلق من منطلق واحد لتصبَّ في مصبٍّ واحد، فهي تنبعث من نقطة لتنتهي إلى هدف محدد ومرسوم، رغم أن لكل سورة عطرها الخاص الذي قد لا يفوح من سورة أخرى بالشذى ذاته.

أما سورة الحج المباركة؛ فهي تُذكِّر بالحقائق والبصائر ذاتها التي نجدها في كل سور القرآن المجيد، مثل التذكير بالله تعالى، وآياته وأسمائه وسننه، كما التبشير بالرسالة وتوجيه الناس إلى الآخرة، والحث على التقوى والإيمان.. ولكن في السورة إشارات جلية إلى حقائق قد لا

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٦٧، ص٢٨٥.
(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٤٧٨.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٧.

نجدها في سائر الآيات القرآنية بالشفافية ذاتها.

ولعل من أهم الحقائق التي نجدها في هذه السورة الكريمة هي: تجنيب الإنسان من التعلّق الثقافي بغير نهج الأنبياء والأئمة عليهم السلام، والتذكرة بأن هناك شياطين يحاولون أبداً أن يشركوا أنفسهم في توجيه الإنسان، ليسوقوه ضمن وساوسهم وإلقاءاتهم وإيحاءاتهم إلى حضيض اتّباع الهوى والضياع.

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

هذا خطاب رباني إلى جميع الناس بكل طوائفهم وألوانهم، وهو -في الوقت ذاته- تشريف لشخصية أولاد آدم حيث رفعهم الله العلي الأعلى إلى مقام المخاطبة، تكريماً لهم.. مما يستوجب التوجُّه من جانبهم وبكل مشاعرهم لاستماع فحوى الخطاب وفهم الغاية من توجيهه إليهم.

٢- ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾

أي: احذروا جنب الربوبية الخاصة بالله عز وجل. فالتقوى هي العلاقة الأسمى، التي ينبغي أن تُشيَّد بين المربوب وربه. وغالباً ما يُشاهَد في النصوص القرآنية الشريفة أن كلمة التقوى واشتقاقاتها وأشكال استخدامها، تأتي للإشارة إلى فعل الله تعالى الخاص بتربية ورعاية الإنسان من حيث إعطائه النعم في كل نَفَس ولدى كل لحظة، وذلك من خلال الإسباغ عليه باللطف والرحمة.. فهو إذاً جدير بأن يتّقي الله ويلتزم بتعاليمه وأحكامه.

٤- ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

الإنسان الذي يقر بربوبية خالقه الواحد الأحد، لابد له أن يعقد

العـزم للالتجـاء إليه عنـد تعرُّضه لأخطار كبيرة. هـذا من جهة، ومن جهة أخـرى نجد أن مواجهة إلقاءات الشـياطين في الحالات الطبيعية قد لا تكون صعبة، ولكن الشياطين لا تترك الإنسان لشأنه وإنما تسعى جاهدة لتصعيد المواجهة معه وتتابع إلقاء الوساوس في روعه. وهكذا تجد الإنسـان بحاجة إلى انتفاضة ذاتية عارمة، ليتخلَّص من وسـاوس الشيطان وينتصر على مكره.

ولأننـا -نحـن البـشر- مبتلـون دومـاً بمنظومة مـن الضغوط الحياتيـة، كالجـوع والعطـش، والنـوم واليقظة، وسـائر مـا في الدورة الحياتية.. فترانا ننشغل بها ولا نأبه كثيراً بالتحديات الكبرى، وبالذات بمحاربة هوى النفس ووساوس الشيطان، مما يزيد الحاجة إلى تعريضنا لهزة عنيفة وانتفاضة عارمة.

» إن من أهـم الحقائق التي نجدها في سورة الحج هي: تجنيب الإنسان من التعلق الثقافي بغير نهج الأنبياء والأئمـة، والتذكـرة بـأن هناك شـياطين يحاولون أبداً أن يشركوا أنفسهم في توجيه الإنسان.

والتقوى الوسـيلة المثلى التي تهزُّ الذات الإنسـانية لتعود إلى رشـدها بعد سـبات، وإلى ركائـز عقلها بعـد الاحتجاب بالشـهوات، ثم تواجـه ما يتعـرض له ابـن آدم في كل حين من ألوان البلاء.

ثم إن هناك هزات في الدنيا، يتعرض لها النـاس عادة كفقـدان عزيز، فـترى المرء عندما يقف عند قبره يُعيد حساباته ويرعوي عن الاغترار بالدنيا وزخرفها.

ومثل الهزة النفسية التي يتعرَّض لها المرء في مناسبات دينية، مثلاً في ليلة القدر، فهناك يتوب إلى ربه، ليتخلَّص من أدران الذنوب.

وكذلك حينما ينطلق المسلم لأداء مناسك الحج ويتحمَّل مشاق

الرحلة المحفوفة بالمخاطر.. فهناك يُزلزل ذاته أيضاً.

ولهذا الزلزال جانبان؛ جانب شخصي، حيث التوبة الفردية؛ وجانب اجتماعي، وهو الأهم، حيث الزلزال لا يحدث في فرد أو فردين، وإنما هو يحدث في أمة من الناس تقدم على بيت الله الكريم من مختلف البلدان؛ إذ الحج دعوة عامة للجميع ليكون التأثر عامًّا، ليس في بلد واحد فحسب، وإنما في كل البلدان الإسلامية.

ولذلك؛ نجد سورة الحج تطفح بذكر الزلزال، فأولها يذكرنا بالزلزال العظيم في يوم القيامة، فيما يتحدَّث آخرها عن معالم الأمة الإسلامية وكيف تكون بعد أن تنفض عن نفسها غبار الجهل والغرور والفرقة.

أما الزلزال الذي بدأ به خطاب القرآن الشريف هنا، فهو زلزال عظيم لا يُقاس بكل أنواع الزلازل التي نعرفها، حيث يُبدِّل الكون كله غير الكون. إن زلزال يوم القيامة، يخبر الله سبحانه وتعالى عنه بأنه شيء عظيم، إذ يزلزل فيه كل شيء وكل شخص. فالأرض والجبال وما في البحار وما يحيط بالكرة الأرضية.. إنها جميعاً تهتز هزات عنيفةً. كما أن الناس جميعاً؛ كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم.. يصيبهم هلع عظيم.

ومن هنا كان لابد لابن آدم أن يلجأ إلى ركن وثيق ليستعيذ به من أهوال ذلك الزلزال، وليس من ملجأ دون تقوى الله.

* * *

بصائر وأحكام

١- تراكم حجب الغفلة ووسـاوس النفس وما يقتضي سبات العقـل.. إنّها جميعاً تتراكم في ضمير البشر، فـلا يكاد يتخلّص منها إلّا بزلزلة عظيمة.

٢- حينـما يهتز الضمير البشري بفقـد عزيز أو كارثة كبيرة تنزل بـه أو حتى حينـما يهتز الضمير في ليلـة مباركة (مثل ليلـة القدر) أو في رحلـة إيمانية (مثل رحلة الحج) حينئذٍ تتسـنى له فرصـة التخلّص من السبات والعودة إلى صفاء الذات.

٣- عـلى الإنسـان أبداً أن يتذكـر زلزال يوم القيامـة فيتقي الله، حتى لا تصعقه أهواله.

وتذهل كل مرضعة عما أرضعت

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ مَا بَعْدَ الْقَبْرِ أَشَدُّ مِنَ الْقَبْرِ. يَوْمَ يَشِيبُ فِيهِ الصَّغِيرُ، وَيَسْكُرُ فِيهِ الْكَبِيرُ، وَيَسْقُطُ فِيهِ الجَنِين، وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ. وَاحْذَرُوا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً، كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً.

أَمَا إِنَّ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفَزَعَهُ اسْتَطَارَ حَتَّى فَزِعَتْ مِنْهُ المَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَيْسَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ، وَالسَّبعُ الشِّدَادُ، وَالجِبَالُ الْأَوْتَادُ، وَالْأَرَضُونَ المِهَادُ»[1].

(١) الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي، ج١، ص٢٤١.

تفصيل القول

كفّتا ميزان هما الدنيا والآخرة، ونحن نجد الكفة الأولى ماثلة أمام أعيننا في كل حين، دون أن نجد الكفة الثانية إلّا عبر آياتها وإشاراتها. وإنما يُستدل بالكفة الأولى لهذا الميزان على ما في الكفة الثانية، فإذا رجحت الكفة الأولى علمنا أن الكفة الثانية فارغة، أما إذا خفت الأولى وطفحت، علمنا بأن الكفة الثانية قد ثقلت.

كذلك الإنسان المؤمن؛ ينظر إلى الدنيا بخفة، ولا يرى ما فيها يسوى الشيء الكثير؛ فإذا أُوتي منها لم يفرح بها، وإذا فاته شيء منها لم يَأسَ عليه، وذلك لتساميه وتعاليه عليها، ولفرط اهتمامه بها في الآخرة. وعلى عكسه الكافر والظالم والفاسق؛ ممن يصبُّ كل اهتمامه على ما في الحياة الدنيا ويغفل عما ينبغي أن يهتمَّ به من أمور الآخرة.

والقرآن المجيد يُشدِّد النظر إلى هذه الناحية، ويُصوِّر في الكثير من نصوصه الشريفة مواقف الآخرة، لحمل الإنسان على إعداد نفسه لذلك الزلزال العظيم الذي ينتظره في الآخرة، وللتأكيد له على أنه ملزم بمواجهة ضغوط الدنيا بها في الآخرة، ولذلك تجد النصوص القرآنية الشريفة كأنها الصاعقة تهز الوجدان الإنساني، ليتريَّث عن الإيغال في الغفلة، وليعود إلى رشده وفطرته، فينطلق في الحياة متزوداً بالتقوى والهدى والرشاد.

فيا ترى ما هي بصائر الآخرة في هذه الآية؟

الأولى: يقول ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً على أنّ كلًّا منكم وارد هذا المورد شاء أم أبى، فذلك اليوم مجموع له الناس جميعاً.

الثانية: في ذلك اليوم ولشدة أهواله تجد المرضعة التي هي الأم عادة،

وهي أشد ما يكون اهتماماً بالرضيع الذي لم تزل ترضعه حتى اشتدت أواصر العلاقة، تجدها قد ذهلت عنه لفرط الإحساس بالخطر الذي يُحدق بها.

الثالثة: المرأة وهي حامل لا تضع حملها قبل الأوان إلَّا إذا أصابها هَمٌّ عظيم أو زلزال خطير.

الرابعة: أما سائر الناس فإن شدة الخطر وتواتر الأهوال عليهم تجعلهم يفقدون رشدهم، وتراهم وكأنهم سكارى ولكن ليس سكر الفرح وإنما سكر الخوف، حيث ذهلوا عن كل شيء، حتى أنفسهم، فلم يجدوا وسيلة للدفاع عنها فاستسلموا للوضع تماماً وذلك لشدة عذاب الله.

بلى؛ إن المؤمن يقي نفسه بواقية من تقوى الله اليوم، وهو في الدنيا، من عذاب يومئذٍ. وهذا ما أمر الرب به الجميع حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

* * *

بصائر وأحكام

١ - كلما استحضر البشر مواقف القيامة ازداد عزماً على التقوى، وقدرةً على تحمُّل المصاعب التي يواجهها بسبب الالتزام بالدين.

٢- لأن الدنيا والآخرة مثل كفتي ميزان، فإن الاهتمام بإحداهما يُخفِّف الاهتمام بالثانية. وهكذا على الإنسان أن يقيس نفسه حتى لا يفاجئه الموت وهو لا يدري أين موقعه.

الجدال الباطل وسوسة شيطانية

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أَوْثَقُوا الجُدَلَ»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَالجِدَالَ فَإِنَّهُ يُورِثُ الشَّكَّ فِي دِينِ اللهِ»[2].

وقال أبو بصير: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِاللهِ عليه السلام وَهُوَ يَقُولُ: «لَا يُخَاصِمُ إِلَّا شَاكٌّ فِي دِينِهِ، أَوْ مَنْ لَا وَرَعَ لَهُ»[3].

(١) بحارالانوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص١٣٨.
(٢) بحارالانوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص١٣٨.
(٣) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٩، ص٧٥.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْحَذَّاءِ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؛ إِيَّاكَ وَأَصْحَابَ الْكَلَامِ وَالْخُصُومَاتِ وَمُجَالَسَتَهُمْ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَا أُمِرُوا بِعِلْمِهِ، وَتَكَلَّفُوا مَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِعِلْمِهِ، حَتَّى تَكَلَّفُوا عِلْمَ السَّمَاءِ»[1].

تفصيل القول

عندما يكون الهدف من الكلام مجرد إبداء الرأي والتشبث بلغو الحديث، بهدف إضاعة الحق وإظهار الباطل، فإن ذلك هو الجدال بالباطل الذي يصدر بداعي العصبية.

وحيث تُحيط بقلب الإنسان حجب الهوى ووساوس الشيطان فإنه يضل، وكلما ازداد بُعداً عن ربه إزداد انطواءً على ذاته حتى يبلغ به الجهل أن يتخذ إلهه هواه، فتراه ليس يتبعه بعمى بل يقدسه ويدافع عنه بجدال عريض.

والإنسان يصدر من أحد أمرين: إما من عقل واعٍ، أو من هوى مُتّبَع. فإذا كان العقل مرجعه، فإن تفسيره لما يراه أو يسمعه من حقائق يكون تفسيراً سليماً وكلاماً حقّاً.

وأما إن كان مرجعه الهوى، فسوف يقلب الحقائق ويُفسِّرها بما يتناسب وجهله وضلاله، فلا يهتدي إذاً أبداً. وهكذا يكون جداله بالباطل ليدحض به الحق.

ويتأرجح البشر بين هذين المصدرين، حتى يُغلِّب جانباً على

---

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١١، ص٤٥٩.

الثاني بصورة كلية.

فقد زوَّد الله البشر بالفطرة والعقل، وأيَّد عقله بالعلم. وفي قبال كل هذه ابتلاه بالهوى والجهل.

وثمة مفارقة؛ فالصعود إلى ذروة العقل لن يتحقق من دون شد عزمات القلب، وتنمية حوافز الإرادة، واستثارة ركائز الفطرة. في حين أن السقوط يتم بمجرد الاسترسال مع الهوى، والانقياد للجهل.

من هنا فإن من يبتعد عن مصدر النور والهدى، يقع في ظلمات الجهل. كما أن الابتعاد عن الله يُقرِّب الإنسان من الشيطان ويُكرِّس اتِّباع ثقافته، فتتراكم فيه وساوسه حتى تتحوَّل لديه إلى مرتكزات ذهنية، حتى تراه يُفكِّر بها ويبصر ويسمع ويمشي بها. لذلك ترى هذا النموذج يستنكر بكل وقاحة على ذوي الهدى هداهم، وعلى أهل الحق حقهم، فيتحوَّل لديه الحق باطلاً والباطل حقّاً.

وحيث يعجز المرء عن التخلُّص من تراكمات الهوى ووساوس الشيطان في نفسه، تراه ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ فيواجه ربه بكل وقاحة، فيجادل بما أُوتي من قوة، والشيطان يضاعف جهده لتكريس إضلاله.. وقد كُتِبَ عليه أنه من تولاه فإنه يضله حتى يسوقه إلى سواء السعير.

ويبقى ابن آدم بين هذا وذاك في أشد الحاجة إلى هزة ضمير وانتفاضة وجدان حتى يتحدى تراكمات الهوى، وليخرج عن نطاق ما اعتاد عليه من الأخطاء والشبهات، فيتوب إلى ربه توبة نصوحاً ويؤوب إليه مآباً، وذلك في شريعة مثل شريعة الحج العظيمة وما فيها من مناسك توفر للإنسان بمجموعها محطة تفكُّر، ومنطلق ثورة،

وانتفاضة مقدسة على الذات.. ليتغير فيه ما اتخذه من الثوابت الثقافية الباطلة ويتحوّل إلى حيث النور والحق.

* * *

بصائر وأحكام

١ - الابتعاد عن مصدر النور والهدى، يؤدي بالإنسان إلى السقوط في حضيض الجهل، والذي -بدوره- يؤدي إلى الجدال في الله بغير علم.

٢- حين يعجز المرء عن التخلص من تراكمات الهوى والوساوس الشيطانية، تراه يجادل في الله بغير علم، وينتهي به المطاف الى اتباع كل شيطان مريد.

» عندما يكون الهدف من الكلام مجرد إبداء الرأي والتشبث بلغو الحديث، بهدف إضاعة الحق وإظهار الباطل، فإن ذلك هو الجدال بالباطل الذي يصدر بداعي العصبية.

عقبى تولي الشيطان

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُطِعِ الشَّيْطَانَ يَعْصِ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ يُعَذِّبْهُ اللهُ»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ وَأَعْمَى قَلْبَهُ، اسْتَوْخَمَ الْحَقَّ فَلَمْ يَسْتَعْذِبْهُ، وَصَارَ الشَّيْطَانُ وَلِيَّهُ، يُورِدُهُ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ ثُمَّ لَا يُصْدِرُه»[2].

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٥٧٧.
(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٧١٥.

تفصيل القول

كما أن رحمة الله واسعة، وثوابه لمن آمن وعمل صالحاً ثواب عظيم، كذلك فإن نقمته شديدة، وعذابه لمن كفر واتَّجه الى غير الله هو الآخر عذاب شديد.

والبوصلة التي على أساسها يستطيع الإنسان أن يُحدِّد اتجاهه ويُحدِّد بالتالي مصيره هي الولاية. فمن تولى الله وتولى عباد الله الصالحين، فإنه في مأمن من عذاب الله. ولذلك جاء في حديثٍ قدسي: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي»**(١).

حصن الله هو لا اله الا الله، حصن الله أيضاً هو الكفر بالطاغوت، الايمان بالله والايمان بمن نصبه الله للناس إماماً رسولاً أو نبيًّا، أو صِدِّيقاً شاهداً، أو عالماً ربانيًّا. أما من تولى الشيطان المريد؛ أي تولى من يُحرِّف الكلم عن مواضعه، تولى من يتحدى أولياء الله، تولى الطاغوت.. من تولى مثل هؤلاء فإن الله تعالى قد قدر لمثل هذا الإنسان أن ينتهي. لماذا؟.

لأن الله تعالى قد سَنَّ هذه السُّنَّة، أن الشيطان لن يكون قريباً من الرحمة، لقد رجمه الرَّبُّ ولعنه وأبعده، فمن ربط مصيره بمصير الشيطان، فإنه سيكون بعيداً عن الرحمة الإلهية، ومن يكن بعيداً عن الرحمة الإلهية فإن مصيره:

أولاً: الضلالة، لن يهتدي الى السبيل حتى وإن حاول.

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٣٠٦.

ثانياً: العذاب.. يقول ربنا تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، حينما يقول ربنا هذه الكلمة فمعنى ذلك أن هذا أمر إلهي لا رجعة عنه، كما أن الله كتب على نفسه الرحمة كتب لأعدائه أيضاً النقمة.. يعني كتب على الشيطان المريد أن يكون بعيداً عن الرحمة، ومن تولاه أيضاً، يعني من جعل ولايته ولاية الشيطان، فكيف اتَّبَعَ الطاغوت والله تعالى أمرنا بأن نجتنب الطاغوت ونكفر به، وبالتالي أمرنا أن نتحداه ونتحدى القيادات التي تنطق بغير اسم الله وتُشرِّع بغير إذن الله.

لكن الذي يتولى الطاغوت؛ (إما رغبة وإما رهبة ككثير من الناس الذين يستسلمون للظالمين ويخنعون للطغاة) فإنه قد كُتِبَ عليه ما كُتِبَ على الطاغوت نفسه.

» من تولى الشيطان المريد؛ أي تولى من يُحرِّف الكلم عن مواضعه، تولى من يتحدى أولياء الله، تولى الطاغوت.. من تولى مثل هؤلاء فإن الله قد قدر لمثل هذا الإنسان أن ينتهي.

نحن نفسر القرآن ببعض التفسيرات البعيدة عن الحقيقة، بينما القران ينطق بعضه ببعض، ويُصدِّق بعضه بعضاً. فليس الشيطان بالضرورة هو إبليس وذرية إبليس الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم. إذ ربما يكون الشيطان قد تمثَّل في رجل، في نظام، في اتجاه.. أوَلم تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾(1)؟ الناس أيضاً قد يكونون من فئة الوسواس الخناس.

وهكذا الذي تولى الطاغوت ولم يكفر به فقد كتب الله سبحانه

(1) سورة الناس، آية ١ - ٦.

عليه الضلالة. وحينما يكتب الله الضلالة على أحد، فإنه يسلبه نوره، وأنى له الهدى إذاً؟.

أوَلَيس الإنسان يرى بعينه ويسمع بأذنه، فإذا أُصيب بالصمم كيف يسمع، ومن سُلِبَ بصره كيف يرى بعينه؟ كذلك الإنسان يهتدي بنور الله الذي في قلبه، فإذا سُلِبَ منه هذا النور كيف يهتدي؟

ربنا تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[2]. وفي آية ثالثة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[3].

لقد أمرنا بأن نجتنب الطاغوت ونتحداه، وهذه هي معركة الإنسان الأساسية. إنها معركة الانتماء؛ فهل تنتمي الى عالم رباني، إلى إمام هدى، إلى نبي مرسَل، إلى كتاب مُنْزَل.. أما إن لم تنتمِ الى هؤلاء فقد انتميتَ إلى أعدائهم، شئت أم أبيت؛ لأنه ليس هناك مسافة بين الحق والباطل، كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ»[4]. من لم يتمسك بحبل الله، فإنه يكون عرضة لعواصف الشهوات وأعاصير الضغوط.. وبالتالي يصبح وليًا لغير الله، ومن تولى غير الله يكون هذا مصيره ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾. فالشيطان

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٧.
(٢) سورة الزمر، آية ١٧.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٦.
(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٨.

يستحوذ عليه ويهيمن عليه، يأخذ بزمام أمره، ومن يكون الشيطان دليله أين يذهب به؟

بالتأكيد يدله على الضلالة، أما عقب الضلال فما هو؟

يقول ربنا: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. في الدنيا ضلالة عن الحق وفي الآخرة العذاب السعير. أي العذاب الذي يُسَعَّر، لأنه قد يكون عذاب غير مسعَّر؛ مثلاً المرض قد يكون خفياً، مثل قسوة القلب، وقد يكون الإنسان لا يحس بمدى مرضه، ولكن عذاب الآخرة سعير يحرقه.. نسأل الله تعالى أن يُجيرنا من ذلك العذاب بفضله وجوده وكرمه.

* * *

بصائر وأحكام

١ - من ربط مصيره بمصير الشيطان فإنه يصبح بعيداً عن الرحمة الإلهية، وبذلك يسقط في وحل الضلال، ولن يهتدي إلى السبيل حتى وإن حاول.

٢- المعركة الأساسية للإنسان هي معركة الانتماء، لذا أمرنا ربنا أن نتجنب الطاغوت ونتحداه.

تجليات البعث

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كَانَ فِيمَا وَعَظَ بِهِ لُقْمَانُ عليه السلام ابْنَهُ، أَنْ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنْ تَكُ فِي شَكٍّ مِنَ الْمَوْتِ فَارْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ النَّوْمَ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ. وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ الْبَعْثِ فَارْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ

الأَنْبِيَاءَ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ. فَإِنَّكَ إِذَا فَكَّرْتَ فِي هَذَا عَلِمْتَ أَنَّ نَفْسَكَ بِيَدِ غَيْرِكَ، وَإِنَّمَا النَّوْمُ بِمَنْزِلَةِ المَوْتِ، وَإِنَّمَا الْيَقْظَةُ بَعْدَ النَّوْمِ بِمَنْزِلَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ»(١).

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في احتجاجه على زنديق سأله فيما سأل: «وَأَنَّى لَهُ بِالْبَعْثِ وَالْبَدَنُ قَدْ بَلِيَ، وَالْأَعْضَاءُ قَدْ تَفَرَّقَتْ؛ فَعُضْوٌ بِبَلْدَةٍ يَأْكُلُهَا سِبَاعُهَا، وَعُضْوٌ بِأُخْرَى تَمْزِقُهُ هَوَامُّهَا، وَعُضْوٌ قَدْ صَارَ تُرَاباً بُنِيَ بِهِ مَعَ الطِّينِ حَائِطٌ؟.

قَالَ عليه السلام: إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، وَصَوَّرَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ سَبَقَ إِلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ»(٢).

تفصيل القول

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾

يتوجّه الخطاب -مرة أخرى- إلى الناس، لماذا؟.

يبدو لأنَّ ما ذُكِرَ في الآية يشملهم جميعاً، ومع التفكر فيه تتوفر لهم فرصة الإيمان إن شاؤوا، ثم إن كتاب الله تعالى قد نزل إلى البشر جميعاً.

ومع ذلك كله، فإن الفجوة بين الكافر بالبعث وبين المؤمن به تظل واسعة جدًّا. فليس من آمن بالقيامة كمن لم يؤمن بها، إذ سيختلف كل شيء في حياتهما من أفكار وتصرفات. وقد سبقت الإشارة إلى أن الدنيا والآخرة عبارة عن خط ممتد ينشأ من الدنيا ويستمر إلى الآخرة.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٤٢.
(٢) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج٢، ص٩٧.

ومن لا يؤمن بالآخرة لا يستطيع أن يتصرف بحكمة في الدنيا؛ لأنهما تتكاملان. وإنما المؤمن بالآخرة يحسن التصرُّف في الدنيا ويكسب بها فيها الآخرة، فهو قد فاز بكلتيهما.

والقرآن الكريم طالما أكد على هذه الفجوة والفارق الكبير جدًا بين إنسان وإنسان، رغم ما فيهما من تشابه ظاهري كبير.. والكتاب المجيد يضرب لنا المثل بالظل والحرور، وبالأحياء والأموات، وبالظلمة والنور.. وإذ لا يمكن القياس بين هذه النماذج، كذلك لا يمكن قياس أهل الدنيا بأصحاب الجنة في الآخرة.

ولكن كيف يتسنى قطع المسافة الوسيعة بين الإيمان والكفر؟ وهل يمكن تجاوزها بصورة عفوية أصلاً؟.

إن هذه الفجوة لا تُقطع بلا مكابدة وكفاح وكدح، حيث إنها تُمثِّل الجسر الطويل بين الجنة والنار.

فكيف إذاً نقطع هذه المسافة؟ إنما يكون ذلك بسعي متواصل إلى الكمال النفسي عبر محاسبة الذات والمراقبة والتهذيب.. وأيضاً عبر كل الوسائل الممكنة والمتاحة لإحداث التحوُّل في ذواتنا لتصبح نفوسنا كاملة وقادرة على استشراف الحقائق والوصول إلى معايشة الآخرة.

ومن هنا وللتخلُّص من الريب في البعث ينبغي للمرء أن ينظر إلى واقع نفسه الذي يمثل قطعة رائعة من سنن الله في الحياة، بل وآية سامية لأسمائه الحسنى. فنفس البشر هي الأقرب إليه من أي خلق آخر، ولكن كيف يتم لنا ذلك؟.

مع أن الحقائق كلها تشير إلى أن الحياة الآخرة حق، إلَّا أن الوساوس الشيطانية تحجب عن ضعاف النفوس هذا الحق، فإذا بهذا

المحجوب قلبه يسأل: كيف يحيي الله عز وجل العظام وهي رميم؟ بل وحتى بعض المؤمنين بالقيامة تبقى في أنفسهم ثمالة من وسواس تظهر لدى المواقف الحرجة والامتحانات الصعبة.

وبالتأمل في مراحل خلق البشر قد يتغلّب البشر على هذه الوساوس.

من هنا يقول ربنا مخاطباً الناس جميعاً: إنّه إنْ كنتم في شكٍّ من البعث منشؤه الجهل بقدرة الله سبحانه، إذاً انظروا إلى أنفسكم:

٢- ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾

بلى؛ حين يمشي ابن آدم على أديم الأرض ويُلامس ترابها، ويتأكد من أنه مشابه له إلّا بدبيب الحياة فيه، فكل ما فيه موجود في بناء جسده، فكيف انتقل من مرحلة لأخرى، كيف جعله الله نطفة من ماء يسبح فيها كيان متناهٍ في الصغر، ثم جعله الله علقة لاصقة بجدار الرحم، ثم جعله قطعة لحم (مضغة) نصفها تشبه خلقته ونصفها لا تشبهها.

٣- ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾

فالله سبحانه وتعالى قادر كذلك أن يُعيد المرحلة ذاتها بعد الموت، أَوَلَيس الجسد يُصبح يومئذ تراباً كما كان؟ إذاً فالذي خلقه أولاً في أطوار يُعيد خلقه.

ولعل هذه (المرحلية) في الخلق والتنقُّل من واقع إلى واقع بما يتضمَّن ذلك من ملايين القوانين، لها هدفها الحكيم، وهو أن يُبيِّن الله تعالى للإنسان حقيقة الخلقة، رغم أن الله عز وجل كان قادراً على أن

يخلق كل الخلق، بمن فيهم أولاد آدم مرة واحدة، كما سيحشرهم دفعة واحدة في الدار الآخرة.

ثم هذه الرحلة ليست عفوية، فليس كل نطفة تصبح منشأ إنسان:

٤ - ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

﴿نُقِرُّ﴾ إشارة القدرة الربانية في لطيف الخلقة وإلى هيمنة تدبيره فيها. فقد لا يقرّ الله الحمل فيسقط، وحيث يقرّه يحافظ عليه بلطفه وعنايته بأفضل ما يكون. والحال إن أفضل الأوعية تعجز عن حفظه كما هو في الرحم، حتى أن المرأة قد لا تعلم بكونها حاملاً إلّا بعد حين للطيف الحفظ الإلهي.

٥ - ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾

بعد كل مراحل الحفظ في الرحم، وبعد قطع الجنين مراحل الخلقة في قراره، ها هو الآن يخرج طفلاً.. ولكن تبقى بينه وبين التكامل مراحل شتى، ويتطلّب حفظاً آخر ورعاية أخرى، لاسيما من جانب الوالدين، بما يفيضان عليه من الاهتمام، ومن الحنان، ومن التغذية، وبذل كل الجهد للرعاية والحفظ بما ألقى الرّبُّ في قلوبهما من حب الطفل، حتى أنهما يختصران وجودهما فيه، ويستمر ذلك حتى يبلغ أشده، فيكتمل شابًا رجلاً أو شابة امرأة.

٦ - ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾

هذا ما هو بحاجة إلى دقة بالغة.. فلو كان الإنسان خالقاً لنفسه، فَلِمَ لَمْ يخلقها بحيث لا تمرض أو لا تموت أو لا ترجع إلى أرذل العمر؟

ولكن بما أنه مجرد مخلوق، مهما كفر وجحد واستراب، فإنه محكوم بقطع هذه المراحل، حتى أنه ليُنكّس، كلّما عمّر، من حيث القوى البدنية والذهنية والنفسية.. اللهم إلّا في حالات استثنائية أبطالها ممن استغلوا أعمارهم كلها في السعي إلى التكامل والتعالي عن تفاهات الدنيا، كالعلماء الربانيين الذين يُكرّمهم الله تعالى بكرامته، فيدرأ عنهم ما يُقْعِد غيرهم فيذلهم.

٧- ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾

هذا مَثَلٌ آخر على دورة الحياة في الدنيا، إذ ضرب القرآن الكريم مَثَلاً من تطور حياة الإنسان، فها هو يضرب مَثَلاً مشابهاً من حياة النبات.

إنّ همود الأرض يشبه حالة السبات لدى الإنسان في عالم الأصلاب، والأرض تدخل في طور انتظار الرحمة الإلهية:

٨- ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾

والماء يحمل لدى نزوله بعضاً من عناصر الحياة، فتهتز الأرض له وتتشقق لتتغذى به، ثم تراها تربو.. أي تنمو وتتهيأ.

٩- ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾

وقابلية الإنبات تعني تمتع الأرض بالحياة، ففيها من البذور الحية ومن الأملاح وعناصر النمو التي تكون بها قادرة بإذن الله على أن تُخرِج من كل زوج بهيج، فهناك مئات الألوف من أنواع النبات ذات بهجة وذات تدبير دقيق يتجلّى في الزوجية، والتي تعكس لطيف الصنع حين يتكامل الزوجان بينهما في أداء دور النبتة، كما تتكامل أنواع النباتات فيما بينها، وهي بدورها تتكامل مع ألوان الحياة الأخرى

كحياة الإنسان والحيوان.

والعبرة من كل هذا الذي يُرى هي أنه كما يستطيع الله تبارك وتعالى بقدرته وحكمته وإحاطته أن يُربي الأرض ويُنبتها من كل زوج مفيد، كذلك هو قادر على بعث الإنسان إلى الحياة مرة أخرى، ولكن لِعالَمٍ آخر اسمه عالم الآخرة، رغم أن عظامه قد انهالت بتراب الأرض منذ دهور ودهور، فهو ينميهم ويربيهم وهم في قبورهم، كما ينمي الجنين في بطن أمه ويحفظه من الأخطار.

بلى؛ إن على المؤمن أن يتخذ من الحياة مدرسة، فتكون نظرته إليها نظرة اعتبار. ذلك لأن المؤمن يتعالى على بيئته، فلا يسمح لها بالتمكّن منه والسيطرة عليه، وإنما يجعل نفسه مؤثراً فيها. وبتعبير آخر؛ لا يصبح المؤمن جزءاً من بيئته يذوب فيها، بل يكون دائماً مسخِّراً لها مستقلاً عن مؤثراتها.

« للتخلُّص من الريب في البعث ينبغي للمرء أن ينظر إلى واقع نفسه الذي يمثل قطعة رائعة من سنن الله في الحياة، بل وآية سامية لأسمائه الحسنى.

إن المؤمن من شيمته النظر إلى الأمور من علٍ ليعبر من خلالها إلى ما يكمن وراءها من السنن الإلهية، لئلا يكون كما الكافر جاهلاً فيجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير.. فيُفاجأ بالموت ويتمنى الإمهال بعدُ، ولات حين مناص.

إنّ هذه الخطابات القرآنية تسمو بابن آدم لكيلا يُغلق نظرته دون حقائق الأمور.. كما تدعوه إلى تحويل كل ما يراه إلى عبرة، تتحوّل لديه غذاءً للروح وتنمية للعلم.

* * *

بصائر وأحكام

١ - ليسوا سواءً مَنْ آمن بالقيامة ومَنْ لم يؤمن بها، إذ سيختلف كل شيء في حياتهما من أفكار وتصرفات.

٢ - للتخلُّص من الريب في البعث ينبغي للمرء أن ينظر إلى نفسه ومراحل خلقه ووجوده الذي يمثل نموذجاً رائعاً تتجلَّى فيه سنن الله في الحياة.

٣ - على المؤمن أن يتخذ من الحياة مدرسة، فيكون نظره إليها نظر اعتبار، ولا يسترسل مع المحيط، بل يتعالى عليه يسخِّره ويتخذ منه معراجاً لروحه ونماءً لعلمه.

اللّه هو الحق

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام (في حديث طويل): «إِنَّ الْعَاقِلَ لِدَلَالَةِ عَقْلِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ قِوَامَهُ وَزِينَتَهُ وَهِدَايَتَهُ، عَلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّهُ..»[1].

وجاء في الدعاء عن الإمام علي عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ مَلِكٌ مُقْتَدِرٌ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَا تَشَاءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ»[2].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٢٨.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٣٤.

تفصيل القول

١ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾

أرأيت الأرض العامرة كيف يُحيها الرَّبُّ بما ينزل من السماء؟

إن كنتَ قد تأملتَها وتبصّرتَ عبرتها ولطف ما فيها من تحوُّل كبير، عرفت مَثَلاً من قدرة الله على الإحياء؛ ليس إحياء موات الأرض وحدها وإنما موتى البشر أيضاً، وهما من سياق واحد. فكما أن البذور التي تنشأ من موسم الربيع تبقى في رحم التراب إلى موسمٍ آخر، حيث يتجدَّد الربيع فيربو فوق الأرض، فليكن كذلك ما تبقّى من خلايا الموتى في القبور المندرسة وفيها بقية حياة، فإذا جاء يوم البعث أنزل الله عليها ماءً فأحياها، وإذا هي انبعثت بإذن ربها من ضمير التراب ورحم القبور، والتي يقول عنها الرَّبُّ سبحانه (فيما يبدو): ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1].

ولأنَّ الله هو الحق، فله الأسماء الحسنى، ومنها القدرة الشاملة التي تسع القدرة على إحياء الموتى.

حقًّا لو تدبرنا مليًّا في حقيقة الحق بصفة تامة ومطلقة، لعرفنا بعض آفاق القدرة التامة. وإنما بالتأمل في تقلُّبات الكائنات ومدى هيمنة الرَّبِّ عليها، قد نسمو إلى معرفة بعض آفاق القدرة الإلهية، التي يقول عنها سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والله هو الذي خلق وأبدع وبثَّ الحياة وأعطى كل شيء خلقه

(١) سورة الانفطار، آية ٤ - ٥.

ثم هدى.. لأنه هو الحق.

والحق -كما يبدو لنا- هو الثابت الذي لا يزول ولا يحول. والله هو الحق، أما الخلق ففي قبضته يُقلِّبه كيف يشاء.

٢- ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

وحيث يعلم الإنسان بأن الله على كل شيء قدير، سيزيح عنه كل شك بالبعث أو بالبداء أو بالمعاجز والكرامات وغيرها، ويستوعب الكثير من حقائق العالمين بلا جهد كبير.

* * *

بصائر وأحكام

١- لأن الله سبحانه هو الذي أعطى كل شيء خلقه وهداه، وهو الذي يحيي الموتى، فهو الحق له الأسماء الحسنى.

٢- حينما يؤمن الإنسان بأن الله على كل شيء قدير، ينكشف عنه كل شك بالبعث، وسوف يستوعب الكثير من حقائق الخلق بلا جهد كبير.

الساعة آتية

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

* * *

من الحديث

سئل النبي ﷺ: مَا الْإِسْلَامُ؟.

قَالَ ﷺ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ»[1].

وقال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعَةٍ: حَتَّى يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»[2].

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٩، ص٣٣٧.
(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص١٩٨.

تفصيل القول

التعمُّق في دراسة سنن الله في الطبيعة، والتأمُّل في عبرها ودروسها، يدعو إلى الإيمان بقدرة الله على البعث، إيماناً راسخاً بأن الساعة آتية لا ريب فيها، بل ويجعل الراسخين في العلم يعيشون حقائق الساعة وهم في الدنيا، ويستحضرون مشاهدها وتنطبع سلوكاتهم بمقاييسها الحق.

ولقد بدأ الله تعالى ببيان أنه لو كان ثمة ريب بالنسبة إلى البعث، فما على الإنسان إلّا أن يتأمل في نفسه أولاً ثم الآفاق المحيطة به بما توحي إليه من أسماء الله الحسنى.. ثم انتهى السياق إلى النتيجة التي هي أصل أصيل في الكتاب الكريم، وهي أنّ الله حق.

ومن الحق؛ ومن السنن الإلهية في خلقه، أن القيامة آتية بلا أدنى ريب.

والبصيرة الخاصة بهذه الآية الشريفة تتجسد في أن للبعث موعداً أسماه الله: الساعة، وأن حركة الخلق تنتهي في موعد مُحَدَّد، وأن على الإنسان أن يُؤمن بنهاية الدنيا وبدء اليوم الآخر عند موعد محدد لا يعلمه إلّا الله سبحانه وتعالى.

فكما أن الله حق، وأنه يُحيي الموتى، كذلك هي الساعة آتية لا ريب فيها، وأنه تعالى يبعث من في القبور.

وهذه البصيرة لا بد أن تنتهي إلى الحكمة من خلق السماوات والأرض، حيث يتفكر المؤمن فيه ويعتبر به، كما قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1]. الأصل في ذلك أن يستدل المؤمن من خلال تفكره في أن خلق العالم لم يكن عبثاً ولا لهواً، لأنه لا يرى فيه سوى النظام والدقة والحكمة، فيزداد إيماناً بكون الله حقًّا، وأن المخلوق سائر إلى نقطة معينة كان الله قد حدَّدها، وهي فرض العدالة المطلقة على الخلق، وذلك لا يكون إلّا يوم القيامة، ولكن بما أن الرحمة هي من أسماء الرَّبِّ سبحانه فترى المؤمن يجأر منه إليه؛ ليسأله العفو والوقاية من النار.

» التعمّق في دراسة سنن الله في الطبيعة، والتأمل في عبرها ودروسها، يدعو إلى الإيمان بقدرة الله على البعث، إيماناً راسخاً بأن الساعة آتية لا ريب فيها.

بلى؛ إن الله هو الحق، ومن الحق أن ينقل الناس من دنياهم وقبورهم إلى حيث العدل.. إذ ليس من العدل ألّا يُحاسَب الظالم، كما أنه ليس من العدل ألّا يستوفي المظلوم حقه أو الصالح أجره الذي وُعِدَ به.

وهذه الحقيقة الصادحة تنتقل بنا إلى القول بأنه ما دام الله الخالق القادر على كل شيء لم يخلق الخلق ولم يتصرَّف فيه بالعبث والباطل، فإنه لا بد أن يمنع الإنسان نفسه عن التعامل مع نفسه ومع ما حوله بالعبث واللهو والباطل، ليتفاعل ما هو عدل وحق، وذلك بعد أن ينفي كل صور الريب عن عقله وقلبه في حكمة الخلق وحقانية المصير إلى الموعد المحدد؛ حيث ساعة القيامة.

بلى؛ إن الساعة آتية لا ريب فيها، لأن حركة الزمن تدل على حدوث النهاية.. فكل ما كان له بداية محكوم بنهاية، ولأن من ماتوا

(١) سورة آل عمران، آية ١٩١.

فيهم الظالم وفيهم المظلوم، وفيهم الصالح وفيهم الطالح.. فلابد للعدل أن يأخذ مجراه، ولابد للعقاب أن يحل في ساحة أحد، كما لابد للثواب أن يحل في ساحة آخر.

* * *

بصائر وأحكام

١ - بالتفكُّر في الخلق، وفي أطوار خلق الإنسان، وفي تقلبات النباتات من لحظة هطول الغيث إلى أن تخضرَّ الأرض وتحيا بإذن الله.. يحظى المؤمن بمعرفة ربه وأسمائه الحسنى، وأنه الحق، وأنه على كل شيء قدير.

٢ - وعندما يبلغ المؤمن درجة اليقين بقدرة الله، يؤمن بالساعة، وبأن وراء خلقه والكائنات من حوله حكمة بالغة، فلا باطل ولا عبث، فيزداد تقوى.

الجدال بين بصائر الحق ومُرديات الضلال

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

رُوي عن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة وأنس قالوا: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً وَنَحْنُ نَتَمَارَى فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّين، فَغَضِبَ غَضَباً شَدِيداً لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا. ذَرُوا المِرَاءَ، فَإِنَّ المُؤْمِنَ لا يُمَارِي. ذَرُوا المِرَاء، فَإِنَّ المُمَارِيَ قَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُه..»[1].

وعن أبي عبيدة الحذّاء قال: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «يَا زِيَادُ، إِيَّاكَ وَالخُصُومَاتِ فَإِنَّهَا تُورِثُ الشَّكَّ، وَتُحْبِطُ العَمَلَ، وَتُرْدِي صَاحِبَهَا،

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص١٣٨.

وَعَسَى أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ بِالشَّيْءِ لَا يُغْفَرُ لَهُ. يَا زِيَادُ؛ إِنَّهُ كَانَ فِيمَا مَضَى قَوْمٌ تَرَكُوا عِلْمَ مَا وُكِّلُوا بِهِ وَطَلَبُوا عِلْمَ مَا كُفُوهُ، حَتَّى انْتَهَى بِهِمُ الْكَلَامُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحَيَّرُوا، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُدْعَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَيُجِيبُ مَنْ خَلْفَهُ، أَوْ يُدْعَى مِنْ خَلْفِهِ فَيُجِيبُ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ»[1].

تفصيل القول

مع وضوح الحقائق كلها، إلّا أن كثيراً من الناس لا يتنبهون إليها أو تراهم يتغابون عنها، فلا يستفيدون منها. ولكن هؤلاء الذين لا يُسلّمون للحقائق، سوف يصطدمون ذات يوم بها، متى؟ عند البعث والنشور، فيدفعون ثمن تمرُّدهم عليها غالياً جدًّا.

١ - ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾

مَنْ هم هؤلاء؟

يبدو أنهم علماء السوء الذين يُحرِّفون الكلم عن مواضعه. ومن هنا ترى رسول الله ﷺ يقول: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي.

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ هُمَا؟.

قَالَ ﷺ: الْفُقَهَاءُ وَالأُمَرَاءُ»[2].

يلاحظ أن النبي الأكرم ﷺ قد قدَّم الفقهاء على الأمراء، لأن الفقهاء هم الذين يبثون الثقافة. فإذا ما حكم الأمراء الناس بالنار

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٥٠٣.
(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٣٧.

والحديـد، فقـد تبقـى في وعي الناس بقيـة إيمان. أما إذا فسـد الفقهاء، فإنهم سوف يُفسـدون الضمائر والقلوب، وستبقى آثار فسادهم فيمن يليهـم.. وعـلى هـذا الأسـاس نجد أن مـن حرّفـوا الأديـان وأدخلوا الأباطيل فيها كان لهم أسوأ العذاب في الدار الآخرة.

ومن مفاسـد هـؤلاء أنهم يسـتلبون من الناس سـلاح تحرُّرهم وتقدُّمهـم؛ لأنهـم يُصفِّقـون للحـكام الظالمين ويُـبرِّرون ظلمهـم ويُشرِّعون بقاء تسلُّطهم على الناس.

ولطالما حدثنـا القرآن عـن أئمة الكفـر، وبيَّن دورهـم السـلبي وعقابهـم. مـن هنـا كان على الإنسـان أن يجتاز -قبل أن ينـال رضوان الـرَّبِّ- عقبة علماء السـوء، فلا يتأثر بثقافتهم الفاسـدة، ولا بما يبثونه من وساوس وينفثونه من سموم التشكيك والتبرير.

ونتسـاءل: إذا كان في الناس علماء صادقون وعلماء سـوء، فأنى للجاهل أن يُميِّز بينهما؟.

٢- ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

يذكِّرنا الرَّبُّ سبحانه بأن معيار الجدال بالتي هي أحسن، الذي يمارسه العلماء الصادقون، أن يرتكز على أحد الروافد التالية:

١- العلم، لأنه كاشـف للحقيقة، وهو حجة إلهية، وهو يورث السكينة في النفس.

٢- الهـدى، وهـو أقـل مسـتوى من العلـم، ولأنـه يقين مجمل يُصدِّقه الوجدان ويتطابق مع الفطرة.

٣- الكتـاب الموحـى به، كالقـرآن والروايات الصحيحـة عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وهو يُورث اليقين بصورة غير مباشرة.

أما الفاقد هذه الروافد الثلاثة، فإنه لا يبقى لديه أي مُبرِّر للحديث عن الله، وإذا تكلَّم فإنه إنها يُجادل بالباطل؛ لأنه يتحدَّث آنئذٍ بهوى نفسه وينطق عن شيطانه.. وهو لا يعدو أن يكون ضالّاً مضلّاً عن سبيل الله، وعليه أن يختار السكوت.

وليس من ريب في أن مسؤولية المُتحدِّثين عن العلوم الدينية أن يتعلموا جيداً لكي يعرفوا حدودهم في اختيار الصمت أو الكلام؛ لأن القضية دقيقة وخطيرة جدًّا. كما أن عليهم أن يأخذوا علومهم عن المصادر الحقيقية للدين، وهي القرآن الكريم وتراث النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام دون اعتماد الأهواء والآراء الشخصية.

***

بصائر وأحكام

١ - من لا يتمتع بعلم ولا هدى ولا كتاب منير، فإنها يتكلَّم بهوى نفسه وينطق عن وساوس إبليس، ولا يعدو أن يكون ضالّاً مُضلّاً عن سبيل الله.

٢ - على الإنسان أن يُقيِّم مُدَّعي العلم، فإذا نطق بالعلم اليقين، أو بهدى صالح، أو بكتاب مُستنير، وإلّا فهو ضالٌّ مُضلٌّ، ووجب تجنبه.

خزي في الدنيا.. عذاب في الآخرة

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

عن حسين بن المختار قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهَ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ ثَلاثَةً: ثَانِيَ عِطْفِهِ، وَالْمُسْبِلَ إِزَارَهُ[1]، وَالْمُنَفِّقَ سِلْعَتَهُ بِالأَيْمَانِ»[2].

تفصيل القول

١ - ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾

مـن يجادل في الله بغير حق متكبرٌ جاحـدٌ للحق، ذو قلب مغلق

(١) والمنفق سلعته بالأيمان: الذي يحلف يميناً حتى يبيع سلعته.

(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٩٥.

وهـوى مُتَّبَع، إنه لا يحـاول الانفتاح على حديث أصحاب الحق، وتراه يطالـب الآخرين أبـداً بالدليل وهو فاقد للدليل؛ فـإذا ما جوبه بدليل منطقي، رفضه بكل تكبر.

٢- ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

لأن الحق يتمثل أبداً في رجال صالحين، ولأنّ التسـليم لهم دليل الإيمان، فإن المجادِل بالباطل يتكبر على هؤلاء.

٣- ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾

وعقبـى التكـبر عـلى أئمـة الهـدى ذلٌّ في الحيـاة الدنيـا وفشـل وهزيمـة.. وهكـذا نجـد أن عـالم السـوء نهايتـه السـوءى والفضيحة والخزي في الدنيا، وأن تستره بالدين لفترة لا يدوم، بل سوف يفضحه الربِ لكيلا تنطلى حيلته على السذج من الناس.

٤- ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

ما هو العذاب الحريق؟.

إننا حيث نعيـش الدنيا المحدودة من كل بُعد، نعجز عن تصور -بلى مجرد تصور- عذاب الآخرة.. ولكن عذاب الحريق في الآخرة، عذاب شديد عظيم ودائم، لا يخضع لمقاييس ما في الدنيا من أذى ومن عذاب أنّى تعاظم.

* * *

بصائر وأحكام

١- علامة الذي يُجادل في الله بغير علم، أنه رجل مُتكبِّر، ذو قلب مغلق على الباطل وهوى في الضلال مُتَّبع.

٢- الحق يتمثَّل في إمام صادق، وعلامة المُجادِل بغير حق التكبُّر عليه وعدم التسليم له.

ذلك بما قدمت يداك

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُضِلَّ أَحَداً، وَ ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(١)]»[(٢)].

ورُوي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام (في حديث) قال: «إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَنَحَ لَهُمْ شَيْطَانٌ اغْتَرَّهُمْ بِالشُّبْهَةِ وَلَبَّسَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَأَرَادُوا الْهُدَى مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالُوا: لِمَ؟. وَمَتَى؟. وَكَيْفَ؟. فَأَتَاهُمُ الْهُلْكُ مِنْ مَأْمَنِ احْتِيَاطِهِمْ، وَذَلِكَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد﴾[(٣)]»[(٤)].

(١) سورة الحج، آية ١٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٩٤، حديث رقم ١٦٦٥.
(٣) سورة فصلت، آية ٤٦.
(٤) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١٨، ص١٢٥.

تفصيل القول

يُؤكِّـد النص القرآني المجيـد على أن عقاب المُجـادِل في الله بغير حـق خزيٌ في الدنيا، وعـذاب الحريق في القيامـة. ولكن أين من ذلك رحمة الله الرحمن الرحيم؟.

الجواب على ذلك:

١ - ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾

إن الخزي ميراث الكبر عن الحق، والجدال بغير بصيرة.

إن كل موقـف باطـل يتخذه عالم السـوء، وكل كذبـة ينطق بها، وكل خطوة يسلكها ضد إمام الحق.. كل ذلك يتجسد عذاباً شديداً في الآخرة، كما هو خزي عاجل في الدنيا.

٢ - ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

العذاب قد اكتسبه الشرير لنفسـه، أمـا رَبُّ العالمين، فهو ليس بظلام لعبيده، حاشاه.

ومفـردة (ظـلَّام) صيغـة مبالغة لظـالم، وحيـث ورد النفي على صيغـة المبالغة، دلَّ على أن العباد لو لم يكونوا مسـؤولين عن جرائمهم ولم يسـتحقوا العذاب بفعل مسـؤوليتهم عن الجريمـة، لكان العذاب بالنسبة إليهم ظلماً مبالغاً فيه، ولكن الأمر ليس كذلك، فالرَّبُّ تقدَّس من كل هذا الظلم الكبير.

كـما أنه عز وجل اسـتعمل مفـردة (للعبيد) بدلاً عـن العباد، ذلك

لأن المفردة الأخيرة تُستعمل عادة لوصف الصالحين من البشر بينما العبيد عام، للإشارة هنا إلى أن الله لم يخلق الناس ليكونوا أشراراً، ويستحيل أن يكون ظلّاماً حتى للإشرار، وإنما الذي يُصيبهم، فإنما هو يصيبهم بما كسبت أيديهم، ونتيجةً لدوام إصرارهم على الشر والإجرام والإضلال.

* * *

بصائر وأحكام

كل ما يحلُّ بساحة علماء السوء من خزي في الحياة الدنيا وعذاب في الآخرة، إنما هو حاصلُ ما قدمته أيديهم من كبر وجدال بغير حق؛ لأن الله عز وجل ليس بظلّام للعبيد.

» إن الخزي ميراث الكبر عن الحق، والجدال بغير بصيرة. ويُؤكِّد النص القرآني المجيد على أن عقاب المجادِل في الله بغير حق خزيٌ في الدنيا، وعذاب الحريق في القيامة.

يعبد اللّه على حرف

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

* * *

من الحديث

عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ قَالَ عليه السلام: هُمْ قَوْمٌ وَحَّدُوا اللهَ وَخَلَعُوا عِبَادَةَ مَنْ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، فَخَرَجُوا مِنَ الشِّرْكِ وَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله رَسُولُ اللهِ. فَهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى شَكٍّ فِي مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وَمَا جَاءَ بِهِ. فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وَقَالُوا: نَنْظُرُ، فَإِنْ كَثُرَتْ أَمْوَالُنَا وَعُوفِينَا فِي أَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا عَلِمْنَا أَنَّهُ صَادِقٌ، وَأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ نَظَرْنَا»[1].

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٤١٤.

تفصيل القول

هل الهداية مسؤولية الإنسان، أم هي رحمة إلهية؟ وإذا كانت من فضل الله، فما هو دور الإنسان؟ وإذا كانت الهداية من قبل الإنسان فما هو دور الرحمة الإلهية؟.

أقول: إن الهدى والضلال بيد الله تعالى، فهو الهادي لمن يشاء والمُضِلّ لمن يشاء، إلَّا أن على الإنسان أن يقوم بدوره في العمل بما يقتضي الهدى ولا يقوم بما يقتضي الإضلال شأن ذلك شأن الرزق، حيث ينبغي لابن آدم أن يُمارس دوره في استحصال الرزق من الله تعالى.

أما دور الرحمة الإلهية في هداية البشر فيتمثل في ثلاث نقاط:

الأولى: أن الله يبعث الرسل لإيقاظ ضمير الإنسان وإثارة عقله.

الثانية: أن الله يُودع في جوهر الإنسان وجداناً وعقلاً ليتلقَّيا تلك الدعوة القادمة من الله تعالى عبر الرسل.

الثالثة: المنُّ على الإنسان بالتوفيق؛ أي أنه بعد أن يتوجَّه الإنسان إلى ربه المتعال، ويستجيب لدعوته الحقة، يجد الله يُلقي في قلبه نور الهداية.. وقد قال عز اسمه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2].

---

(١) سورة النور، آية ٤٠.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٧.

أي: ظلمات الجهل والغفلة.. فيُوفِّقهم إلى نور الهدى. وإن تحقُّق الفطرة البشرية الداعية إلى الهدى، وكذلك توفّر الدعوة النبوية، لا تُعفيان الإنسان من المسؤولية؛ لأنه مسؤول أولاً عن الاستماع للدعوة تبعاً لما غُرِسَ فيه من الإحساس بضرورة الابتعاد عن الخطر، وهو أيضاً مُكلَّف بالاستجابة للدعوة بعد الاستماع لها، لاسيما حين يجدها دعوة متلائمة مع الفطرة والعقل، وكذلك هو مُلزم بالمحافظة على الهداية إذا بلغها، فلا يتركها تضيع في ظلمات الهوى والشهوة والوساوس.. أي عليه أن يُقاوم بعد اهتدائه من قبل الله، لاسيما وأن الله لا شك سيمتحنه بوتيرة متصاعدة.

وهناك من يُؤمن ولكنه لا يدفع ثمن الإيمان. كلّا لا بد من دفع ثمن الجنة في الدنيا، والثمن ليس سوى الوعي والهداية والاستقامة على الطريق. وهذا قانون رباني ثابت؛ إذ لا يُخدع الله عن جنته. قال ربنا سبحانه عن مثل هؤلاء:

١ - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾

والحرف هو جانب الشيء وطرفه.. أي أن من الناس من يحب أن يكون في الحاشية دون المركز. إنه يتجنَّب الاضطلاع بمسؤوليات المجتمع المؤمن، وفي الوقت ذاته لا يُريد أن يُحسب مع الكفار، فهو يبقى في الطرف حتى يتهرَّب من المسؤولية مع أي طرف.

٢ - ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾

لأنه ليس إلّا عبداً للدنيا، ولا يفهم من الدين سوى كلمات يُردِّدها على طرف لسانه فقط.. فهو إذاً لا يتعامل إلّا مع ظواهر الأمور.

٣- ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾

لمجـرد أن يمر بصعوبة أو يُعـرَّض للامتحان في نقص بالأموال أو الأنفـس فقـراً أو مرضاً أو موت عزيز وغير ذلك.. تَسْـوَدُّ الدنيا في عينيه، ويفقد أمله في المسـتقبل الذي يُؤكِّد الدين على أنه بيد الله تبارك وتعـالى، ولأنه لا يملك البصيرة الكافية لفهم واسـتيعاب الحكمة من الفتنـة والامتحـان، فيكون كمـن يقف على حافة وادٍ سـحيق يقع فيها كلما هزَّته ريح النوائب.

٤- ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

حيث تنعدم المعرفة بحكمة الله في تمحيص خلقه، وحيث تشتد حـدة الطمع والحرص على الدنيا.. فـإن ذلك هو الخسران المبين للدنيا والآخـرة، لا سـيما حينما يفقد الخـاسر أمله بالله في الدنيـا، ناهيك عن غفلته عن حقيقة الآخرة، وحتمية حصولها.

إن الخسـران المبين يكمـن في أن يحرص المرء عـلى الدنيا ويغفل تماماً عن الآخرة.

ونستوحي من ذلك؛ أن على المرء أن يعدّ نفسه لوعي الامتحان قبل نزوله بسـاحته؛ لأن الحرب مع هوى النفس والشـيطان ينبغي أن تُعِدَّ لها عدتها. أما إذا غفل المرء وتكاسل، فلاريب أن العدو (الشيطان) سيكبسه في عقر داره، وآنذاك لا مفر من الهزيمة الماحقة.

وها هو القرآن المجيد قد بَيَّنَ الله تعالى لنا فيه كل شيء، فلا تبقى للإنسان أية حجة في ألَّا يفهم الحكمة من الحياة، وأن يغفل عن حتمية الآخـرة فينكـبّ على الدنيـا بلا فطنة أو ديـن.. والحـال أن المرء حيث

يعشـو عن ذكر الله، يتحـوَّل إلى ما هو أخف من ريشـة في مهب الريح العاصف.

* * *

بصائر وأحكام

١- الهدى والضلال بيد الله تعالى، فهو الهادي لمن يشاء والمضل لمن يشـاء، إلَّا أن على الإنسـان أن يقوم بدوره، في السـعي نحو الهداية وتجنُّـب الضلالة، شـأن ذلك شـأن الـرزق، حيث ينبغي لابـن آدم أن يمارس دوره في استحصال الرزق.

٢- مـن لا يملك البصيرة الكافيـة لفهم الحكمة من الامتحان، تجده وبمجرد أن يمر بصعوبة ينقلب على وجهه.

الضلال البعيد

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ قال: «يَنْقَلِبُ مُشْرِكاً، يَدْعُوْ غَيْرَ الله وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لَا يَكُوْنُ العَبْدُ مُشْرِكاً حَتَّىٰ يُصَلِّيَ لِغَيْرِ الله، أَوْ يَذْبَحُ لِغَيْرِ الله، أَوْ يَدْعُوْ لِغَيْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ»[2].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٤١٣.

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص١٣٦.

تفصيل القول

١ - ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾

حينما يهجر ابن آدم دين الله تعالى، تُسلب منه ما أودع الله فيه من كرامة.. حتى يصل به الأمر إلى السقوط في حضيض عبادة الأصنام والطواغيت والمال والشهوة والشهرة وأمثال هذه الأوهام والخرافات، ظنّاً منه أن فيها نفعاً أو دفعاً لضرر. فيما الأمر كله بيد الله وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾[1].

فالكفر بالطاغوت والإيمان بالله يعني التمسك بالحق والابتعاد عن الضلال. والعكس صحيح، حيث يوغل الإنسان في بعده عن الحق لدى ركونه إلى الجبت والطاغوت. والواضح واليقين أنه ليس هناك أبعد ضلالاً من أن يهجر الإنسان ربه ويُقبل على عبد فقير مثله إلى جلب نفع ودفع ضر.

٢ - ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

الإنسان الضَّالُّ يدعو من دون الله، ولو كان في المدعو نفع جدلاً، فإن ضره أكثر من نفعه؛ لأنه يسلبه رحمة ربه، ويُفقده كرامة التوحيد، ويُركسه في وحل الشرك، وهو لا يصلح أن يكون ناصراً عند الملمّات ولا صاحباً عند الحاجة.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

وفي السياق بصائر ما أعظمها وما أحوجنا إليها..

أولاً: إن الديـن فطرة راسـخة في كل بـشر، والذي يفقد الإيمان بـالله سـبحانه يبحث عـن بديل عنه ليُرضي في نفسـه هـذه الفطرة. إنه يبحث عن شخص أو شيء يُضفي عليه القدسية. فليس فقط يخضع له ظاهراً، بل ويُقدِّسه باطناً. وهذا أسفل انحطاط ترى الإنسان قد سقط فيه. ألا ترى كيف يعبد البعض الشمس أو القمر أوالنجوم والكواكب ويدعونها ويخرقون لهـا معابد، بل ويهدون إليها ذبائح، وبعضهم يعبد حيوانـات كالبقرة، أو حتـى صخوراً صماء، أو حتـى أن بعضهم يعبد حياء النساء؟.

حقًا ما أتفه الإنسان عندما يصبح خاوياً عن توحيد ربه.

ثانياً: إن ربنا يُحذِّر البشر من هذه النهاية المريعة ويأمره بالتمسك بهدى الله لكيلا يسقط فيها، ويُسميها بالضلال البعيد، وكأنَّ من يهوي من فوق قمة التوحيد لا يقف في تسـافله عند حد، بل يظل هاوياً حتى يسقط في قعر الوادي شاء أم أبى.

ثالثـاً: إن البـشر لا يقدر على مواجهة تحديـات الحياة لوحده بل تراه يبحث عن مولى يركن اليه عند الحاجة، أو عشيراً من الأحبة ينتمي إليهم ويستمد منهم عوناً ماديًا أو معنويًا. ولكن العكس هو الصحيح، فإنهم سوف يزيدونه رهقاً، ويكون ضررهم عليه أكبر من نفعهم.

وهكذا على الإنسـان أن يتمسـك بأهـداب التوحيد وينتمي إلى ربه قلباً وقالباً حتى لا يخطفه هذا المصير الأسود.

* * *

بصائر وأحكام

١ - عندما يهجر الإنسان دين الله يُسلب منه ما أودع الله فيه من كرامة.. حتى يصل به الأمر إلى السقوط في حضيض عبادة الأصنام والطواغيت والمال والشهوة، ظناً منه أن له فيها نفعاً أو دفعاً للضرر، ولكن هيهات.

٢ - لأن في ضمير الإنسان الحاجة إلى مهتدى، فإذا لم يؤمن العبد بهدى ربه، هوى في لجة عبادة غير الله ويدعوه ولا ينفعه شيئاً، بل ويضره ضرراً بالغاً.

« إن الدين فطرة راسخة في كل بشر، والذي يفقد الإيمان بالله سبحانه يبحث عن بديل عنه ليُرضي في نفسه هذه الفطرة. إنه يبحث عن شخص أو شيء يُضفي عليه القدسية.

يفعل الله ما يريد

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام علي عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِإِخْلَاصِ الإِيمَانِ، فَإِنَّهُ السَّبِيلُ إِلَى الجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ»[1].

وقال عليه السلام: «ثَمَنُ الجَنَّةِ العَمَلُ الصَّالِحُ»[2].

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٨٣، حديث رقم ١٣٤٣.
(٢) المصدر، ص١٥٤، حديث رقم ٢٨٧٦.

تفصيل القول

١- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

هؤلاء الذين آمنوا ليسوا من أئمة الكفر ولا من أشياع الضلال، وإنما هم متوجهون إلى الحق بشكل جدي، وقد تجاوزوا مرحلة الريب والشك حتى بلغوا مدارج اليقين.

وهذه الآية تتكرر في الخطاب القرآني، ولا بد للبشرية أن تستثمر هذا التكرار، كما كان عليها أن تعي التكرار الحاصل طيلة آلاف السنين من عمرها لتكتشف قانون الجاذبية من خلال تساقط الأجسام دائماً ولا تنتظر من يكتشفها بسقوط التفاحة المعروفة.

ومن لطائف الآية الكريمة أن الله تعالى هو الذي يُدخل الذين آمنوا الجنة ويستضيفهم فيها. وهذا يتفاوت معنىً عما لو كان الخطاب بصيغة: (إن الذين آمنوا سيدخلون الجنة)، أو (ستكون الجنة رزقهم في الآخرة).. حيث إن التعبير الوارد هنا يكشف عن عظيم الكرامة والجلال اللذين سينالهما المؤمنون من عند الله الكريم الرحيم ذي الجلال، حيث يردون عليه ضيوفاً مُكرَّمين.

ثم إن من عظيم الكرامة الربانية أن الله تبارك وتعالى سيشهد لهم حين يُعطَون كتبهم بأيمانهم بالإيمان والعمل الصالح.. ويراد من هذا الوعد الإلهي الكبير أن يكون بمثابة طاقة كبيرة تدفع المؤمن إلى مضاعفة الجهد من أجل تحصيل رضا الرَّبِّ والقرب منه.

ثم في الجنات أنهار تجري من تحتها، فيراها المؤمنون بأشكالها

وأنواعها ومادتها المتشكلة منها، كالماء واللبن والعسل وغير ذلك مما لا يعلمه البشر حتى الآن.. إشارة إلى نعمة الانشراح واللطف اللذين سيحظى بهما أهل الجنة.. هذا مضافاً إلى أن ذكر الأنهار في الآية للإيحاء بفيض الحياة وتواصل النمو والحركة في الجنان، مما يعني أن طاقة أهل الجنة وإمكاناتهم ستكون في نمو وتوسُّع دائمين.

٢ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

ذلك لأنه غالب على كل شيء ولا يعوقه عائق، وكيف يعوقه ما هو مخلوق له؟.

ويمكن القول: إن هذا القول الشريف سيتسق مع القول القرآني التالي: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[1].

حيث إن الله يفعل ما يريد بما يتضمن من استجابته لدعاء المؤمنين، فهو ينفق من فيضه كيف يشاء، لا كما قالت اليهود بأن يد الله مغلولة، ولا كما تقول العلمانية بأن الدين لا يفي بمتطلبات الدنيا وأنه لابد أن يُفصل بينهما.. فهذه مجرد وساوس يُراد منها إبعاد الإنسان عن إرادة ربه.

بلى؛ إن الله تعالى مُنفق كريم ويفعل ما يريد، ولا إرادة فوق إرادته، حتى أن من القدح في القدرة الإلهية والأحدية الربانية القول بأن ثمة ما له القدرة فوق قدرة الله وإرادته.. وبالتالي فإن الإنسان مُلزم بالركون إلى من هو القادر المطلق، وألّا يستسلم للوساوس الشيطانية التي تدعوه إلى التنصل عن التوحيد والعبودية والدعوة لغير الله ومن هم دونه تبارك اسمه.

(١) سورة الحج، آية ١٥.

بصائر وأحكام

١- من عظيم الكرامة والجلال اللذَيْن سينالهما المؤمنون من عند الله الكريم، استضافة ربهم لهم في جنته حينما يُدخلهم ربهم جناته.

٢- إن المؤمن بالله يتعالى على الوساوس الشيطانية التي تُشكّكه في قدرة الرَّبِّ الواسعة، ومنها قدرته على استجابته لدعاء عباده.

فليمدد بسبب إلى السماء

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «مَا مِنْ مَخْلُوقٍ يَعْتَصِمُ بِمَخْلُوقٍ دُونِي إِلَّا قَطَعْتُ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ دُونَهُ، فَإِنْ سَأَلَنِي لَمْ أُعْطِهِ، وَإِنْ دَعَانِي لَمْ أُجِبْهُ»[1].

ويقول ﷺ: «أَوْحَى اللهُ إِلَى بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ فِي بَعْضِ وَحْيِهِ إِلَيْهِ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأُقَطِّعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤَمِّلٍ غَيْرِي بِالْأَيَاسِ، وَلَأَكْسُوَنَّهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ فِي النَّاسِ، وَلَأُبْعِدَنَّهُ مِنْ فَرَجِي وَفَضْلِي. أَيُؤَمِّلُ عَبْدِي فِي الشَّدَائِدِ

(١) روضة الواعظين، الفتّال النيسابوري، ص٤٢٦.

غَيْرِي أَوْ يَرْجُوْ سِوَايَ وَأَنَا الغَنِيُّ الجَوَادُ، بِيَدِيْ مَفَاتِيْحُ الأَبْوَابِ وَهِيَ مُغْلَقَةٌ، وَبَابِي مَفْتُوْحٌ لِمَنْ دَعَانِيْ؟. أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ مَا أَوْهَنَتْهُ نَائِبَةٌ لَمْ يَمْلُكْ كَشْفَهَا عَنْهُ غَيْرِيْ؟ فَمَا لِيْ أَرَاهُ بِأَمَلِهِ مُعْرِضاً عَنِّيْ؟»[1].

تفصيل القول

أسماء الله عز وجل تهدينا إلى منظومة متكاملة من الحقائق والبصائر، ومن أبرز تلك الأسماء الرحمن والرحيم، اللذان يشيران إلى الرحمة الشاملة والدائمة التي لا تنقطع عن الإنسان ولو للحظة واحدة، كذلك اسم الرَّبّ حيث يؤكد على الرعاية غير المنقطعة.. بما يعني تواصل وشمولية العلاقة بين الخالق ومخلوقه.

ولا ريب في أن هذه العلاقة لا يُمكن قياسها بعلاقة الفرد بأقرب الناس إليه من الخلق مثل الوالدين، رغم وصفها بالأوصاف الطيبة والوطيدة، إذ سرعان ما يستغني الإنسان عن والديه من حيث الحاجات المادية لدى بلوغه وتكامله كما أن هذه العلاقة تنتهي عند انتقال أحد الطرفين إلى الدار الآخرة، وتبقى العلاقة مع الله الرَّبّ الرحمن الرحيم، سواء كان ابن آدم حيًا في الدنيا أو مقبوراً في لحده، أو مبعوثاً من جديد يوم القيامة.

نعم؛ إننا وفي كثير من الأحيان نجهل أو نغفل عن الألطاف الإلهية في حياتنا، والأدهى من ذلك أن ننسب كل الرحمانية والرحيمية والرعاية الإلهية إلى غيره سبحانه.

---

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٥٨٤.

١ - ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾

يشير هذا النص القرآني إلى أن القول بأن الله قد خلقنا وتركنا يمثل ضلالاً بعيداً، وهو من وساوس الشيطان الرجيم.

كَلَّا؛ إن الله سبحانه معنا في الدنيا، كما هو معنا عند الموت وفي القبر، حيث يتركنا الأهل والأقربون وينشغلون بمشاغلهم، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

ولكن الكفران بأنعم الله وبرحمته هو ما يدفع بالإنسان إلى الظن بأنه جل وعلا لن ينصره ولن يرفده.. وهذا من أبشع أنواع الظلم الذي يقترفه المرء بحق نفسه.

ولعل عدم التوجُّه بالشكر إلى الله سبب مباشر لمنع الزيادة، ولفرط ظلم الإنسان وجهله بفضل الله عليه، أنه يعمد إلى التفتيش عمّا يتصوره منقصة في الفضل والنعمة الإلهية، فيركز نظره إليه ليبرر ظنه السيئ بالله تعالى، وذلك لعدم تعرُّفه إلى الحكمة البالغة من نزول بعض النعم عليه، وحجب بعضها عنه.

إن هذا الواقع المرير يحكي عن الكفران بالنعم والجهل بحكمتها، وعلاجه بحاجة إلى هزة داخلية عنيفة لإحداث التغيير فيه. ولعل هذا ما تُشير إليه الآية الكريمة:

٢ - ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾

يبدو أن الآية تشير الى حركة غير طبيعية لو قام بها البشر افتراضاً مثل أن يمدد بحبل إلى السماء ويتعلّق به ثم يقطعه حتى يظل بين الأرض والسماء، فلا استقرار له في الأرض ولا انتماء له إلى السماء،

هل هذا هو الحل لمشكلته؟.

كَلَّا؛ إنه فعلاً مثل الذين لم يعبدوا ربهم، وإنما دعوا من لم يزدهم دعاؤهم إلَّا ضرراً، هؤلاء انقطع حبل المدد السماوي عنهم ولم ينفعهم المدد الأرضي. (وفي الآية تفسيرات أخرى لا تتنافى مع ظاهرها).

إن الذي يكفر بعون الله سبحانه له، ولا يعترف به ولا يشكره ولا يطلب المزيد، إنه قد أساء الظن بربِّه، ولا يتخلَّص من نتائج ذلك إلَّا بتذكر نعم الله واستحضار عدم نفع الناس له.

» أسماء الله تهدينا إلى منظومة متكاملة من الحقائق والبصائر، ومن أبرز تلك الأسماء الرحمن والرحيم، اللذان يشيران إلى الرحمة الشاملة والدائمة التي لا تنقطع عن الإنسان ولو للحظة واحدة.

وعلى الإنسان أن يتساءل أبداً: هل يمكن له أن يستغني عن الله وربوبيته ورحمته ونعمه الشاملة والمتواصلة بالظن السيئ بالله؟ وهل ثمة علاقة يمكن أن تربطه بما هو دون الله أفضل من العلاقة بالله رَبِّ العزة والرحمة؟ وأيُّ حبل للإنسان أن يتمسك به غير حبل الله المتين؟.

وليت الأمر حكر على واقع الدنيا فقط، بل هو منجر إلى واقع الآخرة أيضاً، إذ الله وحده هو مالك يوم الدين، ولن يتلقَّى الفرد نصراً أو شفاعة من طرف من الأطراف ما لم يأذن به الله سبحانه وتعالى، فهو الناصر والمعين الحقيقي في كل مراحل اليوم الآخر.

* * *

بصائر وأحكام

١ - إن علاقتنا بالله تعالى ينبغي أن تُؤسَّس على الاعتقاد الراسخ بـأن الله معنـا في الدنيـا، كما هو معنا عنـد الموت وفي القـبر.. وهو نعم المولى ونعم النصير، وإن دعاء غيره لا يزيدنا إلَّا خسـاراً.

٢ - الكفـران بأَنْعُـم الله، هو الذي يدفع بالإنسـان إلى الظن بأن الله سبحانه لن ينصره، وقد يجعله كمن يمدّ حبلاً إلى السماء يتمسك به ثم يقطعه فيصبح معلقاً بين الأرض والسماء.

اللّه يهدي من يريد

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

* * *

من الحديث

قالت فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبة لها في أمر فدك: «لله فِيكُمْ عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ: كِتَابُ الله بَيِّنَةٌ بَصَائِرُهُ، وَآيٌ مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهُ، وَبُرْهَانٌ مُتَجَلِّيَةٌ ظَوَاهِرُهُ، مُدِيمٌ لِلْبَرِيَّةِ اسْتِمَاعُهُ، وَقَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعَهُ، وَمُؤَدٍّ إِلَى النَّجَاةِ أَشْيَاعَهُ؛ فِيهِ تِبْيَانُ حُجَجِ الله الْمُنِيرَةِ، وَمَحَارِمِهِ الْمُحَرَّمَةِ، وَفَضَائِلِهِ الْمُدَوَّنَةِ، وَجُمَلِهِ الْكَافِيَةِ، وَرُخَصِهِ الْمَوْهُوبَةِ؛ وَشَرَائِعِهِ الْمَكْتُوبَةِ، وَبَيِّنَاتِهِ الْجَلِيَّةِ»[1].

وقال الإمام علي عليه السلام: «هُدَى الله أَحْسَنُ الْهُدَى»[2].

---

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج١، ص٢٤٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٩٤، حديث رقم ١٦٦١.

تفصيل القول

بعد أن بَيّنَ السياق القرآني الفئات الثلاث التي انقسمت تجاه الذكر الحكيم، حيث إن منهم من صَدَّ عن سبيل الله، وهم علماء السوء وأئمة الكفر، ومنهم من تَقَبَّل الرسالة على ريب، فعبد الله على حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابهم الابتلاء انقلبوا على وجوههم.. ومنهم من ثبت على الإيمان وعمل صالحاً، وهؤلاء ينصرهم الله في الدنيا والآخرة.

ها هو السياق القرآني يُؤكّد أن الله خير شهيد على صدق الرسالة السماوية، وشهادة الله هي أهم الأدلة الثابتة والقوية على مصداقية الرسالة النبوية. ومن مصاديق وتجليات الشهادة الإلهية على صدق الرسالة، أن الله ينصر رسله حين يُثبّتهم ويُظهرهم على أعدائهم.

١ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

أي إن هنالك آيات بينات لا ريب فيها.. ولو حدث نقص أو خلل، فإنما هو فيمن يتلقّى الآيات؛ دونها هي. فإن وجد المتلقي نفسه غير قادر على استيعاب مفاهيم الذكر الحكيم، فعليه أن يشك في نفسه ومُسبَّقاته الذهنية أو التربوية، وأن يُزكّي جوهره ويُصفّي نيَّته ليصل إلى الحقيقة. أما إذا كان الجوهر نزيهاً والنية سليمة والبصيرة نافذة، فإن الإنسان سيرى الحقيقة رأي العين.

ولمفردة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خصوصية مهمة جدًّا، ولها مدلول أعم وأهم من تصوّر واقع العلة والمعلول والسبب والمسبب.. فهي لها ظلالها وبُعدها الذي ينبغي الالتفات إليه، تبعاً للخصوصية القرآنية في التعبير.

ويمكن أن يكون المراد باستخدام هذه المفردة (القرآنية) هو أنه مع اختلاف المواقف البشرية من القرآن المجيد وتعدُّد ردود أفعال الرافضين له، إلَّا أنه كذلك الله قد أنزله بكل وضوح ومصداقية في مفرداته وسياقاته ومفاهيمه، وأنه لو أراد الإنسان التعرُّف إلى مقاصد القرآن الحكيم ومطالبه، لتسنى له ذلك بكل يسر؛ لأن الله تبارك وتعالى هو المريد لذلك.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بالعزة والهيبة والحكمة قد أنزل الله عز وجل كتابه المجيد؛ أنزله على صدر نبيه الأعظم ﷺ تارة، وتارة أخرى أنزله للناس آيات متتاليات.

﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ والآية الواحدة هي العلامة التي تجمع بين قوة العبارة التي لا تُضاهَى لغةً وأسلوباً مع أية عبارة أخرى، وبين دقة المعنى الذي تحمله للناس، ليقتربوا بمعرفته والعمل به إلى ربهم المتعال.

فكل آية فيها من وضوح البيان ما يجعلها حجةً على المطّلع عليها، بل إنها -بقوتها ومفهومها- تدعو الجميع إلى النزول عندها والتزود منها. وهذا سر معجزها، إذ فيها الإشارة إلى الحقائق الخارجية، وفيها من مخاطبة الوجدان ما ينفذ إلى الأعماق، وهي تدفع بالمُطّلِع عليها إلى نفض غبار المُسبَّقات الذهنية والإقبال على الحق كما هو.

ولو كانت غامضة وغير بينة لكانت عبثية، ولفقدت رسالتها، إذ المراد بالآية أن تكون علامة، والعلامة مشتقة من العَلَم، ولا خير في عَلَم يزيد الناظر إليه تيهاً.

وواضح أن الله قد جعل آيات القرآن بيِّنات؛ لأنه سبحانه جعله حجة دائمة على خلقه، حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

(١) سورة الحجر، آية ٩.

ومـن أسـباب الحفـظ الإلهي -كـما يبـدو لي- أنه واضـح وبَيِّنٌ بكلماتـه وآياتـه لكل ذي قلب وفطنة، وكلٌّ حسـب طهارة قلبه وإقباله على الآية.

ولـولا البيـان القـرآني الناتـج عـن الإرادة الإلهيـة في الحفـظ، لكان شـأنه شـأن الكتب السـماوية الأخرى، مثـل التـوراة والإنجيل وصحـف الأنبياء الأخرى؛ التي لم تجد قـدراً إلهيًا في الحفظ، باعتبارها -بمجموعها- ليسـت النص السماوي المقدس الأخير، الذي قُدِّر له أن ينزل على الناس كنص خاتم للنصوص السـماوية.. مما لقي جشـعاً عجيباً من قبل الرهبـان والحاخامات في تحريف كتبهم.. وهم لا زالوا عـلى ديدنهم هـذا إلى يومنـا، مُتذرِّعـين بمواكبة العصر ومجـاراة عامل الزمن وتطوُّر الذهن البشري!

لكـن القـرآن العظيـم ليـس كذلـك، فهـو يُسـقِط كل الحجج والذرائع بوضوح آياته في التعبير والأفكار.

٢- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾

إن وجـود الآيـات البيِّنـات لا يعنـي بالـضرورة أن الإنسـان سـيهتدي. ولو كان الأمر كذلـك لكان الناس أمة واحـدة في موقفهم من النص القرآني، وإنما الهداية أمـر متعلق بإرادة الله، وفق ما لديه من علم بنِيّة الإنسان واستعداده واستحقاقه، وبما عنده سبحانه وتعالى من حكمـة تجاه ابن آدم، باعتبار أن الهداية نـور وعرفان وعلاقة بين العبد والرَّبِّ المتعال.

* * *

بصائر وأحكام

١- شهادة الله أهم الأدلة الثابتة والقوية على هدف الرسالة.

٢- كل آية فيها من وضوح البيان ما يجعلها حجة على المُطَّلِع عليها، بل إنها تدعو الجميع إلى النزول عندها والتزوُّد منها. وهذا هو سر إعجازها.

٣- إن وجود الآيات البيِّنات لا يعني بالضرورة أن الإنسان سيهتدي بها، وإنما الهداية أمر مُتعلِّق بإرادة الله وفق ما لديه من علم بحقيقة الإنسان واستحقاقه.

اللّه يفصل بينهم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

***

تفصيل القول

الآية أعلاه تطرح سؤالاً جديداً مفاده:

إذا كان الله تعالى يهدي من يريد، فلماذا وقع الاختلاف في الآراء، ولماذا اختلفت الديانات والمذاهب والفرق، ولماذا توزّع الناس على الإسلام واليهودية والصابئة والمسيحية وعموم المشركين في العالم؟.

والجواب هو: إن هذه الدنيا ليست داراً للهداية التامة، وإنما الهداية الحقيقية والتامة، والوضوح المطلق للحقائق، سيكون في الدار

الآخرة، حيث تبلو السرائر وتتمثّل الاعمال. أما ما في هذه الدنيا من هداية، فيتحصّل بعمل صالح كبير جلي يقوم به الإنسان، وبرحمة إلهية وفضل رباني. وفي الآخرة يفصل الله بين الحق كله وأهله، وبين الباطل كله وأهله.

١ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾

فالذين آمنوا، وهم المسلمون المهتدون.

والذين هادوا، أي اتخذوا لأنفسهم ديانة بعيدة عن ديانة أنبياء بني إسرائيل واتّبعوا يهوداً.

والصابئون، وهم ممن عُرِفَ عنهم الاهتمام بالنجوم، والمعروفون بالاقتباس للمفاهيم الصادرة عن هذا النبي أو ذاك، مع ما اعترى سيرة هذا النبي أو ذاك من تحريف.. فاتخذوا لأنفسهم منهجاً التقاطيّاً من مختلف الأديان والمذاهب المحرّفة، ولعلهم كانوا في الأصل يهوداً، أو نصارى فانحرفوا.

والنصارى، وهم أتباع الديانة المسيحية التي أصابها الكثير من التغيير والتبديل أيضاً.

والمجوس؛ وهم مدّعو اتّباع زرادشت، وقد كفروا به، فعاقبهم الله تعالى برفع كتابهم من بينهم، فلم تبق منه غير كلمات متناثرة بسيطة أدت بهم إلى تقديس النار والقول بوجود إلهين للخير وللشر.

والمشركون؛ وهم -وفق المصطلح القرآني- على نمطين: نمط يشمل جميع الذين يشركون بعبادة غير الله، بمن فيهم أهل الكتاب..

ونمط آخر يقصد به عُبّاد الأصنام خاصة، وفي مقدمتهم كفار قريش. ولعل من المشركين أيضاً من يُقحمون أنفسهم في الشرك الخفي الذي يعم ممارسة الرياء واليأس من رَوح الله وأمثال ذلك.

إن كل هذه الديانات ستبقى في الدنيا، وسوف يختلفون فيما بينهم في الدنيا، وسوف يُبتلى بهذا الاختلاف خلق كثير. أما في الآخرة فالأمر مختلف، حيث:

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

فصلاً تامًّا حيث تتّضح الحقائق. وهذا يدل على أن من الخطأ توقُّع اهتداء هؤلاء كلهم إلى الحق في دار الدنيا، لولا أن الله كتب أن يُظهر للناس حجته الموعود ﷺ ليُقيم قيامة صغرى في عصر ظهوره الشريف، حيث يجمع الناس على الحق والهدى.

ولذلك؛ لا ينبغي لنا أن نتنازل نحن عن مفاهيم القرآن وأفكار الحق من أجل فلان وفلان، أو نتنازل عن بعض الحق لكسب ود هؤلاء أو أولئك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

ثم قال ربنا سبحانه:

٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

هو الشهيد على كل شيء، وهو الحاكم على كل شيء؛ وهكذا فإن شهادته حكم صارم على الجميع، سواء في الدنيا أو في الآخرة. وهو حينما يحكم، فإنما يحكم بالحق والعدل. وهكذا كان علينا جعل

(١) سورة البقرة، آية ١٢٠.

رضاه معياراً لنا لا رضا خلقه، وأن نلتمس منه وليس من غيره الهداية والرحمة، إذ هو المُطَّلع على الخبايا والسرائر، وهو الرقيب علينا، وهو المدبر المهيمن سبحانه.

***

بصائر وأحكام

١- الهداية الحقيقية والتامة، والوضوح المطلق للحقائق، سيكونان في الدار الآخرة، حيث تتجسَّد النوايا، وتنكشف السرائر، وتتمثَّل الأعمال، ولا ينبغي أن ننتظر هداية سائر الخلق إلى الحق.

٢- شهادة الله حكم صارم على الجميع، سواء في الدنيا أو في الآخرة، وعلينا اتخاذه مقياساً لسلوكنا ومعياراً لمعرفة الحقائق.

الخلائق تسجد للَّه

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾.

* * *

تفصيل القول

للطبيعة من حولنا لغة خاصة، وقد أُوتي الإنسان فهم هذه اللغة؛ لولا أنه يغفل عنها، أما إذا تعاطى مع الطبيعة بلغتها وتحدَّث معها وتحدَّثت معه وتفاعل معها إيجابيًا، فسيشعر بانشراح كبير؛ لأنه يعيش في مهرجان كبير من الإيمان والحب والسمو.. ومعه كل شيء يحيط به.

فإذا كانت الجبال تُسبِّح مع النبي داود عليه السلام، ثم يُلان له

الحديد، وإذا كان النبي سليمان عليه السلام قد أُوتي منطق الطير وسُخِّر له الجن، وإذا كانت النار تتحوَّل برداً وسلاماً على النبي إبراهيم عليه السلام.. وإذا كان الأنبياء يتحدَّثون حتى مع الحصى، والحصاة تُسبِّح في أكفهم.. وإذا كانت السماوات العلى ومن فوقها العرش قد أضحت تحت طوع رسول الله صلى الله عليه وآله.. فإن لنا نحن البشر العاديين البسطاء قياساً بالأنبياء والأئمة عليهم السلام أن نتفاهم وأن نصل إلى مستوىً مقبول من العلاقة الطيبة والثقة المتبادلة مع خلق الله، حينما نطرد من أنفسنا الغرور والأنانية، ونتجنَّب التعالي على الأشياء، ونُطهِّر مجمل ثقافتنا من كل ذلك الكبر.

والآية أعلاه تشير -فيما تشير- إلى أن البشر جزء من خلق الله، وأن ما في الطبيعة إنما هي مخلوق مسخر لأهداف معينة، من أهمها أنه سبحانه وتعالى يمتحننا بها.

١- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾

مطلع الآية الكريمة يرشدنا إلى ضرورة أن نرى ما حولنا. وهكذا نتناغم مع الخليقة، حيث نتبصَّرها ونُفكِّر بشأنها، فلا نعيش في زنزانة الذات، حيث لا نرى إلَّا أنفسنا وما يتعلَّق بها.

إنّ على الإنسان أن يتجرَّد عن همومه ومشاكله وما لديه من ثقافة سلبية، ثم يتوجَّه بكله إلى منطق الطبيعة المحيطة به، ليفهم ويعي ما تحمل من رسالة آتية إليه من جانب الخالق تبارك وتعالى.

٢- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾

قدم النص القرآني لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ على الجملة تشريفاً وتعظيماً على مفردات الخليقة، رغم أنه كان يتوقع أن تكون الجملة على

النحو التالي: أن من في السماوات ومن في الأرض و..و.. يسجدون لله.

أما الاسم الموصول ﴿مَن﴾ فعادةً ما يُستعمل ويراد به العاقل، فيما الخبر هنا عن السماوات والأرض والشمس وقسيماتها.. وتفسير ذلك في أمرين:

الأول: إن للجمادات قدراً من الشعور، كما للأحياء والنباتات، هذا حسب المنطق القرآني الذي تحدَّث -فيما تحدَّث- عن أن الله سبحانه وتعالى قد عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. وعَرْضُ الأمانة -وأمانة بهذا الحجم- لابد أن يُوجَّه إلى من لديه شعور ويتمتَّع بتمييز، ناهيك عن رفض تحمل الأمانة والإشفاق منها.. إذ لابد أن يكون بعد تمحيص واتخاذ قرار بناء على ما لديه من الإدراك.

الثاني: إن الرؤية المطلوبة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد تكون من أفعال الجسم، وقد تكون من أفعال القلب. والرؤية هنا رؤية القلب؛ إذ لا يسع الإنسان أن يرى سجود السماوات والأرض إلَّا بقلبه.

ثم إذا نُسِبَ فعلُ عاقلٍ يتكلَّم إلى غير عاقلٍ لا يتكلَّم، يتحوَّل المعنى إلى حيث يكون غير العاقل كأنه عاقل، حيث نُسِبَ إليه الفعل. وفعل السجود هنا قد نُسِبَ إلى السماوات وما بعدها، وهي مخلوقات غير ناطقة كما هو ظاهر. ولذلك، فإن فعل السجود هذا يرتقي بتصورنا تجاهها لنُؤمن بأنها عاقلة إلى حدٍّ ما.. هذا فضلاً عن أن المخلوقات جميعاً في مقام

» للطبيعة من حولنا لغة خاصة، وقد أُوتي الإنسان فهمها، لولا أنه يغفل عنها، أما إذا تعاطى مع الطبيعة بلغتها وتحدث معها وتحدثت معه وتفاعل معها إيجابيًا، فسيشعر بانشراح كبير؛ لأنه يعيش في مهرجان الإيمان والحب والسمو.

الوقوف أمام الله تعالى سواسية إلا ما كَرَّمَ الله تعالى بعضها على بعض.. وإلّا فإنها جميعاً، والإنسان والملائكة والجن منها، تبقى مجرد مخلوقاته سبحانه وهي في غاية الصغر في محضر الله سبحانه، الذي هو عظيم القدرة وواسع العطاء.

٣- ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

إنها صورة رائعة هذه التي يعرضها النص القرآني، حيث الترتيب في الرؤية من علٍ.

والكثير من الناس يرون أنهم ليسوا فقط مَنْ يسجدون لله، وأنهم ليسوا بدعاً بين المخلوقات.. بل إن سجودهم للرَّبِّ العلي العظيم يُعبِّر بشكل من الأشكال عن شديد الانسجام مع مَنْ وما حولهم من عناصر الخليقة، وعدم السجود هو الشذوذ التام عن واقع الطبيعة المحيطة بهم.

٤- ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾

وهذا الكثير هم الخاسر المطلق لواقعهم ومستقبلهم، إذ استبدلوا الرحمة بالعذاب، كما أنهم استكبروا فلم يحوزوا المكانة والمقام الذي أراده الله سبحانه وتعالى لهم. ولذلك فإن العذاب قد ثبت عليهم، لا يستطيعون منه فكاكاً.

٥- ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾

فمن لم يؤمن بالله الواحد الأحد واستكبر عن معرفته فإنما هو المُهان، وهو الذي تُسلَب منه كرامته التي أُعطيها حين جعل له فرصة السجود لله وحده.

ونستفيد من النص الشريف أن ما يدفع ابن آدم إلى عدم السجود والخضوع لله؛ هو تمرده الداخلي وجهله وظلمه لنفسه، فيما العزة تكون من نصيب الساجدين والخاضعين لربهم.

والسجود لله يتمثَّل ظاهراً في جعل أعز ما عنده على التراب، وهو جبهته. ويتمثَّل واقعاً في التسليم لله وحده ولمن أمر الله بطاعته، والتمرُّد على غيره سبحانه من الجبت والطاغوت.

* * *

بصائر وأحكام

١- على الإنسان أن يتجرَّد عن همومه وما لديه من ثقافة سلبية، ثم يتوجَّه بِكُلِّه إلى منطق الكائنات المحيطة به ليفهم ما تحمل من رسالة إلهية إليه.

٢- المخلوقات جميعاً في مقام الوقوف أمام الله تعالى سواسية.

٣-إن ما يدعو الإنسان إلى عدم السجود لله، جهله وظلمه لنفسه، فيما العزة تكون من نصيب الساجدين لربهم.

خصمان اختصموا في ربهم

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾.

* * *

من الحديث

عَنِ النَّضْرِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قُلْتُ لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؛ حَدِّثْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾. قَالَ عليه السلام: نَحْنُ وَبَنُو أُمَيَّةَ، اخْتَصَمْنَا فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ قُلْنَا: صَدَقَ اللهُ، وَقَالُوا: كَذَبَ اللهُ، فَنَحْنُ وَإِيَّاهُمُ الْخَصْمَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَوْ أَنَّ سِرْبَالًا مِنْ سَرَابِيلِ أَهْلِ النَّارِ

---

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٤٣.

عُلِّقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَمَاتَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ رِيحِهِ»[1].

وعن قول الله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ «رُوِيَ فِي خبر مرفوع أنه يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ، فَيَنْفُذُ إِلَى أَجْوَافِهِمْ، فَيَسْلُتُ مَا فِيهَا»[2].

تفصيل القول

إنما أُمِرنا عند تلاوة آيات العذاب بالاستعاذة بالله، وعند تلاوة آيات الثواب بأن نسأل الله تعالى إياه، وذلك لكي نُطبّق الآيات على أنفسنا نظراً لوجود الوساوس الشيطانية التي لا تنفك تحاول إبعادنا عن الحق. ويبقى البشر مُعَلَّقاً بين الجنة والنار حتى يأتيه اليقين، لأنه لا أحد يدري كيف تكون عاقبته.

١- ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾

أي: هؤلاء أفراد فريقين اختصموا بعد خلاف فيما يتصل بعبادة الرَّبِّ سبحانه، وكان لدى كل منهم ثقافةٌ وتَجمُّعٌ وقيادة، وكانت المسافة بينهما في دار الدنيا غير بعيدة، والفرق بينهما غير بَيِّن، ولكن المسافة هناك في يوم القيامة كانت هائلة، فهي بمقدار المسافة بين الجنة والنار.

وعلينا وعي هذه المسافة لنعرف أنه ليس من الصحيح تمييع التمايز بين الحلال والحرام، أو بين الحق والباطل.. فتُدحض بذلك

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن ابراهيم القمي، ج٢، ص٨١.
(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص١٤٠.

الشبهات التي تُلْبِس الحق بالباطل، فلا يسع المرء حينها التمييز بين الطرفين.. والشيطان من ديدنه أن يُصوِّر للإنسان الحق باطلاً والباطل حقًّا حتى يجد نفسه مقحماً في النار.. ولذلك، لا بد من أن يُكَرَّس التمايز بين الحق والباطل في الوعي والسلوك، ليستطيع الفرد في نهاية المطاف أن يُحدِّد الناطق بالحق فيتَّبعه، كما يُحدِّد الناطق بالباطل فيجتنبه.

وإنما قال تعالى: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ للإشارة إلى أن الخصومة غالباً ما تبدأ من القيادات ثم تتنزل إلى القواعد.

أما كلمة ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ فهي لا تشير فقط إلى الصراع حول أصل الإيمان بالله، وإنما الخصومة أيضاً حول شرائع الله وكذلك حول أنبيائه وأوصيائهم عليهم جميعاً صلوات الله.

٢- ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

هؤلاء كفروا بالحق وكان كفرهم قد أرداهم في سواء الجحيم، حيث..

٣- ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾

كأنهم قد فُصِّلَت الثياب على مقاساتهم بالضبط.. وثيابهم من نار؛ أي أنهم قد جُرِّدوا مما كان يسترهم حتى بانوا على جلود أجسامهم، وصارت النار ملتصقة بهم أيما التصاق، من رقابهم وحتى أخمص أقدامهم.

٤- ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾

الحميم هو الماء الحار.. فالنار محيطة بأجسامهم، فيما الماء الحار جدًّا يُصَبُّ على رؤوسهم.. وليتهم يموتون حينها، بل إن الموت قد

أُبعِدَ عنهم. والمخ الذي هو مركز الجسم يُعرَّض لأقسى العذاب، فيسري الألم الشديد إلى كل أجزائه. نستعيذ بالله من ذلك المصير الأسوأ.

※ ※ ※

بصائر وأحكام

١- لا يمكننا نحن البشر تصور المسافة بين النار والجنة، وهي ذاتها المسافة بين أهل الباطل الذين اختصموا في ربهم مع المؤمنين، وإن كنا نراهم مثليهم رأي العين في الدنيا. وعلينا أن نعي هذه المسافة حتى يتمايز عندنا أبداً ما يتصل بالنار من الباطل والحرام، وما يتصل بالجنة من الحق والحلال.

٢- على البشر أن يرى أبداً نفسه مَعْنِيَّةً بالآيات، لكيلا يتردّى في مصير الأسوأ عاقبة، وهم أهل النار.

من عذاب الآخرة

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في أحوال أهل النار (في حديث):

«ثُمَّ يُؤْتَوْنَ بِكَأْسٍ مِنْ حَدِيدٍ فِيهِ شَرْبَةٌ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُمْ تَقَلَّصَتْ شِفَاهُهُمْ وَانْتَثَرَ لُحُومُ وُجُوهِهِمْ، فَإِذَا شَرِبُوا مِنْهَا وَصَارَ فِي أَجْوَافِهِمْ يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُود»[1].

تفصيل القول

يسري الألم من قمة رؤوس الذين كفروا واختصموا في ربهم

(١) الاختصاص، الشيخ المفيد، ص٣٦٣.

بعـد أن يُلبَسـوا ثياب النـار، وبعـد أن يُصبُّ فوق رؤوسـهم الحميم، فَيُصْهَـرُ ما في بطونهم؛ والصهر عادة يُستخدم لإذابة الحديد، أما ما في بطون هؤلاء فلم يكن من الحديد، فلماذا عَبّر عنه بالصهر؟.

لعل السبب هو أنه لم يكن يحترق حتى ينتهي أمره، بل هو يحترق ويبقـى في دائرة الانصهار المتكـرر.. فيبدأ من البطن وينتهي عند الجلد الذي هو الآخر يُصْهَر حسبما يبدو من الآية ولا يحترق.

وهكذا نعرف أن جلد المعذَّب في جهنم يُعذَّب من موقعين: من خارجه عبر لهيب النار، ومن داخله بفعل انصهار ما في البطن بالحميم والعياذ بالله.

ومـن الطبيعي بمكان تصور المـاء الحار -الحميم- الذي يدخل بطونهم، ليس بالماء الذي نعرفه في الدنيا، مهما كانت درجة حرارته، بل هو ماء خاص لا يتبخر بفعل حرارة جهنم، وقد أُعِدَّ خصيصاً لعذاب أهل النار.

* * *

بصائر وأحكام

من العذاب الذي يشمل الذين اختصموا في ربهم، أن يُصْهَر ما في بطونهم حتى ينتهي إلى الجلود التي هي الأخرى تُصْهَر والعياذ بالله.

مقامع من حديد

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾: «لَوْ وُضِعَ مِقْمَعٌ مِنْ حَدِيدٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهُ مِنَ الْأَرْضِ»[1].

تفصيل القول

حيث يلبس أهل جهنم ثياب النار، ثم يُصَبُّ على رؤوسهم مَغْلِيُّ الماء، فإذا أرادوا أن يرفعوا رؤوسهم، لا يسمح لهم إلَّا بالإذلال،

---

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٨، ص٢٥٢.

حيث تُبادرهم الملائكة بمقامع الحديد ليضربوهم ويجبروهم على تنكيس رؤوسهم.

وهكذا يُحاصَرُون بثياب النار ولهيبها، والحميم والضرب على الرؤوس بالمقامع الحديدية من قبل الملائكة الغلاظ الشداد.

إنهم استكبروا في الأرض وجزاؤهم اليوم المهانة، وتمتعوا بالحرام وها هم يُسْقَون من الحميم والعياذ بالله.

* * *

بصائر وأحكام

على الإنسان أن يتذكر أبداً أن لكل فساد ينحرف إليه عذاباً يناسبه، فإذا استحضر في وعيه ذلك العذاب لم يصعب عليه ترك الحرام.

ذوقوا عذاب الحريق

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام (في حديث): «وَإِنَّ جَهَنَّمَ إِذَا دَخَلُوهَا هَوَوْا فِيهَا مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عاماً، فَإِذَا بَلَغُوا أَعْلاهَا قُمِعُوا بِمَقَامِعِ الْحَدِيدِ وَأُعِيدُوا فِي دَرَكِهَا، فَهَذِهِ حَالُهُمْ. وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾»[1].

تفصيل القول

يحلو لبعض الناس القول بأنهم قد يتعذبون في الأيام الأولى

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٨، ص٢٨٠.

لجهنم، ثم يتعوّدون عليها، كما قد يتعوّد المرء على الفقر أو المرض أو الوحدة في دار الدنيا.

لكن الواضح من سياق الآية أن أهل النار لن يسنح لهم التعوُّد عليها، والدليل على ذلك محاولاتهم الدائمة للخروج من العذاب.

١ - ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾

فهم في استماتة أبدية للتخلص من النار، فهي عذاب الله الشديد، ومن شدتها أنها غير قابلة للتعوّد عليها، إذ الشخص فيها محاط بحالة غم غير طبيعية من جميع الجهات.

فهم يريدون الخروج، فيُعادوا. ويتمنون مغادرتها، فيروا عظيم العذاب الخاص بكل فرد، فينكفئوا على كآبتهم. ولعلهم يفعلون ذلك بعد أن تسخر منهم الملائكة بإعطائهم فسحة قليلة جدًّا من الحركة.. وهذا مجال إرادتهم في الخروج من النار، فيعودوا خائبين في كل مرة.

٢ - ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾

مرة أخرى يجدون أنفسهم قد عادوا إلى العاقبة السوءى ذاتها، ويبقى العذاب الذي لا يزال يحرق أجسادهم المرة بعد المرة وإلى الأبد.

بصائر وأحكام

على الإنسان في الدنيا أن يعي أبداً حجم العذاب يوم القيامة، ويتجنَّب وساوس الشيطان إليه بأنه يستطيع منه فكاكاً أو عليه تعوُّداً، إنما بالتقوى، والتقوى فقط، يُرجى لابن آدم النجاة من النار.

في نعيم الجنة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ مِنْ أَدْنَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ يُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ مِنْ مَسَافَةِ الدُّنْيَا، وَإِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً لَوْ نَزَلَ بِهِ أَهْلُ الثَّقَلَيْنِ الْجِنُّ وَالإِنْسُ لَوَسِعَهُمْ طَعَاماً وَشَرَاباً، وَلَا يَنْقُصُ مِمَّا عِنْدَهُ شَيْءٌ.

وَإِنَّ أَيْسَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيُرْفَعُ لَهُ ثَلَاثُ حَدَائِقَ، فَإِذَا دَخَلَ أَدْنَاهُنَّ رَأَى فِيهَا مِنَ الأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ وَالأَنْهَارِ وَالثِّمَارِ مَا شَاءَ اللهُ مَا يَمْلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً وَقَلْبَهُ مَسَرَّةً، فَإِذَا شَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ قِيلَ لَهُ: ارْفَعْ

رَأْسَكَ إِلَى الحَدِيقَةِ الثَّانِيَةِ فَفِيهَا مَا لَيْسَ فِي الأُخْرَى. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَعْطِنِي هَذِهِ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنْ أَعْطَيْتُكَ إِيَّاهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: رَبِّ هَذِهِ هَذِهِ. فَإِذَا هُوَ دَخَلَهَا شَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ.

فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ بَابَ الجَنَّةِ، وَيُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَإِذَا قَدْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الخُلْدِ وَيَرَى أَضْعَافَ مَا كَانَ فِيهَا قَبْلُ، فَيَقُولُ عِنْدَ تَضَاعُفِ مَسَرَّاتِهِ: رَبِّ لَكَ الحَمْدُ الَّذِي لَا يُحْصَىٰ إِذْ مَنَنْتَ عَلَيَّ بِالجِنَانِ، وَنَجَّيْتَنِي مِنَ النِّيرَانِ»[1].

تفصيل القول

منظومـة من العذاب بَيَّنها القرآن بالنسـبة إلى الكفار في الآيات السـالفة، وهـا هي منظومة مـن الثواب يُبيِّنهـا ربُّنا المتعال بالنسـبة إلى المؤمنين. وبعيداً عن بيان هاتين المنظومتين، لابد أن نتساءل عن الهدف من هذا السياق القرآني؛ الذي إن عرفناه استطعنا أن نحققه في أنفسنا.

لتوضيـح الإجابـة، لابـد أن أقـول بـأن للإنسـان نوعـين مـن الأفـكار، نوعاً يُعـدُّ ظرفاً، ونوعاً يُعـدُّ مظروفاً. أما الأفـكار الظرفية؛ فهي ما يمكن تسـميته بالعقل الباطن؛ أي غيب النفس الإنسـانية. فيما الأفكار المظروفية هي التي تتوارد على ذلك.

وإزاء كل ما يرد على الإنسـان من النوع الثاني تكون ردة الفعل مـن جانبه، بناء على ما هو موجود لديه مـن النوع الأول؛ أي أن النوع الأول من الأفكار هو الذي يُحدِّد موقف الفرد من أفكار النوع الثاني.

فقد يسـمع شـخصان صوتاً مدويـاً واحداً، فـترى الأول يثبت

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٨١.

ويود الاطلاع على مصدر الصوت.. فيما الفرد الثاني ينهزم.. والداعي إلى هذين الفعلين طبيعة ما لديهما من قواعد فكرية متفاوتة تحتم عليهما التفاوت في موقفيهما، أقصد الشجاعة في الأول والجبن في الثاني.

وقد تُسمَّى هذه القواعد والقوالب الفكرية في لغة اليوم بالقيم.

وحيث تختلف القيم لدى الناس، فإن ردود أفعالهم تجاه ما يردهم ستختلف وتتفاوت.. ولذلك تجدهم متفاوتي الموقف فيما يتعلَّق بما يردهم من أنباء عن يوم القيامة؛ فمنهم من يُفضِّلون العاجلة، ومنهم من يُقدِّمون عليها الآجلة. وهذا تعبير عمَّا لديهم من قيم وقواعد فكرية.

أما القرآن المجيد فهدفه الأول ليس السلوك الإنساني المباشر فقط، وإنما هو يستهدف أيضاً صناعة المتبنيات الفكرية أو القيم التي تؤثر في سلوك الفرد وردود أفعاله تجاه الحقائق؛ لأن السلوك ما لم يتصل بقيمة سليمة، فإنما هو سلوك ظاهري وإن اتسم بمسحة صالحة. بيد أن هدف الكتاب المجيد هو تغيير القيم، حتى أنك قلَّما تجد فيه نصًّا لا يتصل بهذا الهدف الكبير وإن كان يبدو ظاهراً أنه يتحدَّث عن الأحكام الشرعية أو السلوك المباشر.

وهكذا علينا إذا قرأنا آية عذاب أن نبحث في مدى تأثيرها بصناعة القيم فينا، حيث تضطرنا إلى تجنُّب العذاب. وكذلك إذا قرأنا آية ثواب فعلينا أن نهتم كل الاهتمام في مدى ما تصنعه فينا من قيم تنتهي بنا إلى طلب ذلك الثواب بأية طريقة ممكنة، بل وأن ندفع لأجل ذلك كل ثمين متاح لنا.

أما إذا قرأنا الآية قراءةً ظاهرية، أو لم تؤثر في جوهرنا ضمن

الهدف القرآني، ولم تَصُغْ نفوسنا صياغة تتفق والمنهج القرآني، فعلينا أن نعلم بأننا لم نستفد من النص القرآني بما فيه الكفاية، بل لا زلنا بعيدين عن المدرسة القرآنية.

١ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾

كما أولئك قد قُطِّعت لهم ثياب من نار، فإن هؤلاء قد أُدخلوا جنات.

والفرق بين ثياب النار أنها تنتج الضيق والحرارة والألم الفظيع.. بينما الجنات واسعة رحبة مفعمة بالنعم وتنتج السعادة، بل هي السعادة بعينها. والجنة إنما تعني كل النعيم وكل الولاية في التصرف بما فيها.

٢ - ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾

فهي ينبوع الحياة بكثرة أنهارها وألوانها.

وهي بالإضافة إلى كونها جنة، كذلك فيها أساور من ذهب ولؤلؤا. وقد يكون اللؤلؤ شيئاً مجرداً، أو يكون مثبتاً في السوار. ويبدو أن الأساور هنا يُقابَل بها هناك من أغلال وقيود، وفي مقابل ثياب النار تجد هنا ألبسة الحرير الأشد نعومة بين الثياب.

٣ - ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

فما كان مُحَرَّماً على الرجال في الدنيا، كالذهب والحرير، محلل هناك في الجنة، في إشارة إلى ما سيتمتع به ساكنوها من الحرية.

* * *

بصائر وأحكام

١ - هدف القرآن ليس فقط إصلاح السلوك الإنساني، وإنما أيضاً صياغة شخصيته عبر إصلاح القواعد النمطية له؛ لأن السلوك ما لم يتصل بقيمة سليمة، فإنما هو سلوك ظاهري وإن اتسم بمسحة صالحة.

٢ - إذا قرأنا آيات العذاب في القرآن، علينا أن نبحث في مدى تأثيرها بصناعة القيم فينا، حيث تدعونا إلى تجنب العذاب. وكذلك إذا قرأنا آيات الثواب، فعلينا أن نهتم كل الاهتمام في مدى ما تصنعه فينا من قيم تنتهي بنا إلى طلب ذلك الثواب.

٣- إذا قرأنا الآية ولم تؤثر في جوهرنا، ولم تَصُغْ نفوسنا صياغة تتفق والمنهج القرآني، فعلينا أن نعلم بأننا لم نستفد من النص القرآني بما فيه الكفاية.

وهدوا إلى صراط الحميد

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

* * *

من الحديث

عن ضريس الكناسي قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ فَقَالَ عليه السلام: «هُوَ وَالله هَذَا الأَمْرُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْه»(1).

وعن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبدالله عليه السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ قال: ذَاكَ حَمْزَةُ وَجَعْفَرٌ وَعُبَيْدَةُ وَسَلْمَانُ وَأَبُو ذَرٍّ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ وَعَمَّارٌ هُدُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام»(2).

---

(1) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج1، ص169.

(2) الكافي، الشيخ الكليني، ج1، ص426.

تفصيل القول

١ - ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾

تلك كانت نِعَماً تُرى بالعين وتُلمس باليد. أما الهداية إلى الطيِّب من القول، فنعمة تستقر في العقل والقلب ويشرئب لها جوهر ساكن الجنة، حيث التحية فيها سلام، وحيث لا يسمعون ولا ينطقون إلَّا الطيِّب من القول، فيقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[1]. ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2].

إذ يشعر المرء بكل السعادة بعد أن يُقدَّم له كل النعيم ثم يرفق به بشكر.

٢ - ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

سواء في الدنيا أم في الآخرة، ولكن الأهم أن الله تعالى يلغي المسافة بين الدنيا والآخرة، حيث يعمل الإنسان الصالح من الأعمال فينال الثواب.

وهكذا فإن الطيِّب من القول، والذي يعني -فيما يعني- الإقرار بولاية الله المتمثلة في اتِّباع الرسول وأهل بيته، إنه هو إكرام الله لهم في الدنيا، والذي انتهى بهم إلى نعيم الآخرة.

* * *

(١) سورة الحجر، آية ٤٦.

(٢) سورة الإنسان، آية ٢٢.

بصائر وأحكام

١ - الهداية إلى الطيِّب من القول، نعمة تستقر في العقل والقلب ويشرئب لها جوهر ساكن الجنة.

٢ - العمـل السـيئ يفتـح بـاب جهنم عـلى فاعله، بينـما العمل الصالح دليل صاحبه إلى جنته.

٣- الصراط الحميد هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهم النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

الصد عن سبيل اللّه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله **نَهى أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ يُؤَاجِرُوا دُورَهُمْ، وَأَنْ يُغْلِقُوا عَلَيْهَا أَبْوَاباً،** وَقَالَ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾»(١).

وَكَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِلَى قُثَمَ بْنِ عَبَّاسٍ عَامِلِهِ عَلَى مَكَّةَ: **«وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ. وَالْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ**

(١) قرب الإسناد، الشيخ الحميري القمي، ص١٠٨.

إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ظُلْمٍ فِي مَكَّةَ إِلْحَادٌ، حَتَّى شَتْمِ الْخَادِمِ»[2].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَنْ عَبَدَ فِيهِ غَيْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ تَوَلَّى فِيهِ غَيْرَ أَوْلِيَاءِ اللهِ فَهُوَ مُلْحِدٌ بِظُلْمٍ، وَعَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُذِيقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»[3].

تفصيل القول

عندما نتدبَّر في هذه الآية الكريمة تتراءى أمامنا أسئلة حائرة:

لماذا بدأ السياق الحديث عن الصدّ قبل الحديث عن الحج، ولماذا أضيفت كلمة ﴿بِظُلْمٍ﴾ إلى كلمة ﴿بِإِلْحَادٍ﴾، وما هي الصلة بين كلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ وما بعدها؟

لعلنا نعرف الأجوبة من خلال النقاط التالية:

أولاً: الأمن:

لقد خلق الله سبحانه البشر وجعل بعضهم لبعض فتنة، لكي يعرف مدى صبرهم، ومن هنا فقد شاع بينهم الخلاف وكان بعضهم لبعض عدوًّا.. وهكذا كان بحاجة الى أرض وديعة آمنة، لا يتعرض بعضهم لبعض بأذى، ليشهدوا منافع الوحدة من التواصي والتشاور

(١) نهج البلاغة، رسالة رقم ٦٧.
(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٩، ص٣٦٦.
(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٣٣٧.

والتكامل والتكافل والتعاون على البر والتقوى، وكان المسجد الحرام ذلك الموقع.

فإذاً؛ الأمن هو محور الحكم، و حكمة تأسيس بيت الله الحرام وجعله آمنا للجميع.

١ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

وارتبط الكفر بالصدّ عن سبيل الله لبيان مدى خطورة هذا الذنب. لقد بَيَّنَ القران الكريم ذنب الصدّ عن سبيل الله في كثير من الآيات إلّا أن هذه الآية حدَّدت مصداق الصدِّ عن السبيل بصورة واضحة.

١ - ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾

ثانياً: بيت الناس جميعاً:

من وُلِد في أرض أو استقر بها طويلاً اختص بها، ولكن المسجد الحرام قد جُعِلَ من عند الله خالقه العظيم لكل الناس لكي يكون مركزاً لاجتماعهم، وإليه تهوي أفئدتهم ومنه تنطلق إلى الآفاق وفودهم.. وهذه الخصوصية لا نجدها في غيره أبداً.

٣- ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

ومن أراد تغيير هذه الخصوصية فلن يُفلح أبداً، بل سوف يُلاحقه العذاب الأليم.

وهكذا قد اعتبر القرآن هذا العمل إلحاداً (أي: انحرافاً) عن السبيل المستقيم وظلماً.

* * *

بصائر وأحكام

١- المسجد الحرام موقع آمن، لا يحق لأحد أن يُؤذي الآخرين فيه؛ لأن فيه يشهد الحجاج منافع الوحدة، من التواصي والتشاور والتكامل والتكافل والتعاون على البر والتقوى.

٢- لقد جعل الله تعالى المسجد الحرام للناس جميعاً، لكي يكون مركزاً لاجتماعهم، وإليه تهوي أفئدتهم، ومنه تنطلق إلى الآفاق وفودهم.

مبعث التوحيد

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ **فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَدْخُلَ مَكَّةَ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ قَدْ غَسَلَ عَرَقَهُ وَالْأَذَى وَتَطَهَّرَ**»[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص ٤٠٠.

تفصيل القول

١ - ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾

النبي إبراهيم عليه السلام الذي يحترمه أتباع كبرى الأديان الإلهية (اليهود والنصارى والمسلمون) بدأ بناء أول بيت وُضِعَ للناس، حيث إنّ ربنا يُبوِّئُهُ مكانه ليشيد فيه البناء الذي يقول عنه ربنا سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

وليس كل شخص يصلح لبناء قاعدة التوحيد الحنيف، إنما الذي أسلم لربه كليًا وكان في ذروة الدعوة الى الله وحده.

وقد حدَّد ربنا في هذا آليات القيم المثلى التي قامت عليه قاعدة التوحيد:

ألف: نبذ كل شرك:

٢ - ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾

هنا جاءت الكلمة بصيغة الشيء (وليس الشخص)؛ لأن الشرك بالله يبدأ بالعلاقة بين الإنسان وما في الدنيا من زينة؛ فقد يعبد المرء الثروة، وقد يعشق السلطة، وربما طغت عليه عصبية قوم أو أرض، أو استحوذ عليه حب النساء والبنين، و لا تلبث هذه العلقة أن تتجسَّد في رمز مثل صنم أو علم أو شخصية أو ما أشبه.

والتوحيد الخالص الذي مثَّله النبي إبراهيم عليه السلام في الثورة ضد

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

أبيه و قومه، وكسر أصنامهم، واستعداده ليُحرَق بالنار لولا أن الله قال لها ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]، ومن ثم ترك وطنه بابل ووضع بعض ذريته عند البيت الحرام ليُقيموا الصلاة، واستعداده لتقديم ابنه قرباناً لربّه.. كل ذلك جعله قدوة في الحنيفية البيضاء، وهاهو الأمر يأتي من عند الله أن البيت الحرام هو بيت التوحيد الخالص من أية شائبة للشرك.

وبعد أن يُطهِّر المؤمن قلبه من الشرك، يُجاهد من أجل تطهير محيطه من سائر الأدران بإزالة مظاهر الشرك، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[2].

باء: نبذ كل رجس ونجس.

٣- ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾

فبيت الله مهوى أفئدة عباد الله، ولابد أن يكون نظيفاً يتحلى بالزينة التي قال عنها ربنا سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3].

وحيث قال الله سبحانه:

٤- ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

خصّ الطوائف التي تجتمع في هذا البيت، وهم الذين يطوفون حول الكعبة أو الذين يقومون فيه للعبادة والاعتكاف، وأخيراً: الذين

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.
(٢) سورة الجن، آية ١٨.
(٣) سورة الأعراف، آية ٣١.

يقيمون الصلاة (راكعين ساجدين). وربما يكون المراد من الكلمات الثلاث: ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ واحداً، وهو أداء أركان الصلاة الأساسية.

ومن هنا نرى أن من شرائط الطواف والصلاة، طهارة البدن والثياب ومحل السجود، وهكذا التطهُّر بالغسل والوضوء والتيمم.

* * *

بصائر وأحكام

١- التوحيد الخالص الذي مَثَّله النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الثورة ضد أبيه وقومه، وكسر أصنامهم.. كل ذلك جعله قدوة في تحقيق الحنيفية البيضاء.

٢- إن البيت الحرام هو بيت التوحيد الخالص من أية شائبة للشرك.

٣- بيت الله الحرام مهوى أفئدة عباد الله، و لا بد أن يكون نظيفاً، يتحلَّى بالزينة.

٤- من شرائط الطواف والصلاة طهارة البدن والثياب ومحل السجود، وهكذا التطهُّر بالغسل والوضوء والتيمم.

وأذن في الناس بالحج

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لَمَّا أُمِرَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام بِبِنَاءِ الْبَيْتِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ، قَعَدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى رُكْنٍ ثُمَّ نَادَى: هَلُمَّ الْحَجَّ، هَلُمَّ الْحَجَّ. فَلَوْ نَادَى هَلُمُّوا إِلَى الْحَجِّ، لَمْ يَحُجَّ إِلَّا مَنْ كَانَ يَوْمَئِذٍ إِنْسِيّاً مَخْلُوقاً، وَلَكِنَّهُ نَادَى: هَلُمَّ الْحَجَّ، فَلَبَّى النَّاسُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ: لَبَّيْكَ دَاعِيَ اللهِ، لَبَّيْكَ دَاعِيَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَمَنْ لَبَّى عَشْراً يَحُجُّ عَشْراً، وَمَنْ لَبَّى خَمْساً يَحُجُّ خَمْساً، وَمَنْ لَبَّى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَبِعَدَدِ ذَلِكَ، وَمَنْ لَبَّى وَاحِداً حَجَّ وَاحِداً، وَمَنْ لَمْ يُلَبِّ لَمْ يَحُجَّ»(١).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٤، ص٢٠٦.

وعن أنس بن مالك قال: سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَاتِ المَلَائِكَةَ، يَقُوْلُ: يَا مَلَائِكَتِي؛ انْظُرُوْا إِلَىٰ عِبَادِي شُعْثاً غُبْراً، أَقْبَلُوْا يَضْرِبُوْنَ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ، فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّيْ قَدْ أَجَبْتُ دُعَاءَهُمْ، وَشَفَعْتُ رَغْبَتَهُمْ، وَوَهَبْتُ مُسِيْئَهُمْ لِمُحْسِنِهِمْ، وَأَعْطَيْتُ مُحْسِنَهُمْ جَمِيْعَ مَا سَأَلَنِيْ غَيْرَ التَّبِعَاتِ الَّتِيْ بَيْنَهُمْ»(١).

تفصيل القول

وإذ توفَّر الأمن لبيت الله، وتوفَّر فيه الطهر من الشرك ومن كل دنس، حان الآن ميعاد الدعوة إليه، فقال سبحانه:

١ - ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾

هكذا كانت الدعوة عامة لجميع الناس من مختلف البلاد ومختلف الطوائف. وهذه ميزة بيت التوحيد أنه في الوقت ذاته بيت الوحدة التي تتسامى على كل الحواجز والقيود.

وهذه الدعوة تتناغم مع فطرة البشر التي خلقها الله تعالى على التوحيد، فقال سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

ومن هنا فإن أفئدة الناس تهوي إلى صاحب هذه الدعوة الخالصة، وتتقاطر الوفود من كل حدب و صوب إلى بيت الله الحرام، فإذا بهم:

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص١٤٦.
(٢) سورة الروم، آية ٣٠.

٢- ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾

إنهم يأتون إليك أنت صاحب الدعوة وليس فقط إلى بيت الله الحرام، حيث قال سبحانه حكاية عن دعاء النبي إبراهيم عليه السلام لذريته: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

ولكن لماذا قال ربنا سبحانه ﴿رِجَالًا﴾ أي مشاة، هل لأن أكثر من يستجيب هم عامة الناس الذين لا يملكون إلّا جهدهم، أم لأنّ الأصل في الحج هو التواضع وهو يتناسب وحج المشاة، وقد حج سبط رسول الله صلى الله عليه وآله الأكبر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خمساً وعشرين حجةً ماشياً وكانت النجائب تُساق بين يديه[2]، أم لأن الاستجابة تكون من قبل المحيطين بالمسجد الحرام قبل غيرهم وهم يأتون إليه مشاة في العادة؟.

كل هذه الوجوه محتملة، والجمع بينها ممكن.

٣- ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

يصف ربنا سبحانه هنا ركوب الحاج بالضامر؛ لأنه يقطع المسافات الطويلة ويعاني من مشاكل، كما يُبيِّن طبيعة أرض الحجاز الجبلية التي لا بد من اختراقها بصعوبة، فهناك الفجاج العميقة التي تُحيط بها الجبال الشاهقة.

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٣٩.

كل ذلك للدلالة على أن الاستجابة لدعوة الحج ليست من أجل أمور مادية؛ لأن الطريق إلى بيت الله لن يكون سهلاً، وإنما هي استجابة لدعـوة التوحيد ودعوة الطهر ودعوة الفطرة.. وأن الله سـبحانه يوفق الناس على كل ذلك ويعينهم؛ لأنه متوافق مع سننه الثابته في الحياة.

* * *

بصائر وأحكام

١- الدعـوة إلى الحـج دعـوة عامة عـبر مختلف البـلاد ومختلف الطوائف.. لأنها تتسامى عن كل الحواجز والقيود.

٢- إن الاستجابة لدعوة الحج ليست من أجل أمور مادية؛ لأن الطريق إلى بيت الله لن يكون سهلاً، وإنما هي استجابة لدعوة التوحيد ودعوة الطهر ودعوة التحرر من الهوى والشهوات.

ليشهدوا منافع لهم

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

❊❊❊

من الحديث

عن ربيع بن خيثم قال: «شَهِدْتُ أَبا عَبْدِالله عليه السلام وَهُوَ يُطافُ بِهِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ فِي مَحْمِلٍ، وَهُوَ شَدِيدُ المَرَضِ، فَكَانَ كُلَّمَا بَلَغَ الرُّكْنَ الْيَمانِيَّ أَمَرَهُمْ فَوَضَعُوهُ بِالْأَرْضِ فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ كُوَّةِ المَحْمِلِ حَتَّى يَجُرَّهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَقُولُ عليه السلام: ارْفَعُونِي. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ مِراراً فِي كُلِّ شَوْطٍ، قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِداكَ يَا ابْنَ رَسُولِ الله؛ إِنَّ هَذَا يَشُقُّ عَلَيْكَ. فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾. فَقُلْتُ: مَنَافِعَ الدُّنْيا أَوْ مَنَافِعَ الْآخِرَةِ؟.

فَقَالَ عليه السلام: الْكُلّ»[1].

وروي عن محمد بن سنان، أن أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: «أَنَّ عِلَّةَ الْحَجِّ الْوِفَادَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَطَلَبُ الزِّيَادَةِ، وَالْخُرُوجُ مِنْ كُلِّ مَا اقْتَرَفَ، وَلِيَكُونَ تَائِباً مِمَّا مَضَى، مُسْتَأْنِفاً لِمَا يَسْتَقْبِلُ، وَمَا فِيهِ مِنِ اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَتَعَبِ الْأَبْدَانِ وَحَظْرِهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ، وَالتَّقَرُّبِ بِالْعِبَادَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالذُّلِّ، شَاخِصاً فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْأَمْنِ وَالْخَوْفِ، دَائِباً فِي ذَلِكَ دَائِماً، وَمَا فِي ذَلِكَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ.. (إلى أن يقول:) وَمَنْفَعَةُ مَنْ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَنْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، مِمَّنْ يَحُجُّ وَمَنْ لَا يَحُجُّ؛ مِنْ تَاجِرٍ وَجَالِبٍ وَبَائِعٍ وَمُشْتَرٍ وَكَاسِبٍ وَمِسْكِينٍ وَقَضَاءُ حَوَائِجِ أَهْلِ الْأَطْرَافِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنِ لَهُمُ الِاجْتِمَاعُ فِيهَا، كَذَلِكَ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ»[2].

تفصيل القول

يُبَيِّنُ ربنا سبحانه في سورة البقرة ثلاثة واجبات بعد الإحرام في الحج، هي الوقوف بعرفات، والإفاضة، وذكر الله عند المشعر الحرام، فقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٤، ص٤٢٢.
(٢) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٤٠٤.
(٣) سورة البقرة، آية ١٩٨.

ويبدو أن السياق أشار هنا الى تلك الواجبات بكلمة واحدة، حيث قال:

١ - ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾

فما هي تلك المنافع، هل هي التطهُّر من الذنوب في وادي عرفة حيث يُخاطب ربنا سبحانه الحاج بأن يستأنف العمل فقد غُفِرَ له كما جاء في حديث مأثور، أم العروج العرفاني إلى مقام العبودية والتخلُّص من شوائب الشرك العالقة بالقلوب، أم الاندماج مع الزحف الإيماني الذي يصهر النفوس في بوتقة التقوى، والذي يتجلَّى في الوقوفين والإفاضة، أم إن الإنسان حين يقترب من روح التقوى تعلو همته فلا يفتقر وتستجد عزيمته ويسيطر على الطبيعة من حوله؟

حقًّا كل هذه منافع، ولكن أعظم منها جميعاً هو التقرُّب إلى الله سبحانه، واستجابة الرَّبِّ لدعوات الإنسان الصالحة. وهكذا فإنَّ ذكر الله من أعظم منافع الحج، فقال سبحانه:

٢ - ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾

ويبدو أنها أيام الحج من لحظة الإحرام إلى آخر أيام منى. فإذا أحرم الحاج يوم الثامن (يوم التروية) ونفر من منى يوم الثاني عشر، فتلك خمسة أيام يعيش فيها مع الرَّبِّ سبحانه، ومع ذكره الشريف الذي يكتمل بالشكر له.

٣- ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾

هنالك في رحاب منى ومع مئات الألوف من الأضاحي نعرف بعض آفاق نعمة الرزق الإلهي المتمثل في توفير طيِّب اللحم من البهائم.

٤ - ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾

صحيح إن القربان لله، وعادة لا يأكل المرء مما قدم للآخرين، ولكن الله تعالى أذن لنا بأن نأكل هناك مما قدمناه لنعرف أبعاد رزق الله.

٥ - ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾

والإطعام للفقراء والمساكين يرفعنا إلى مستوى الإحسان، ويُنمّي في أنفسنا حب الآخرين، ويُوحِّد قلوبنا مع سائر أبناء البشر.. وهذا من أعظم المنافع التي نشهدها في الحج.

* * *

بصائر وأحكام

١ - من أعظم منافع الحج ذكر الله، والتقرُّب إليه سبحانه، واستجابة الرَّبِّ لدعوات الإنسان الصالحة.

٢ - إطعام الفقراء والمساكين يرفعنا الى مستوى الإحسان، ويُنمّي في أنفسنا حب الآخرين، ويُوحِّد قلوبنا مع سائر أبناء البشر.

ليطوَّفوا بالبيت العتيق

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾.

* * *

من الحديث

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قَوْلِ الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قَالَ: «التَّفَثُ الرَّمْيُ وَالْحَلْقُ، وَالنُّذُورُ مَنْ نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، وَالطَّوَافُ هُوَ طَوَافُ الْإِفَاضَةِ وَهُوَ طَوَافُ الزِّيَارَةِ بَعْدَ الذَّبْحِ وَالْحَلْقِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَهَذَا الطَّوَافُ هُوَ طَوَافٌ وَاجِبٌ»[1].

وروي عن عبد الله بن سنان قال: أَتَيْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج١، ص٣٣.

نُذُورَهُمْ ﴾ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْذُ الشَّارِبِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ».

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ إِنَّ ذَرِيحَ الْمُحَارِبِيَّ حَدَّثَنِي عَنْكَ بِأَنَّكَ قُلْتَ لَهُ: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لِقَاءُ الْإِمَامِ، ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تِلْكَ الْمَنَاسِكُ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: صَدَقَ ذَرِيحٌ وَصَدَقْتَ، إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَمَنْ يَحْتَمِلُ مَا يَحْتَمِلُ ذَرِيحٌ؟»[1].

وَسُئِلَ الإِمَامُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾.

قَالَ: تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَطَرْحُ الْوَسَخِ عَنْكَ، وَالْخُرُوجُ عَنِ الْإِحْرَامِ، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ طَوَافُ الْفَرِيضَةِ»[2].

عَنْ حَمَّادٍ النَّابِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِاللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ طَوَافُ النِّسَاءِ»[3].

تفصيل القول

١ - ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾

في سياق الحديث عن مراسم الحج يُبيِّن القرآن الكريم مراحل

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٤، ص٥٤٩.
(٢) قرب الإسناد، الشيخ الحميري القمي، ص٣٥٨.
(٣) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٥، ص٢٥٣.

هـذه المراسـم، ومنها أعمال أيـام التشريق وهي: قضـاء التفث، ورمي الجمـرات، والوفاء بالنذر. والتفث هو ما علق بالحاج في رحلته الإلهية مـن أذى، فطال شـعره وأظافره ونالـه من الغبار. والشـعث ما ناله في عرفات أو المشعر الحرام.

وقـد ورد عـن الإمـام جعفـر الصـادق عليه السلام: «﴿لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ لِقَاءُ الإِمَامِ».[1] وقد نسـتفيد هذه البصيرة من قوله سبحانه وتعـالى حكايـة عن قول النبـي إبراهيـم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2].

وقـد ذكـر الله في آية سـابقة أنّ الناس يأتـون إلى النبـي إبراهيم عليه السلام، ولم يقل عز وعلا: يأتون البيت الحرام. لماذا؟.

لأن الغـرض من أداء الحج هو لقاء الإمام، وقد جعل الله النبي إبراهيـم عليه السلام إماماً للنـاس بعد مروره بامتحانـات صعبة، فقال ربنا سـبحانه: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

وهـذا يعنـي -فيـما يعني- وجـود إمام حجة عـلى الخلق في كل زمـان، وأن إمامـة الخلـق لا تنتهي عند رحيل النبـي صلى الله عليه وآله، بالإضافة إلى التأكيـد بأن فريضة الحج فريضة حيـة، تتفاعل مع قضايا الأمة عبر إمامهم.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص٥٤٩.
(٢) سورة إبراهيم، آية ٣٧.
(٣) سورة البقرة، آية ١٢٤.

٢- ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾

بعد أداء مناسك منى يعود الحاج إلى الكعبة الشريفة ليطوف بها.

والتطوُّف هو كثرة الطواف، دون الاكتفاء بالطواف مرة واحدة. ومعلوم أن الشارع المقدس قد جعل كل طواف واجب سبعة أشواط، تناسباً مع قدرة أغلب الناس. ومع العلم أن هناك طوافين للحج يسمى أحدهما طواف الزيارة، ويسمى الثاني وهو الأخير طواف النساء، وبعضٌ يُؤدي طواف الوداع.

٣- ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

البيت هو الكعبة المشرفة التي وضعها الله للناس ليقصدوه بالحج.. أما وصف هذا البيت بالعتيق، فهو لأنه:

١- أول بيت وضع للناس.. فهو قديم، وقد جعل الله الكعبة محلاًّ للعبادة في الأرض، كما جعل البيت المعمور في السماء الرابعة لتحج إليه الملائكة. فلم يصل البشر إلى عبادة الرَّبِّ عبر تكامل عقله -كما يرى البعض- بل إن عبادة الله كانت الأصل ثم انحرف عنها البعض.

٢- ولأنه البيت الذي لم يُصبه ضرر لدى طوفان النبي نوح عليه السلام بعد أن استولى على جميع يابسة الأرض.. فهذا البيت لم يغرق ولم يصل إليه الماء.

٣- ولأنه تُعْتَقُ هناك رقاب العباد من ذنوبهم إذا قصدوه للحج.

٤- ولأنه يقع ضمن أرض محررة من ملكية ابن آدم، وهو بيت

آمن من حيث تشريع حرمة خاصة له، حتى أنّ من يدخل حدود الحرم المكي الكبير يشعر بشيء كبير من السكينة والأمن والتحرُّر من إصر العلاقات المادية.

* * *

بصائر وأحكام

الهدف من الحج هو لقاء الإمام. وهذا يعني -فيما يعني- وجود إمام حجة على الخلق في كل زمان، وأن إمامة الخلق لا تنتهي عند رحيل النبي ﷺ، بالإضافة إلى التأكيد بأن فريضة الحج فريضة حية، تتفاعل مع قضايا الأمة عبر إمامهم.

» جعل الله الكعبة محلًا للعبادة في الأرض، كما جعل البيت المعمور في السماء الرابعة لتحج إليه الملائكة. فلم يصل البشر إلى عبادة الرّبّ عبر تكامل عقله بل إن عبادة الله كانت الأصل ثمّ انحرف عنها البعض.

اجتنبوا قول الزور

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لله حُرُمَاتٍ ثَلَاث، مَنْ حَفِظَهُنَّ حَفِظَ اللهُ لَهُ أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْهُنَّ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ شَيْئاً: حُرْمَةَ الْإِسْلَامِ، وَحُرْمَتِي، وَحُرْمَةَ عِتْرَتِي»(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: «هِيَ ثَلَاثُ حُرُمَاتٍ وَاجِبَةٍ، فَمَنْ قَطَعَ حُرْمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ بِالله: انْتِهَاكُ حُرْمَةِ الله فِي بَيْتِهِ الْحَرَامِ، وَالثَّانِيَةُ تَعْطِيل

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص١٤٦.

الْكِتَابِ وَالْعَمَلُ بِغَيْرِهِ، وَالثَّالِثَةُ قَطِيعَةُ مَا أَوْجَبَ اللهُ مِنْ فَرْضِ مَوَدَّتِنَا وَطَاعَتِنَا»[1].

وروي عن زيد الشحام قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِاللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ فَقَالَ: الرِّجْسُ مِنَ الْأَوْثَانِ الشِّطْرَنْجُ، وَقَوْلُ الزُّورِ الْغِنَاءُ»[2].

وعن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ الزُّورِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مِنْهُ قَوْلُ الرَّجُلِ لِلَّذِي يُغَنِّي: أَحْسَنْتَ»[3].

تفصيل القول

١ - ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾

حرمات الله في الحج هي حرمة البيت وحرمات مناسك الحج، إذ لكل منسك حرمة خاصة لابد من مراعاتها.

والتعظيم حالة تسمو على مجرد الامتناع عن فعل المحرم؛ فقد يمتنع الإنسان عن تعدي حدود الله بالذنب، ولكن يبقى لديه الهوى في ارتكابه، إلّا أن إكبار حرمة الله وتعظيمها يوفر حالة الكراهة إزاء اقتراف الذنب. فتعظيم حرمات الله يعني بلوغ روح الإنسان المؤمن حدًّا يكون باغضاً لأصل الذنب؛ فهو لا يحمل نفسه حملاً على الابتعاد عن الذنب، وإنما يبتعد عنه بمحض إرادته، باطمئنان بالغ، متجاوزاً إغراءات النفس ووساوس الشيطان.

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٩، ص٣٤٣.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٦، ص٤٣٥.
(٣) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٣٤٩.

الحرمة والحرية

وإذا وضعنا كلمة الحرمة إلى جانب كلمة الحرية، لمسنا ما يُفرّق بينهما وما يجمعهما. فالحرية تصطدم بالحرمة عند حدود الآخرين، فإذا ما عَظّم المرء حرمات الآخرين وجد حريته تأخذ صورتها الحقيقية ومصداقيتها الواقعية. هذا وإن من الأجدى أن تُؤخذ الحرمة بالحسبان أكثر من كلمة الحرية؛ لأن الحرية قد يستخدمها الإنسان إلى حيث يجد نفسه غارقاً في مستنقع الإباحية على مختلف الأصعدة، أما استعمال كلمة الحرمة فهو خير ضامن للسلوك المنضبط، لاسيما فيما يتعلّق بحدود الله التي لا ينبغي التعدي عليها، ولأن معرفة الحرمات تُعتبر تعريفاً تامّاً للحريات.

٢- ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾

أي: إن حفظ الحرمات خير للإنسان. وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ ذات ظلال وافرة لا نجدها في كلمات مشابهة مثل (منفعة) أو (مصلحة)؛ لأن ﴿خَيْرٌ﴾ لا تشمل تلك المصالح العاجلة التي تكمن وراءها مفاسد جمة، كما لا تشمل ما يكون في منفعة البعض وضرر الآخرين.

ومن هنا نجد السياق القرآني يُركّز عليها، ولكن لماذا نجد كل الخير في تعظيم حرمات الله؟

أولاً: لأن حفظ الحرمات ينتهي إلى إحراز رضا الرّبّ، وليس هناك غاية أرقى وأشرف من ذلك.

ثانياً: لأنّ حفظ الحرمات يعني توفير الأمن والاستقرار للجميع، لاسيما إذا كان هذا الحفظ سارياً في الوسط الاجتماعي لدى

كل شعب ومجموعة. وإذا ما سرى الأمن توفرت الكثير من النعم، وانتفت الكثير من النقم، ولاسيما الاجتماعية منها.

ثالثاً: لأن من يُعظِّم حرمات الله ويرعاها خلال مناسك الحج، يرجع من الديار المقدسة مغفوراً له، ويعود كيوم ولدته أمه؛ لأن الحج بمثابة دورة تهذيبية وتربوية متكاملة.

ثم إن تعظيم حرمات الله سبحانه وتعالى، إنما يكون خيراً للإنسان ويعود بالمنفعة الدنيوية والأخروية عليه، حينما يتعامل الفرد مع هذه الحرمات كوحدة واحدة، دون أن يهتم ببعضها ويستهين بأخرى؛ ذلك لأن تقوى الله لا تقبل التجزئة من الناحية المبدئية على الأقل. أما من يعظم حرمةً ويستهين بأخرى فإنه يعيش حالة الفوضى والاضطراب النفسي والسلوكي.

٣- ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

إن الله عز وجل لم يُحرِّم على الناس الأشياء إلَّا ما نصَّت عليه آيات الذكر، مما قد يسبب فساد أخلاقهم أو أبدانهم، مثل لحم الميتة والخنزير، فلا يوجد سبب وجيه لانتهاك الحرمات، ولاسيما في موسم الحج الذي لا يستغرق زمناً طويلاً، بالإضافة إلى أنه حالة استثنائية ذات هدف مُحدَّد، وهو بمثابة دورة تهذيبية.

٤- ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾

ظاهر الأوثان هي الأصنام التي يتَّخذها البعض أرباباً من دون الله عز وجل، كما كان واقع غالبية العرب قبل الإسلام.

ولكن الحالة الوثنية لا تنحصر في عبادة الأوثان فحسب؛ لأنَّ

هذه الحالة قد تتَّخذ أشكالاً عديدة، مثل عبادة الهوى أو الاسترسال مع طاغوت أو مع حزب أو عنصر.

وحرف ﴿مِنَ﴾ هنا يدل على أن الهوى أنّى كان هو مبرر الرجس الذي ترفضه الفطرة البشرية.

٥ - ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

أي: امتنعوا -أيها المؤمنون، لاسيما أنتم الذين تعيشون موسم الحج في الديار المقدسة- في كلامكم عن المحرم من القول؛ إذ فيه الكذب والبهتان والغيبة والظلم والنميمة والجدال بغير الحق وغير ذلك، ولا تقولوا إلَّا ما يقع ضمن دائرة رضا الرَّبِّ سبحانه وتعالى.

وقد ورد الأمر باجتناب قول الباطل بشكل صريح؛ لأن كثيراً من الذنوب إنما تأتي بسبب مساحة تأثير اللسان على سائر الجوارح، ولأن القول هو جزء من السلوك البشري، مضافاً إلى أن كثيراً من الناس يستهينون بدور اللسان والقول، ويعدُّونه غير ذي بال، وأنه لا مسؤولية فيه.. بينما القرآن والرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام طالما أكدوا فداحة تأثير السلوك القولي، وأن اللسان هو الذي يُكِبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم، بل إن من العلماء من ألَّف كتاباً في هذا الموضوع، فعدَّ ما يزيد على مئة وعشرة ذنوب راجعة إلى اللسان.

» إن حفظ الحرمات ينتهي إلى إحراز رضا الرَّبِّ، وليس هناك غاية أرقى وأشرف من ذلك. وحفظ الحرمات يعني توفير الأمن والاستقرار للجميع، لاسيما إذا كان هذا الحفظ سارياً في الوسط الاجتماعي.

* * *

بصائر وأحكام

١- تعظيم حرمات الله، يعني بلوغ روح الإنسان المؤمن حدًّا يكون باغضاً لأصل الذنب؛ فهو لا يحمل نفسه حملاً على الابتعاد عن الذنب، وإنما يبتعد عنه بمحض إرادته، باطمئنان بالغ، متجاوزاً إغراءات النفس ووساوس الشيطان.

٢- إن تعظيم حرمات الله سبحانه وتعالى، إنما يكون خيراً للإنسان وتعود بالمنفعة الدنيوية والأخروية عليه، حينما يتعامل الفرد مع هذه الحرمات كوحدة واحدة، دون أن يهتم ببعضها ويستهين بأخرى؛ ذلك لأن تقوى الله لا تقبل التجزئة من الناحية المبدئية على الأقل. أما من يعظم حرمةً ويستهين بأخرى فإنه يعيش حالة الفوضى والاضطراب النفسي والسلوكي.

٣- لا تقولوا إلَّا ما يقع ضمن دائرة رضا الرَّبِّ سبحانه وتعالى، وقد ورد الأمر باجتناب قول الباطل بشكل صريح؛ لأن كثيراً من الذنوب إنما تأتي بسبب مساحة تأثير اللسان على سائر الجوارح، ولأن القول هو جزء من السلوك البشري.

حنفاء للّه

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾.

* * *

من الحديث

روي عن عمر بن أذينه قال: «سَـأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ مَا الْحَنِيفِيَّةُ؟.

قَـالَ عليه السلام: **هِـيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ النَّـاسَ عَلَيْها؛ فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ**»[1].

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤١.

تفصيل القول

١ - ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾

ترى ما الذي على الإنسان أن يفعله ليصل إلى مستوى اجتناب الرجس من الأوثان واجتناب قول الزور؟

تُجيب هذه الآية المباركة عن هذا السؤال الخطير ذي الأثر الكبير على مصير كل إنسان، وخصوصاً الذي يدَّعي الانتماء للإسلام، ومَنْ يقصد بيت الله الحرام ليعيش في مدة زمنية محدودة حالة تأديبية مكثفة من المفترض أن تنتهي به إلى التزود بالتقوى.

لابدّ من توافر الصفات التالية فيمن يريد تجنُّب الرجس: أن يكون حنيفاً لله، تقيًّا من درن الشرك، وطاهراً من العلقة بغير الله.

والحنيف لله هو الذي يُسقط ليس فقط الأصنام الظاهرة، بل أيضاً يُطهِّر نفسه وعقله من الأوثان الخفية، كالعصبية والأنانية والغرور، ويتمرَّد على كل ما هو باطل ومُنحرف.. تمرُّداً لا يقتصر على يوم دون يوم، أو حالة دون أخرى، بل دائماً وشاملاً.

٢ - ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

من لا يكون حنيفاً مقبلاً في الدوام على ربه المتعال، ثُمَّ يشرك بالله، فإنه ينخلع قلبه كالذي يخر من السماء، لماذا؟

لأن الله قد خلق الإنسان ليكون كائناً سامياً، يُصار في نهاية مطافه إلى الرفعة والكمال، إلَّا أن من يختار الإعراض عن الله وسننه في الحياة، ويتَّخذ لنفسه (وثناً) ربًّا من دون الله، فهو في الواقع يختار

السقوط إلى حضيض الباطل والرذيلة؛ لأنه سيسير في مسار غير المسار الذي أراده الله تعالى له.

٣- ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾

حيث يتجرَّد المرء من الحنيفية فإنه يكون أمام أمرين: إما أن يُصادفه طير فيلتقطه وهو في طريقه بين السماء والأرض. وإما أن تجتذبه الأرض إليها، وتتناوشه الريح وضغط الهواء العاصف، ليرميه إلى مكان سحيق.

ولعل هذين الاحتمالين رمزان لواقع الإنسان بعد تنكُّره لربه المتعال؛ فهو قد يكون ضحية لجماعة إلحادية منحرفة أو حزب ضال، فيُحوِّلانه إلى أداة يحققان به أهدافهما، أو إنه يجد نفسه فرداً عديم القيمة يذهب طي النسيان إلى الظلمات. فيكون استدبار الدين هلاكاً محققاً له.

* * *

بصائر وأحكام

١- لكي يجتنب الإنسان الرجس من الأوثان، ويجتنب قول الزور، لابد له من أن يكون حنيفاً لله، تقيًّا من درن الشرك، وطاهراً من العلقة بغير الله تعالى.

٢- من يختار الإعراض عن الله و سننه في الحياة، ويتخذ لنفسه (وثناً) ربًّا من دون الله، فهو في الواقع يختار السقوط الى حضيض الباطل و الرذيلة.

من تقوى القلوب

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾.

* * *

من الحديث

خطب رسول الله ﷺ يوم النحر، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ؛ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ سَعَةٌ فَلْيُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ سَعَةٌ فَإِنَّ اللهَ لَا يُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا»[١].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «.. ثُمَّ اشْتَرِ هَدْيَكَ إِنْ كَانَ مِنَ الْبُدْنِ أَوْ مِنَ الْبَقَرِ وَإِلَّا فَاجْعَلْهُ كَبْشاً سَمِيناً فَحْلاً، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ كَبْشاً فَحْلاً فَمُوجَأً[٢] مِنَ الضَّأْنِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَتَيْساً، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَمَا تَيَسَّرَ عَلَيْكَ وَعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ»[٣].

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج٢، ص١٨١.
(٢) الموجأ من الضأن: هو العجل المخصي (مجمع البحرين، ج١، ص٤٢٩).
(٣) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١٠، ص٩٧.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

قال: «هِيَ الهَدْيُ يُعَظِّمُهَا، وَإِنْ احْتَاجَ إِلَىٰ ظَهْرِهَا رَكِبَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْنُفَ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ لَهَا لَبَنٌ حَلَبَهَا حِلَاباً لَا يَنْهَكُهَا بِهِ»[1].

تفصيل القول

للدين حقائق و مصاديق؛ أما الحقائق فهي الحِكَم السامية للدين، مثل خلوص العبادة لله تعالى والتسليم لـه وإقامة الحق والعدل.. بينما المصاديق هي الوسائل التي تُبتغى لبلوغ تلك الحقائق، مثل الصلاة والزكاة والحج والصيام.. ومن المصاديق الشعائر التي ترمز إلى عبادة الرَّبِّ، ومناسك الحج، ومنها الهدي الذي يُساق إلى البيت الحرام.

وتعظيم المصاديق التي هي شعائر الله دليل تقوى القلب، وهل يُمكن أن يعمر القلب بالإيمان والتقوى ثم لا يُعظِّم ما يتصل بالدين من أحكام؟ كَلَّا؛ إنّ مخبر الإنسان يجلو عبر مظهره. قال ربنا سبحانه:

١- ﴿ ذَٰلِكَ ﴾

لعله إشارة إلى الحنيفية التي يتمتع بها المخلصون من عباد الله، وهي روح في القلب، وطهر في النفس، وهي تتجلَّى في سلوك المؤمن عبر تعظيم شعائر الله.

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج١، ص٣٠١.

٢- ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾

ومنها الهدي الذي يُساق إلى البيت الحرام، وهو من مظاهر العبودية، حيث يُتقرب به إلى الرَّبِّ دون الأوثان الظاهرة منها والخفية.

٣- ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

بل هذه الشعائر هي تجليات للقلب المؤمن، وتعظيمها دليل تعظيم ما تُنسب إليه وهو الرَّبّ سبحانه.

* * *

بصائر وأحكام

تعظيم شعائر الله دليل تقوى القلب، وهل يمكن أن يعمر القلب بالإيمان والتقوى ثم لا يُعَظِّم ما يتصل بالدين من أحكام؟ كَلَّا؛ إنّ مخبر الإنسان يجلو عبر مظهره.. من هنا كان على المؤمن تعظيم ما يتصل بالدين من مظاهر.

مناقع الشعائر في رحلة الحج

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾.

* * *

من الحديث

عن أبي عبدالله عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ قَالَ عليه السلام: الْبُدْنُ يَرْكَبُهَا الْمُحْرِمُ مِنْ مَوْضِعِهِ الَّذِي يُحْرِمُ فِيهِ غَيْرَ مُضِرٍّ بِهَا وَلَا مُعَنِّفٍ لَهَا، وَإِنْ كَانَ لَهَا لَبَنٌ يَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا إِلَى يَوْمِ النَّحْرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾»[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ قَالَ عليه السلام: إِنِ احْتَاجَ إِلَى ظَهْرِهَا رَكِبَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن ابراهيم القمي، ج٢، ص٨٤.

يَعْنُفَ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ لَهَا لَبَنٌ حَلَبَهَا حِلَاباً لَا يَنْهَكُهَا»[1].

تفصيل القول

وهذه الشعائر التي تُساق إلى البيت الحرام ذات منافع في رحلة الحج، فهي ركوب الحجيج وسقياهم من لبنها.

١- ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

حيث يبلغ الحاج مكة المكرمة.

٢- ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

فإذا وصلت إلى الكعبة نُحِرَت لإطعام الحاج. ذلك لأن المسجد الحرام ليس لأحد، بل للناس جميعاً، وهكذا قد أُعتق من الملكية الفردية. والمرتجى أن يتحرَّر الإنسان هناك في الدنيا من علائقه المادية وفي الآخرة من النار بفضل الله تعالى.

* * *

بصائر وأحكام

على الإنسان أن يتحرَّر في موسم الحج من علائق الدنيا لكي يتحرَّر في الآخرة من النار بفضل الله تعالى.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٤، ص٤٩٢.

لكل أمة منسك

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَ إِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ. إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَا للهِ تَعَالَى مَنْسَكٌ أَحَبُّ إِلَى

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٣.

اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ مَوْضِعِ المَسْعَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَذِلُّ فِيهِ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ»[1].

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «سَأَلْتُ أَبِي عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ الآيَةَ، قَالَ: نَزَلَتْ فِينَا خَاصَّةً»[2].

تفصيل القول

١- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾

كما أن فريضة الحج منسك الأمة المحمدية التي ابتدأها نبي الله إبراهيم عليه السلام، كذلك كانت الأمم قبله، لكلٍّ منها منسك أنزل الله فرضه وأحكامه على أنبياء الأمم السابقة لتتقرَّب به إلى الله تعالى، حتى أن تقريب هابيل وقابيل لقربانيهما يعود إلى سنّ الله لهما على لسان آدم عليه السلام أبيهما منسكاً في قصتهما المعروفة الواردة في القرآن المجيد والروايات الكريمة.

٢- ﴿لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

أي: ليكون التقريب للأضاحي مقروناً باسم الله، تطهيراً من الإلحاد باسمه الأجل، وشكراً له سبحانه وتعالى؛ اعترافاً وإقراراً منهم بفضل الله تعالى عليهم.

فإقامة المنسك، والقصد إلى فعل المنسك، والتجمع حين ذلك الفعل، إنما ينبغي أن يتضمنه أجواء ذكر الله، لأن ذكر الله تعالى وإحراز نية التقرُّب إليه، هي دائرة الهدف وهي الغاية الأسمى؛ وذلك لأن إله الجميع إله واحد لا شريك له، فيلزم أن يكون التوجُّه إليه ضمن نطاق

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٤٣٣.
(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢٤، ص٤٠٢.

واحد، وهو صراط الهدى المستقيم، وإن الأدلّاء على هذا الصراط مختارَون ومصطفَون من قبل هذا الإله الواحد الأحد.

٣- ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾

فالمنسك يراد منه ذكر الله وتوحيده، وليس استعراض العصبيات والقبليات والتباهي بالثروة والغنى والجمال وغير ذلك من العناصر المادية التي هي في كثير من الأحيان ذات آثار مدمرة.

وللحاج درجات فالدرجة، المطلوبة التي لا يُعذر إن لم يبلغها هي درجة التسليم لله ونبذ الشركاء من دونه. أما الدرجة الأعلى التي يبلغها بعض الحجاج فقط فهي الإخبات لله. وقد وصف السياق المخبتين في الآية التالية ويبدو أن أصل الإخبات التواضع لله والصفاء والخلو من الشوائب؛ لأن الأرض الصافية تسمى الخبت والله العالم.

* * *

بصائر وأحكام

١- إن إقامة المنسك، والقصد إلى فعل المنسك، والتجمُّع حين ذلك الفعل، إنما ينبغي أن يتضمنه أجواء ذكر الله؛ لأن ذكر الله تعالى وإحراز نية التقرُّب إليه، هي دائرة الهدف وهي الغاية الأسمى.

٢- المراد من المنسك ذكر الله وتوحيده، وليس استعراض العصبيات والقبليات والتباهي بالثروة والغنى والجمال وغير ذلك من العناصر المادية التي هي في كثير من الأحيان ذات آثار مدمرة.

رحلة إلى سماء الروح

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الصَّبْرُ صَبْرَان: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرُ عِنْدَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ.

وَالذِّكْرُ ذِكْرَانِ: ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ اللهِ عِنْدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكَ فَيَكُونُ حَاجِزاً»[1].

وسُئل أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٩٠.

قَالَ عليه السلام: أَخْوَفُهُمْ لله، وَأَعْمَلُهُمْ بِالتَّقْوَى، وَأَزْهَدُهُمْ فِي الدُّنْيَا»[1].

وقال عليه السلام: «طُوبَى لِمَنِ اسْتَشْعَرَ الوَجَلَ، وَكَذَّبَ الأَمَلَ، وَتَجَنَّبَ الزَّلَلَ»[2].

وقال عليه السلام: «الوَجَلُ شِعَارُ المُؤْمِنِينَ»[3].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الصَّبْرُ رَأْسُ الإِيمَانِ»[4].

تفصيل القول

١ - ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

ليس حج البيت مجرد رحلة جغرافية من بيت المؤمن إلى بيت ربّه، بل إنها رحلة عُروج من واقع المادة إلى سماء الروح؛ ولذلك قد يبلغ المؤمن بالحج درجة المُخبِتين الذين يتميَّزون بسمو عرفانهم، حيث يقول الله سبحانه في صفة المؤمن في آية كريمة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[5].

وإنما القلب يوجل خوفاً وطمعاً إذا هو آمن بالعقاب والثواب إيماناً يكاد من فرط وضوحه وشفافيته يلامس نعيم الجنة وعذاب

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٤٧٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٩٠، حديث رقم ٣٦٦٧.
(٣) المصدر، ص٣١٢، حديث رقم ٧٢٣٦.
(٤) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٨٨.
(٥) سورة الأنفال، آية ٢.

جهنم. وهكذ فإنّ أشـد سـاعات البلاء على البشر يكون عند المصاب، فهناك يتجلّى إيمانه بالصبر الجميل:

٢ - ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾

ومن تجلّيات الإيمان إقامة الصلاة بحدودها الظاهرة والباطنة:

٣ - ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾

والنفس البشرية مغلولة بالشُّـحِّ، ومَنْ يُوقَ ذلك الشُّـحَّ ينطلق في رحاب الإحسـان، فتراه يُنفق مما أُوتي من مال يعطيه، وعلم ينشره، وجاهٍ يبذله. وهكذا..

٤ - ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

ونسـتفيد من هذه الآية أن الحاج يعود بِخُلُق فاضل يتجلّى لديه بصفات المُخبِتين. وهكذا كان الحج بمثابة معراج في كل أبعاد حياته.

* * *

بصائر وأحكام

الحـج رحلة عُـروج من واقع المادة إلى سـماء الروح، ولذلك قد يبلغ المؤمن بالحج درجة المُخبِتين الذين يتميَّزون بسمو عرفانهم.

لعلكم تشكرون

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

***

من الحديث

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَلِيَ نَحْرَ هَدْيِهِ أَوْ ذَبْحَ أُضْحِيَّتِهِ بِيَدِهِ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَلْتَكُنْ يَدُهُ مَعَ يَدِ الْجَازِرِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَقُمْ قَائِماً عَلَيْهَا حَتَّى تُنْحَرَ أَوْ تُذْبَحَ، وَيُكَبِّرُ اللهَ عِنْدَ ذَلِكَ»[1].

وعنه عليه السلام، أنه قال في قول الله تعالى: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج١، ص٣٢٥.

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ قَالَ: صَوَافُّ حِيْنَ تُصَفُّ لِلنَّحْرِ، وَتُنْحَرُ قِيَاماً مَعْقُوْلَةً قَائِمَةً عَلَىٰ ثَلَاثِ قَوَائِمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أَيْ وَقَعَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ».

قَالَ: «وَكَذَٰلِكَ نَحَرَ رَسُوْلُ الله ﷺ هَدْيَهُ مِنَ الْبُدْنِ قِيَاماً. فَأَمَّا الغَنَمُ وَالبَقَرُ فَتُضْجَعُ وَتُذْبَحُ».

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ يَعْنِي التَّسْمِيَةَ عِنْدَ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ، وَأَقَلُّ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ الله. وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذَبْحِ الْهَدْيِ وَالضَّحَايَا: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً (مُسْلِماً) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ، بِسْمِ الله»[1].

تفصيل القول

ومن شعائر الله تعالى البُدْن التي تُساق إلى البيت الحرام أو تُشترى هناك للتقرُّب بها إلى الله سبحانه، وهي ذات خير قبل الوصول إلى مكة.

١ - ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

إنها مُقاربة تُثير العجب أن تُصبح البهيمة شعيرة.

بلى؛ حين يرتبط أمرها بالحج، والحج لله تُصبح هي الأخرى محترمة.

وهكذا يكسب كل شيء قيمته من هدفه، فإذا كان وسيلة للخير يُصبح خيراً، أو وسيلة للشر يُصبح شرًّا، وإلّا فهو لغو.

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج١، ص٣٢٥.

وحين نتأمل في قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ﴾ نعرف أن الله سبحانه أراد من هذه الشعيرة خير الناس. وهكذا كل حكم إلهي يأتي خيراً للبشر. ويدلنا على ذلك قوله سبحانه:

٢- ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾

فسواء قبل سوقها إلى البيت الحرام حيث يُستفاد من ظهورها، أو عند ذبحها حيث يستفيد الجميع حتى المتقرب بها من لحومها، وحيث تُصبح البُدْن وسيلة قربى إلى الرَّبِّ سبحانه يزداد المؤمن تقوى بسبب تقديمها قرباناً إلى الله تعالى.

٣- ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾

فإذا صُفَّت للنحر أو للذبح رفع المؤمن اسم الله إيذاناً بأنها قربة إلى الرَّبِّ. وهنا تلتقي منفعة جسده بسمو روحه، فهو إذ يذكر اسم الله يتصل قلبه بنور رَبِّه، وبعده يَطْعَمُ منه هنيئاً مريئاً.

وبعد نحرها أو ذبحها ينتظر المؤمن حتى تستقر على الأرض بعد موتها فلا تتحرَّك، فيبدأ بإعدادها للأكل وللإنفاق.

٤- ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾

أي: لامست أطرافها الأرض بعد انتهاء حركة المذبوح.

٥- ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾

أي: الذي يقنع بما أعطيته من الفقراء الذين يدعوهم العوز إلى الحضور وليس الجشع، وقد قال ربُنا في آية كريمة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[1].

ثم يُعطي منها الفقراء الذين يمرون عند المنحر، فيقدم لهم أيضاً شيئاً من اللحم.

ويبقى الشُّكر الهدف السامي للنعم التي أسبغها الرَّبُّ على البشر، ومنها تسخيره للأنعام في مصلحة البشر حيث لم يزوِّدها بما تدافع به عن نفسها كما زوَّد السباع، بل ذلَّلها تماماً للبشر، كما جعل لحومها مفيدة للأجسام.. كل ذلك مدعاة للشكر.

قال عز وجل:

٦- ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

إن الشكر هو راحة القلب وزاده، كما اللحم راحة الجسم وزاده. وإذا ارتفع البشر إلى حيث الشكر، استراحت نفسه، وسادت عليها السكينة، وزال عنها الشُّحُّ والحرص، وتحرَّرت من الهموم.

* * *

بصائر وأحكام

١- كل شيء يكسب قيمته من هدفه، فإذا كان وسيلة للخير يصبح خيراً، أو وسيلة للشر يصبح شرًّا، و إلَّا فهو لغو، وعلينا أبداً قياس الأفعال بأهدافها التي ننويها من خلال سعينا إليها.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٧٣.

٢- من دواعي الشكر أن سخَّر الله تعالى الأنعام للبشر. ومتى ما ارتفع البشر إلى حيث الشكر استراحت نفسه، وسادت عليها السكينة، وزال عنها الشُّحُ والحرص، وتحرَّرت من الهموم.

وبشِّر المحسنين

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «مَا عِلَّةُ الْأُضْحِيَّةِ؟

فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّهُ يُغْفَرُ لِصَاحِبِهَا عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَتَّقِيهِ بِالْغَيْبِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.**

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **انْظُرْ كَيْفَ قَبِلَ اللهُ قُرْبَانَ هَابِيلَ، وَرَدَّ قُرْبَانَ قَابِيلَ**»(1).

---

(1) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٤٣٧.

تفصيل القول

كلّما قمتَ بعمل صالح أحدثتَ أمراً صالحاً في بيئتك، وأعطاك ربُّك سبحانه بموازاته وضعاً صالحاً في قلبك؛ مثلاً إنك لو أنفقت مالاً للفقير فقد أشبعته ورفعت عوزته، وبموازاة ذلك فإنّ الله سبحانه قد طهّر قلبك من شُحّه، وأزال عنه آفة الحرص والطمع.

من هنا كان القربان في الحج ذا أثر عظيم في أفئدة الحجيج، حيث يزيدهم التقوى. كذلك قال ربُّنا تعالى:

١ - ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.

للتقوى درجات وأبعاد، فما هي درجة التقوى التي ينالها الحاجّ عند النحر؟.

إنها درجة الشكر على الهداية، حيث إنّ الحاج عند تقديمه للقربان يستحضر كرامة الله له بتسخير الأنعام له، فيُكبّرُ رَبّه على هدايته له حيث وفقه للحج إلى بيته. ثم إن الله سبحانه رفعه إلى مستوى الإحسان إلى الآخرين:

أولاً: بأن أغناه.

وثانياً: بأن وفّقه للإنفاق.

قال الله سبحانه:

٢ - ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

جعلنا الله من المحسنين.

* * *

بصائر وأحكام

١- كلـما قمـتَ بعمـل صالـح أحدثت أمـراً صالحـاً في بيئتك، وأعطاك ربُّك سبحانه بموازاته وضعاً صالحاً في قلبك.

٢- الشكر على الهداية من أبعاد التقوى ومن درجاتها الرفيعة.

اللّـه يدافع عن الذين آمنوا

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

رُوي عن إسحاق بن عمار قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قَالَ عليه السلام: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَاللهُ يُدَافِعُ عَنَّا مَا أَذَاعَتْ شِيعَتُنَا»[1].

ورُوِيَ أَنَّهُ بَلَغَ عَبْدَ المَلِكِ أَنَّ «سَيْفَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله عِنْدَ زَيْنِ العَابِدِيْنَ، فَبَعَثَ يَسْتَوْهِبُهُ مِنْهُ وَيَسْأَلُهُ الحَاجَةَ، فَأَبَى عَلَيْهِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ المَلِكِ يُهَدِّدُهُ وَأَنَّهُ يَقْطَعُ رِزْقَهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ. فَأَجَابَهُ عليه السلام: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ ضَمِنَ لِلْمُتَّقِينَ المَخْرَجَ مِنْ حَيْثُ يَكْرَهُونَ، وَالرِّزْقَ مِنْ حَيْثُ

(١) بحار الانوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢٣، ص٣٨٢

لَا يَحْتَسِبُونَ، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فَانْظُرْ أَيُّنَا أَوْلَى بِهَذِهِ الْآيَةِ؟»[1].

تفصيل القول

رغم أن سورة الحج المباركة -كما هو اسمها المبارك- تتناول قضية حج بيت الله الحرام، وتتناول صبغة الأمة الإسلامية التي يُفترض أن تكون صبغةً توحيديةً ربانيةً، إلَّا أن هذه السورة لم تُغفل ذكر الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى. ولعلَّ السبب يكمن في أن الحج يُمثِّل مدرسة تهذيبية للنفس الإنسانية، هذه النفس التي يُعَدُّ جهادها جهاداً أكبر، فيما القتال في سبيل الله يُعَدُّ جهاداً أصغر، فهو -في الحقيقة- فرع الجهاد الأكبر، هذا بالإضافة إلى أن أداء الحج قد يحتاج إلى هذا الجهاد الأصغر.. ومن هذا الجهاد ما تُوصي به الآية التي تضمَّنتها السورة نفسها حيث تقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[2].

وهذا لا يعني أنه ما دام الله سبحانه وتعالى يدافع عن الكعبة أو يحفظ القرآن عن التحريف، فإنه تسقط عن الإنسان مسؤوليته تجاه هذه الأمور وأمثالها، فيترك المقدسات إلى كفِّ الأحداث دون أن يُساهم هو أيضاً في الدفاع عنها وحراستها، ذلك لأن الله تعالى نفسه قد ذَمَّ أناساً قالوا لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[3].

(1) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج٣، ص٣٠٢.
(2) سورة الحج، آية ٤٠.
(3) سورة المائدة، آية ٢٤.

ذلك لأن الإنسان، والمؤمن خصوصاً، لن ينال ذُرى المجد بعيداً عن الظروف المحيطة به وطبيعة موقفه الإيجابي الواعي والمسؤول منها. أي: لا ينال ذلك إلّا بالجهاد في سبيل الله؛ لأن للجهاد فلسفته الخاصة به. بمعنى أن الجهاد لا يقتصر على مجرد قمع الأعداء والانتصار عليهم، بل هدفه الأكبر والأشمل هو بلورة شخصية الإنسان والأمة، وتحويل هذين الكائنين إلى موجودين ناهضين مُتقدِّمين لا يقبلان الخمول والتراجع.

١ - ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وإذا كان الجهاد فرضاً واجباً على الذين آمنوا، فلا يدل هذا على أن من شأن الله سبحانه أن يتخلّى عنهم، وإنما هو يُدافع عنهم؛ شريطة أن ينهضوا بواجبهم الجهادي المُقدَّس ويدافعوا هم بدورهم عن دينه وينصروه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1].

إذاً؛ فنصر الله للمؤمنين ودفاعه عنهم منوط بدفاع المؤمنين عن الحق وبذل ما بوسعهم في سبيله.

أما دفاع الله عن المؤمنين فقد يأخذ طابع خذلانه للكافرين والمنافقين، حيث يسلب منهم العزم، وينشر في قلوبهم الرُّعب، وبالنتيجة يهيئ الوسائل الكفيلة لنُصرة هؤلاء فيُثبِّت عزائمهم، ولهزيمة هؤلاء فيسلب منهم العزم.

٢ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾.

أليس البشر جميعاً هم عبيد الله، وقد خلقهم كلهم رحمة بهم؟

(١) سورة محمد، آية ٧.

فلماذا يقف مع المؤمنين، بينما يخذل الآخرين؟

السبب في ذلك أن هؤلاء آمنوا وأولئك كفروا، والمؤمنون قد أدّوا الأمانة، فيما أولئك خانوها.

ومن الممكن أن تصدر الخيانة عن شخص في لحظة شهوة أو طمع أو غضب أو جهل بالحقيقة، وهذا يُدعى خائناً، ويُتوقّع منه الاستغفار والعودة إلى ربّه الغفار.

أما الذي يطغى على سلوكه ديدن الخيانة، ويبني بنيانه على أساسها، وينطلق في حياته من منطلق الكفر بالله عز وجل، فهذا من يُدعى بالخوّان الكفور الذي لا يغفر له الله ولا يُحبُّه.. وحيث لا يقع موقع الحب من الله، فهو لن يحظى بحب الملائكة ولا حب الطبيعة ولا تتواءم معه سنن الله في الحياة؛ أي أنه سيسير في الحياة معاكساً للتيار الطبيعي والغيبي، فيُحكم عليه بالطرد عن منظومة الخليقة.

> « إن الجهاد لا يقتصر على مجرد قمع الأعداء والانتصار عليهم، بل هدفه الأكبر والأمثل هو بلورة شخصية الإنسان والأمة. وتحويل هذين الكائنين إلى موجودين ناهضين مُتقدّمين لا يقبلان الخمول والتراجع.

وحيث يقول تعالى: ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فإنه لا فرق عنده بين خوّان وخوّان، من أية طبقة كان، ولأية مجموعة بشرية ينتمي، وليس لدى الله عز اسمه شعب مختار، وإنما الذي لديه أحكام وقيم وسنن.

أما العلاقة بين الخيانة والكفر التي ذكرتها الآية الشريفة، فتكمن في أن الخائن يظن نفسه أعلى من غيره، حيث يغلب عليه الظن بأن الطبيعة قد ظلمته، وأن الآخرين قد غمطوه حقّه، وأن الله تعالى لم يُعطه ما يستحق، لذلك تراه يكفر بأنعم الله عليه.

وما أفظع كفران العبد بنعم سيده الخالق! وهذا يعني أن الكفور ليس الكافر العقائدي على طور الختم.. وبهذه الحقيقة يُبيِّن الله تعالى لنا مفهوماً قد يكون الكثير من الناس -ومنهم المسلمون- غافلين عنه، وهو أن الكفر بالنعم، وظن السوء بالقضاء والقدر لا يقلّ سوءاً عن الكفر العقائدي بالله سبحانه وتعالى وإنكار وجوده أو الشرك به.

إن انعدام الشكر من الإنسان لله على أنه خلقه ورحمه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة يعني سقوطه في حضيض الكفر. وصفتا الخيانة والكفر ذاتا جذور واحدة ومشتركة ومتشابكة، وحيث تنحرف النفس الإنسانية إلى هذا الحد، وحينها تكون الرؤية غير صحيحة والبصيرة عمياء.. ترى الصفات السيئة تصدر تباعاً.

وهذه الآية بمثابة الممهدة للآية التالية، حيث إنّ الحديث القرآني هنا هو عن الحج، وعن بلورة وصياغة الشخصية الإنسانية صياغة ربانية رائعة.. هذا وقد سبق -من خلال الآية السابقة- الحديث عن أن من غايات أداء فريضة الحج أن يرقى الإنسان الحاج إلى مستوى تقديم الشكر له سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بمعنى إيضاح وفرض التوازن بين معنى ومفهوم الآيتين.

ثم إنه تعالى يقول في آية سابقة: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهنا يقول: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. فالصفات المثلى تتبلور في الإنسان الحاجّ حين يحجّ، فيصوغ شخصيته تلك الصياغة الإيمانية العرفانية، وبهذه الشخصية يتسلّح حين يُجاهد أعداء الله وينطلق ضمن سبيله القويم.

* * *

بصائر وأحكام

١ - لـن ينال المؤمن ذُرى المجد بعيـداً عن الظروف المحيطة به، وطبيعـة موقفه الإيجابي الواعي والمسـؤول منها، إلَّا بالجهاد في سـبيل الله.

٢ - نـصر الله للمؤمنين ودفاعه عنهـم منوط بدفاع المؤمنين عن الحق وبذل ما بوسعهم في سبيله.

٣-مـن غايـات أداء فريضة الحـج أن يرقى الإنسـان الحاجّ إلى مستوى تقديم الشكر لله تعالى.

الإذن بقتال الظالمين

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «لَمْ يُؤْمَرْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِقِتَالٍ وَلَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، حَتَّى نَزَلَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ وَقَلَّدَهُ سَيْفاً»[1].

ورُوي عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال: «فَبَشَّرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله الْمُجَاهِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هَـٰذِهِ صِفَتُهُمْ وَحِلْيَتُهُمْ بِالشَّهَادَةِ وَالْجَنَّةِ، فَقَالَ: التَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ، الْعَابِدُونَ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً، الْحَامِدُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٣٤٧.

عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الشِّـدَّةِ وَالرَّخَـاءِ.. (إلى أن قال عليه السلام:) ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّـهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقِتَـالِ إِلَّا أَصْحَابَ هَذِهِ الشُّرُوطِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَتْبَاعِـهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْـلِ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَمَا كَانَ مِـنَ الدُّنْيَـا فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِـينَ وَالْكُفَّـارِ وَالظَّلَمَةِ وَالْفُجَّـارِ وَأَهْلِ الْخِلَافِ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَالْمُوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِمَا مِمَّا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ظَلَمُوا الْمُؤْمِنِـينَ مِـنْ أَهْلِ هَـذِهِ الصِّفَاتِ وَغَلَبُوهُـمْ عَلَيْهِ مِمَّا أَفَـاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُـولِهِ صلى الله عليه وآله فَهُوَ حَقُّهُمْ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِـمْ وَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا مَعْنَى الْفَـيْءِ كُلُّ مَـا صَارَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا قَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ. فَمَا رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَقَدْ فَاءَ..

(إلى أن قال عليه السلام:) وَكَذَلِكَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ فَإِنَّمَا هِيَ حُقُوقُ الْمُؤْمِنِينَ رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ظُلْمِ الْكُفَّارِ إِيَّاهُمْ، فَكَذَلِكَ قَوْلُـهُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ مَـا كَانَ الْمُؤْمِنُـونَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُـمْ، وَإِنَّمَا أُذِنَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَامُـوا بِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا، وَذَلِـكَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْقِتَالِ حَتَّـى يَكُونَ مَظْلُوماً، وَلَا يَكُونُ مَظْلُومـاً حَتَّى يَكُـونَ مُؤْمِناً، وَلَا يَكُونُ مُؤْمِناً حَتَّى يَكُـونَ قَائِماً بِشَرَائِطِ الْإِيـمَانِ الَّتِـي شَرَطَهَا اللهُ عَـلَى الْمُؤْمِنِـينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، فَـإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ شَرَائِطُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ مُؤْمِناً، فَإِذَا كَانَ مُؤْمِناً كَانَ مَظْلُوماً، وَإِذَا كَانَ مَظْلُوماً كَانَ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْجِهَادِ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْمِلاً لِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ فَهُوَ ظَالِمٌ مِمَّنْ يَنْبَغِي وَيَجِبُ جِهَادُهُ حَتَّى يَتُوبَ، وَلَيْسَ مِثْلُهُ مَأْذُوناً لَـهُ فِي الْجِهَادِ وَالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَظْلُومِينَ

الَّذِيـنَ أَذِنَ اللهُ لَهُمْ فِي الْقُـرْآنِ بِالْقِتَالِ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ فِي الْمُهَاجِرِيـنَ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أُحِلَّ لَهُمْ جِهَادُهُمْ بِظُلْمِهِمْ إِيَّاهُمْ وَأُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ.

فَقُلْـتُ: هَذِهِ نَزَلَـتْ فِي الْمُهَاجِرِيـنَ بِظُلْمِ مُشْرِكِي أَهْـلِ مَكَّةَ لَهُمْ فِيمَا نَالَهُـمْ، أَوْ فِي قِتَـالِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَمَـنْ دُونَهُمَا مِـنْ مُشْرِكِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ؟.

فَقَـالَ عليه السلام: لَـوْ كَانَ إِنَّـمَا أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِ مَـنْ ظَلَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّـةَ فَقَطْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى قِتَالِ جُمُـوعِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَغَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ سَـبِيلٌ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوهُمْ غَيْرُهُمْ، وَإِنَّمَا أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِ مَـنْ ظَلَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لِإِخْرَاجِهِمْ إِيَّاهُـمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ إِنَّمَا عَنَتِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ كَانَتِ الْآيَـةُ مُرْتَفِعَةَ الْفَرْضِ عَمَّـنْ بَعْدَهُمْ، إِذْ لَمْ يَبْقَ مِـنَ الظَّالِمِينَ وَالْمَظْلُومِينَ أَحَـدٌ، وَكَانَ فَرْضُهَـا مَرْفُوعاً عَنِ النَّـاسِ بَعْدَهُمْ إِذْ لَمْ يَبْـقَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالْمَظْلُومِـينَ أَحَـدٌ. وَلَيْسَ كَمَا ظَنَنْتَ وَلَا كَمَا ذَكَـرْتَ، وَلَكِنَّ الْمُهَاجِرِينَ ظُلِمُـوا مِنْ وَجْهَيْنِ: ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَقَاتَلُوهُـمْ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَظَلَمَهُمْ كِسْرَى وَقَيْصَرُ وَمَنْ كَانَ دُونَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ بِمَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَحَـقَّ بِهِ مِنْهُـمْ، فَقَدْ قَاتَلُوهُمْ بِـإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُـمْ فِي ذَلِكَ. وَبِحُجَّةِ هَذِهِ الْآيَةِ يُقَاتِلُ مُؤْمِنُو كُلِّ زَمَانٍ، وَإِنَّمَا أَذِنَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَامُوا بِمَا وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّرَائِطِ الَّتِي شَرَطَهَا اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ قَائِماً بِتِلْكَ الشَّرَائِطِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ مَظْلُومٌ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الْجِهَادِ بِذَلِكَ الْمَعْنَى»[١].

(١) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٦، ص١٠٣ - ١٣٢.

تفصيل القول

١- ﴿أُذِنَ﴾

أُذِنَ لهم من قبل الله تعالى، على اعتبار أن القتال ليس أمراً مباحاً بحد ذاته، وإنما هو أمر ينبغي صدور الإذن الإلهي به. فالدين جاء بالرحمة، وما القتال إلَّا قضية استثنائية غير دائمية.

٢- ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾

بمعنى أن القتال في الإسلام أصلاً قتالٌ دفاعي، فلا تقوم قائمة الأمة المسلمة على الحرب الاستباقية وعلى إكراه الآخرين وإدخالهم إلى دائرة الدين بالقوة.

٣- ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾

لا يؤذَن للذين يُقاتَلون بالقتال لمجرد أنهم يُقاتَلون، وإنما يؤذَن لهم على اعتبارهم قد وقعوا تحت طائلة الظلم، وحيث لا يمكن مواجهة القتال بالقتال إلَّا إذا كان طرف مظلوم وطرف ظالم.

وهذا يعني أن لا حرب شرعية إلَّا إذا وقع ظلم من طرف على آخر. والظلم مصطلح ليس لأحد تفسيره وتعريفه سوى الدين؛ أي أن الحرب لا يمكن أن تقوم إلَّا إذا اقترنت بمبرر شرعي، ذلك لأن الدين يُريد التأسيس لنظام اجتماعي شامل للبشرية، قوامه المحبة والسلام.. فلا يشرع الدين التأسيس لجماعة قتالية ورموز حربية مثل جنكيز خان وهولاكو والخوارج وأمثالهم.

٤- ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

كما ينفي الله تعالى مشروعية الحرب والقتال حيث لا يكون

ظلم واقع، كذلك الله يُحرِّض المظلومين على المطالبة بحقوقهم المسلوبة، فلا يخضعوا للكسل والجبن والتهاون والخوف. فالإسلام لا يرتضي لأتباعه أن يختاروا الرُّزوح تحت ربقة الظلم، وإنما يطالبهم بالنهوض وبالوقوف بوجه الظالمين، وذلك ضمن شرائط ومواصفات موضوعية.. وقد قدَّم لهم الوعد الصادق بأن الله عز وجل قادر على نصرهم، حيث ينصرون الله بنصر دينه وبمواجهة جنود الشيطان الذين يهدفون قمع الحق وسلبه من أهله.

وهذا الوعد بالنصرة وعد صادق وأكيد، حيث أُدخلت لام التأكيد على كلمة (قدير) مما يدعو الإنسان المظلوم المقبل على قتال الظالمين إلى فتح حساب خاص ومميَّز لنصر الله تعالى له، ويُؤكد عليه أهمية التوكل عليه سبحانه.

* * *

بصائر وأحكام

١- القتال في الإسلام -في الأصل- قتال دفاعي، فلا تقوم قائمة الأمة المسلمة على الحرب الاستباقية، ولا على إدخال الآخرين إلى دائرة الدين بالقوة.

٢- وكما ينفي الله تعالى مشروعية الحرب حيث لا يكون ظلم، كذلك يُحرِّض المظلومين على المطالبة بحقوقهم المسلوبة، حين يَعِدُهم بالنصر.

وليَنصرن اللَّه من ينصره

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قَوْلِ الله تَبارَكَ وَتَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ نَزَلَتْ فِي رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَعَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَجَعْفَرٍ، وَجَرَتْ فِي الْحُسَيْنِ، عَلَيْهِمُ السَّلامُ أَجْمَعِينَ»[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٣٣٧.

تفصيل القول

١ - ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾

لماذا أُذن لهؤلاء بالقتال؟.

لأنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق، وحُرِموا حقَّهم في الإقامة في بلادهم، فأُخرجوا منها تحت طائلة التهديد.. والسبب في إخراجهم من ديارهم، هو أنهم كانوا يُؤمنون بالله تعالى ويدعون إلى وحدانيته، فكان إخراجهم إخراجاً بغير حق.

فهؤلاء المظلومون إنما صاروا مظلومين حين أُخرجوا من ديارهم، ولم يُخْرَجوا من ديارهم إلَّا لأنهم أرادوا حكم الله لا حكم البشر، ونادوا بالانقياد لقيادة إلهية دون القيادة الصنمية، وطالبوا بالاحتكام إلى الأخلاق الفاضلة والثقافة الإلهية دون الأخلاق الرذيلة والثقافة الجاهلية.. وحيث قالوا ذلك ونادوا به، أُخْرِجوا بالقوة أو حُوصروا حتى اضطروا إلى مغادرة محالِّ سُكناهم، كما حدث لأصحاب الكهف وهم الفتية الذين قاموا وقالوا: ربنا الله. فأوذوا في سبيل الله الواحد الأحد حتى اضطروا إلى الهجرة ومغادرة وطنهم واللجوء إلى جوف كهفهم الشهير.

من هنا نعرف أن القتال الشرعي الوحيد هو القائم على المنطلق الديني، وليس على منطلق آخر.. ذلك لأن القتال المشروع بحاجة إلى خلوص في النية، والخلوص في النية لا يكون ما لم يكن العمل ضمن دائرة الدين، والدين لا يُبيح لأيٍّ كان أن يَشُنَّ قتالاً؛ فَيَقْتُل أو يُقتَل. أما الذي يقاتل بدافع التعصُّب لقومه وعشيرته، وبحثاً عن مغانم الدنيا

مجردة عن المشروعية الدينية، فذاك الذي يرمي بنفسه إلى التهلكة، حيث يخسر دنياه وآخرته.

٢- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

آخر ما يتهدم من رموز الدين المعابد التي يُقدِّسها الجميع، حتى ولو لم يتَّبعوا الديانة ذاتها.

ولكن هذه المقدسات لا تبقى قائمة من دون الدفاع عنها، ومن هنا ذكَّرنا ربُّنا بضرورة الانتصار لحقائق الدين، ومن دون ذلك فإنها سوف لا تُحترَم من قبل المفسدين.

وقد ذكَّرنا الرَّبُّ تعالى في آية أخرى أن الدفاع عن الوطن ضرورة، وأنه من دون ذلك يسود الفساد أرجاء الأرض، فقال سبحانه بعد ذكر قصة بني إسرائيل الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وكيف حاربوا المعتدين ونصرهم الله فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1].

وهنا نجد أيضاً أن السياق مشابه، حيث إن المؤمنين أُذن لهم بالقتال بعد أن أُخرجوا من ديارهم بغير حق.

وقد ذكر السياق معابد اليهود والنصارى والمسلمين جميعاً للدلالة عن ضرورة الدفاع عن كل المقدسات الدينية في مواجهة الملحدين ما دامت جميعاً تدعو إلى الله خالق السماوات والأرض.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥١.

ثم بيَّن ربُّنا سبحانه أن الدفاع عن الدين هو نصر لله، لأن الدين هو دينه، وأن الله سبحانه ينصر المدافعين عن الدين وهو قوي عزيز، لا يضعف ولا يُهزم، وكذلك لا يضعف ولا يُهزم من ينصره. وقد قال سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

* * *

بصائر وأحكام

إنما المظلومون الذين أُذن لهم بالقتال هم الذين أُخرجوا من ديارهم؛ لأنهم أرادوا تطبيق حكم الله، ونادوا بالانقياد للقيادة الإلهية لا الأصنام الحجرية أو البشرية، وطالبوا بالاحتكام إلى معايير الثقافة الإلهية دون الجاهلية.

(١) - سورة محمد، آية ٧

للّه عاقبة الأمور

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ..﴾ قال عليه السلام: هَذِهِ لِآلِ مُحَمَّدٍ: **المَهْدِيُّ وَأَصْحَابِهِ يُمَلِّكُهُمُ اللهُ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَيُظْهِرُ الدِّينَ، وَيُمِيتُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ البِدَعَ وَالبَاطِلَ كَمَا أَمَاتَ السَّفَهَةُ الحَقَّ، حَتَّى لَا يُرَى أَثَرٌ مِنَ الظُّلْمِ، وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ، وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**لَا تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ فَيُوَلِّيَ اللهُ أُمُورَكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا**

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد تقي المجلسي، ج٢٤، ص١٦٥.

يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[1].

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللهُ، وَمَنْ خَذَلَهُمَا خَذَلَهُ اللهُ**»[2].

تفصيل القول

١ - ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

لكل نظام شعار يختصر اتِّجاهه العام، فما هو الشعار الذي يحمله المجاهدون حينما يصلون إلى سدة الحكم؟.

بالتأكيد؛ لن يكون هدف الذين يدافع عنهم الله، والذين أذن لهم بالقتال إذا ظُلِموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق، والذين ينصرهم الله لأنهم نصروه.. هؤلاء لن يكون هدفهم مجرد الوصول إلى السلطة، فهذا ليس من شأنهم، إنما هو شأن الانتهازيين والوصوليين أو ضعفاء اليقين الذين ينسون مبادئَهم حين يصلون إلى الحكم.

كَلَّا؛ إنما أذن الله بالقتال لغيرهم وهم الذين يُحَقِّقون فعلاً أهدافهم عند استلام السلطة، وهي تتمثل في ثلاثة محاور:

الأول: في العلاقة مع الله تعالى.

الثاني: في العلاقة مع المستضعفين.

الثالث: في صبغة المجتمع.

---

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٥٢٣.

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٤٢.

٢- ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

رمز الصلة بالله وشعار العبودية الخالصة له هي إقامة الصلاة. أوَلَيست الصلاة عمود الدين، وفيها من الأحكام الشرعية والأخلاقية ما يربو على الألفي حكم بين واجب ومستحب؟.

فمن يصلي لا بد أن يكون نزيهاً عن الرجز بكل ألوانه الظاهرية، مثل فضلات البشر والدم المسفوح.. أو الباطنية، مثل الجنابة والحيض.

وهكذا تتصل الصلاة بالطهارة، كما تتصل الصلاة بالعدل، إذ المصلي يُطهِّر نفسه من العلاقات السلبية مع الناس، لعلمه بعدم قبول صلاته إذا ما شابت علاقته بأحد المؤمنين بظلم، فإذا كان ملبسه أو مُصلَّاه من حرام فإن صلاته غير مقبولة.

والصلاة -في الوقت ذاته- علاقة اجتماعية، لجمعها الناس في مكان واحد، وهو المسجد، حيث يجتمع الناس في كل يوم ثلاث أو خمس مرات، فيتعارفون ويتعاونون.. هذا فضلاً عن تكريس الصلاة لمفاهيم الشكر والتواضع وتحدي الضغوط المادية.. وكذلك فيها نبراس الولاية للقيادة الإلهية، ورفض القيادة الشيطانية والتبري منها.

وبكلمة؛ الصلاة إذا أقيمت بشرائطها صبغت المجتمع بصبغة الهية.

٣- ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

وهذا هو المحور الثاني.

والزكاة وسيلة التكافل الاجتماعي. ومجتمع الزكاة يتجاوز عقدة الطبقية ويسمو إلى حيث العدالة، التي تكون هي الأخرى من عوامل التنمية الاقتصادية والاستقرار الاجتماعي.

والزكاة لا تقتصر على دفع المال، بل كل عطاء في سبيل الله زكاة، لقوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

والرزق قد يكون عِلماً وزكاته نشره، أو جاهاً وزكاته بذله، أو مالاً أو قوة وزكاتها عون المظلوم.. والمهم في هذه وغيرها البذل والعطاء عن نفس كريمة تشعر بأن من واجبها شكر الله تبارك وتعالى والخروج عن ضغوط الأنانية.

٤ - ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

هذا هو المحور الثالث في شعار الذين إن يُمكّنهم الله تعالى في الأرض.

فهم يبذلون كل جهدهم لتحكيم هاتين القيمتين الإلهيتين في أنفسهم وفي المجتمع، ذلك أن النظام الإسلامي ليس هو نظام القمع والإرهاب، بل هو نظام التربية والتواصي.. ولذلك؛ لم يقل ربنا بأنهم يحققون المعروف أو يزيلون المنكر، بل وصفهم بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، مع أن من واجبات الدولة الإسلامية إقامة الحق ونبذ الظلم والباطل.

وهذا المحور -في حقيقة الحال- يتصل بكل الأحكام الشرعية والأصول العقائدية والأخلاقية؛ لأن الأحكام الشرعية -بالدرجة الأولى- أوامر ونواهٍ، أوامر إلى المعروف ونواهٍ عن المنكر.. ومعنى هذا أن الشغل الشاغل لقادة النظام الإسلامي هو تطبيق أحكام الله تعالى دون تحقيق مصالحهم والاستجابة لأهوائهم وشهواتهم.

---

(١) سورة البقرة، آية ٣.

فهم حين يُمكّنهم الله تبارك وتعالى في الأرض يُطالبهم بتحقيق تعاليمه. والله يُطالبهم بذلك لأنه عرف فيهم تجرُّدهم عن ذواتهم ومصالحهم الشخصية، واتّخاذهم السلطة والقوة وسيلة إلى هدف مقدس.. ومثال ذلك ما روي عن عَبْدِ الله بْنِ الْعَبَّاسِ، إِذْ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذِهِ النَّعْلِ؟

قُلْتُ: لا قِيمَةَ لَهَا.

فَقَالَ عليه السلام: «والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً»[1].

> «إن النظام الإسلامي ليس نظام القمع والإرهاب، بل نظام التربية والتواصي.. ولذلك؛ لم يقل ربنا بأنهم يحققون المعروف أو يزيلون المنكر، بل وصفهم بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

لأنه عليه السلام كان يعلم -وأراد أن يُعلِّم القادة الذين سيلونه- بأن السلطة التي وصلت إليه وستصل إلى غيره إنما هي مِكْنَةٌ وفرها الله تعالى له، وهي بمثابة الأمانة في الرقاب، والله ناظر أبداً كيف تُحفظ هذه الأمانة وتؤدّي..

٥- ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

هنا إشارة -كما يبدو لي- إلى أن المجتمع المسلم ليس مجتمعاً مثاليًا كما قد يُفترض ويتوقع المجاهدون والقادة السياسيون، وإنما هو مجتمع إنساني.. وأنه ليس من الغريب أن تكون لدى أفراد الناس بصورة عامة صفات من الخير وصفات من الشر.. مما يُحتِّم أهمية اتّساع صدور القادة الرساليين للهناة التي قد يجدونها في هذا المجتمع، وأن يعرفوا أن الجنة لن تتوفر في الأرض، وأن الدنيا برمتها لا تعدو أن

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٣.

تكون محطة ابتلاء وفتنة، يُراد منها أن تحتوي الناس لفترة محدودة.

كما هي إشارة -فيما يبدو- إلى أن على الرساليين أن يبذلوا كل جهدهم في سبيل تحقيق الأهداف، ثم يكلوا الأمر إلى ربهم سبحانه، فله عاقبة الأمور، حيث إنه المُقدِّر والمُدبِّر، ولا يكون إلّا ما يشاء بحكمته البالغة.

* * *

بصائر وأحكام

١ - الصلاة رمز العبودية، وهي عمود الدين، وهي تُمثِّل علاقة الإنسان بربه المتعال.

٢ - المهم في الزكاة البذل والعطاء عن نفس كريمة تشعر بأن من واجبها شكر الله والخروج عن ضغوط الأنانية.

٣ - الشغل الشاغل لقادة النظام الإسلامي هو تطبيق أحكام الله تعالى، دون تحقيق مصالحهم والاستجابة لأهوائهم وشهواتهم.

٤ - المجتمع المسلم ليس مجتمعاً مثاليًّا، وإنما هو مجتمع إنساني. فلا بد من اتّساع صدور القادة الرساليين للهنات التي قد يجدونها في هذا المجتمع.

تكذيب الرسل

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبدالله عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ لِلزِّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ أَثْبَتَّ الأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؟.

قَالَ عليه السلام: **إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً صَانِعاً مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً مُتَعَالِياً، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ، وَلَا يُلَامِسُوهُ فَيُبَاشِرَهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ، وَيُحَاجَّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ، ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ، يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ. فَثَبَتَ الآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ وَالْمُعَبِّرُونَ عَنْهُ جَلَّ وَعَزَّ، وَهُمْ**

الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

تفصيل القول

نلاحظ أنه كلّما ذكّرنا ربنا بأمر عظيم وخطير، فإنه يُبيِّن لنا عاقبة التكذيب بهذا الأمر، فلماذا يا ترى؟

الجواب هو: لأن رسالات الله أرقى مستوىً من الناس، وهي في الحقيقة معارج لهم ليرتقوا عبرها ويسموا بها. وليس من السهولة التصديق بها والتسليم لها؛ لأن الناس يصعب عليهم القفز على التراكمات الجاهلية وضغوط الشهوات، وكذلك تحدي قمع الأنظمة الفاسدة التي تتسلّط عليهم.

وهكذا فمن أجل القفز على هذه العقبات والارتقاء إلى مستوى الرسالات الإلهية يحتاج الناس إلى حوافز قوية جدًّا.. وأيّ حافز أقوى من خوف التكذيب وعاقبته؟ نظراً إلى أن من اليسير على المرء أن يُكذِّب بالحق، ولكنه إذا عرف بأن تكذيبه بالحق سيُكلِّفه الكثير، وأن كثيراً من النعم ستزول وتتلاشى إذا كذَّب بالحق، وأن عظيماً من العقاب سيحل بساحته، فانه سيرتدع عن مزاولة هذا المنكر، لا سيما إذا اقترنت معرفته بذلك بحالة من صفاء القلب وإنصاف الفكر.

إن كل فرد في إطار شخصه إذا كذَّب بالحق أُصيب بعاقبة التكذيب، مثل: قسوة القلب، والفشل في الحياة، والاصطدام بسنن الله التي لا تغيُّر ولا تبدُّل فيها، كما قد يُصاب بالأمراض وبكثير من الأمور غير الحميدة.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٦٨.

ولكـن؛ إذا تناولنـا الأفـراد وأردنـا أن نُبـيِّن مصائرهم بسـبب تكذيبهـم، صعب على النـاس التصديق بها؛ لأن الأحوال الشـخصية للأفراد غالباً ما تكون غامضة.

ومن هنا؛ فإن ربَّنا المتعال يُوجِّه أنظارنا إلى الأمم؛ لأنها بمجموعها قد كَذَّبت برسالات الله أيضاً في كثير من الحالات والحقب، وقد تعرَّضت بمجموعها لعقاب جمعي بسـبب تكذيبها، وهو العقاب المشـهود للناس جميعاً، لا سـيما بعض الأمم التي كان تكذيبها -في الحقيقة- تكذيباً حادًّا وجديًّا وشاملاً، وكان عقابها بالدرجة نفسها من الشدة.

ويضرب الله عز وجل الأمثال من هذه الأمم؛ المرة بعد الأخرى حتـى تتحوَّل مصائـر الأمم المُكذِّبة للرسـل إلى دروس ينبغي الاعتبار بهـا، اعتبـاراً يضعه الإنسـان المُنصف نُصـب عينيه وعقلـه وقلبه دائماً وأبداً.

فيا أيها الرسول المصطفى

١- ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾

مَنْ أُرسِلْتَ لهم في مكة وغيرها.

٢- ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

وكانوا قد شـيّدوا حضارة في بلاد الرافدين موغلةً في الاتِّساع.. ولعـل حضارتهم بوصفهـا هذا هي التي دفعتهـم إلى التكذيب بعد أن أُصيبوا بالغرور بها، ونسيان مواعظ الأنبياء السابقين.. فأخذوا بتغطية أخطائهـم بما لديهم من طاقـات وإمكانات.. ومن ثَـمَّ راحوا يُكذِّبون نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الناصح لهم، الأمين عليهم..

٣- ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾

وكذلـك قوم عاد الذين كانوا يقطنـون أطراف الجزيرة العربية، ومثلهـم ثمود.. حتى أن الله عز وجل قـد أبادهـم بعذابه بفعل تمرُّدهـم وتكذيبهم.. حتى صار يُطلق عليهم اسـم العـرب البائدة؛ لأن الله قد أبادهم عن بكرة أبيهم.

٤ - ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

هـؤلاء أيضـاً -وكانوا قريبين زمانـاً ومكاناً- قد كذَّبـوا النبيَّين العظيمـين؛ إبراهيـم ولوطـاً ﷺ، فأُصيبـوا بعـذاب شـديد مـوازٍ لتكذيبهم رسالات الله ورسله الصادقين.

* * *

بصائر وأحكام

١ - يـضرب الله الأمثـال من الأمـم التي كذَّبت الرسـل، حتى تتحوَّل إلى دروس يعتبر بها الناس.

٢ - إذا كان التكذيـب سـبب دمـار أمـة مـن الناس كأمـة، فإنه سـيكون بالأحـرى سـبباً لدمـار الأفـراد؛ لأن الفرد أكثر هشاشـة من المجتمع.

فكيف كان نكير؟

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾

أصحاب مدين كذلك كذَّبوا شعيباً عليه السلام، وقصتهم والعبرة منها معروفة حتى في ثقافة العرب قبل الإسلام، كما هي في ثقافة الأقوام الأخرى.

وكذلك يا أيها الرسول المصطفى قد كُذِّب موسى عليه السلام..

وربنا سبحانه وتعالى يُذكِّرنا تارة بأسماء الأنبياء، وأخرى بأسماء الأمم المكذِّبة.. وذلك لكي يُسلِّي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله -كما ذكر

بعض المفسرين - ويؤكد له نصره المُؤزَّر.. إضافة إلى أنه تعالى يُريد بذلك أن نعتبر فلا نكون مثلهم، فيحلّ علينا ما حلّ بهم.

إن الله تعالى يَعِدُ نبيه المصطفى بالنصر، كما يَعِدُ الفرد المؤمن، والثُّلّة المؤمنة بالنصر والدفاع عنهم، ولكن متى يأتي نصر الله فيبيد الكافرين المكذبين؟.

ربنا القادر الحكيم يؤكد في سياق هذه الآيات، كما في آيات أخرى، أن نصره المُؤزَّر يتّبع سياقاً معيناً، فبعد إتمام الحجة تكون هناك فترة إمهال، رحمةً بالمُنذَرين لعلهم يرجعون، لأنهم كذلك خَلْقٌ من خلق الله تعالى. أما إذا أوغلوا في الكفر، ولم يستفيدوا من المهلة، فاجأهم العذاب من حيث لا يشعرون، وإن شعروا، عجزوا عن ردّه ومواجهته.

٢ - ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾

إشارة إلى مرحلة الإمهال بعد إتمام الحجة وتقديم الفرصة.. وإنما في النهاية، يؤكد ربنا العزيز فيقول:

٣- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾

أي: فاجأتهم، فذهبوا وأصبحوا أمثولة وأحدوثة وعبرة لمن يُريد الاعتبار، فلا يتصوَّر أحد بأن التكذيب بالرسالات أمر سهل. كَلّا؛ إنه يكلفه الكثير الكثير.

٤ - ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

يسأل الله عز وجل أجيال البشرية التي اطّلعت أو تتطلع على نهاية الأمم المُكذِّبة لأنبيائها ورسالاتهم، يسألها عن الأمر المنكر والذي تمثّل في العذاب بعد أن أنذرهم الله منه، وبعد أن بعث الأنبياء من أجل

تجنُّبه.. ترى كيف كان هذا العذاب الذي لا يُحبه كل إنسان ولا يرتضي أن يحل بساحته؟.

لقد انتهت حضارة قوم نوح عليه السلام، وانتهت عاد وثمود.. انتهوا جميعاً بعذاب الله وغضبه، ولم تبقَ لهم باقية.. وكذلك قوم إبراهيم عليه السلام في بابل، وقوم لوط عليه السلام.. وأُبيد سكان منطقة مدين، وأُغْرِق فرعون وجنوده.

إن الله سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا في هذه المنظومة التي حوتها الآيات (٤٢ إلى ٤٥) خطورة التكذيب بالرسل والرسالات، لكي نرتفع إلى مستوى التصديق، باعتباره المستوى الذي يستحقه الإنسان، هذا الكائن المُكرَّم من قبل الله، والذي خُلِقَ في أحسن تقويم عقلي ونفسي وجسدي، مُضافاً إلى أن من شأن التصديق أن يرتفع بالإنسان المُصدِّق إلى مستوى تحمُّل المسؤولية، وهو الهدف من خلقة الإنسان وإيجاده على الأرض.

فالإنسان إما أن يُكذِّب أو يُصدِّق، ولا خيار ثالث له بينهما. وكما الخياران صادقان فيما يتصل بأصل الرسالة والإيمان، كذلك هما صادقان في المفردات والأحكام من صلاة وصيام وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر. إذ التصديق يعني الوصول إلى القمة، فيما التكذيب بهذه الأصول والمفردات له ثمنه الأغلى على مصير الإنسان المظلم الذي لا قِبَلَ له به.. ولو أن ابن آدم عرف قدر نفسه، وأنه ليس كأي حيٍّ آخر، لعرف حتماً بأن عليه أن يختار القرار الصائب، وإلَّا فإن الدمار سيكون نهايته.

* * *

بصائر وأحكام

بعد إتمام الحجة على الكافرين تكون هناك فترة إمهال رحمةً بالمُنذَرين لعلهم يرجعون، ولكن إذا أوغلوا في الكفر ولم يستفيدوا من المهلة جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون.

خاوية على عروشها

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

لابد لنا -نحن بني آدم- أن نستوعب السنّة الإلهية التي تقضي بأن عقاب الله تعالى على بعض الذنوب يُدمِّر حضارات بأكملها.. فنستوعب ذلك شئنا أم أبينا؛ لأنه سنة ربانية ثابتة.

نعم؛ يصعب على الإنسان عادةً أن يُصدِّق بأن الرَّبَّ الرحيم الرحمن الرؤوف الحنّان، سوف يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب وعظيم الدمار، كالتي نراها في الحضارات التي بادت. ولذلك ترى الإنسان يبقى مُتردداً في قبول هذه السُّنّة الإلهية، إلّا أن عليه أن يسير في الأرض، فينظر إلى تاريخ المدنيات البشرية التي سادت ثم بادت وإلى آثارها على

الأرض، فيقصد المتاحف وبقايا المدن الكبرى التي سكنها أناس امتلؤوا غروراً وطغياناً، فَدُمِّروا شرَّ تدمير. بل حتى على المرء أن يعتبر بالكوارث الطبيعية التي تقع في عصره هنا أو هناك؛ لأنها حوادث قاصمة لا تقع إلّا ضمن حساب رباني دقيق وحكيم، بل عليه أن يعتبر بها حتى يتأكد أن الرحمة الإلهية هي الأصل ولكنها لن تستمر مع الذين يتعدون عن مسلك الحق؛ لأن للرحمة الإلهية شروطاً ومقتضيات وحدوداً معينة.

١- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾

عادةً ما يصف الله عز وجل المدن والحضارات الظالمة بالقرى، احتقاراً لها وتصغيراً. أما كلمة (كأيّن) فتدل على الكثرة.

٢- ﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾

التكذيب لله وللرسول وللرسالة كفر وظلم، ومعاكسة السنن الإلهية ظلم وكفر.. وحيث تنحرف المدنيات البشرية عن طريق الحق والعدل، فإنها تكون ظالمة. فتعالوا للسير في الأرض، ثم النظر: كيف أن هذه القرى قد دُمِّرت..

٣- ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾

لم يعد أحد بعد دمار أهليها يسكنها تشاؤماً بها وبهم.. فهي قد تحطَّمت جدرانها وتهدَّمت سُقُفها..

٤- ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾

حيث كان الماء -قديماً وحتى الآن- محور الحضارات والعيش، وحتى الصناعة والزراعة.. وهذه البئر التي كانت ذات يوم محطَّ الصِّراع والتزاحم، إنها لا تزال موجودة، ولكن الناس قد رحلوا عنها،

ولم يأتِ غيرهم للاستفادة منها؛ لأنها أصبحت رمزاً للشؤم والبؤس.

٥ - ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾

في كل منطقة يحل بها الدمار، يبقى القصر، وهو رمز القوة والرفاهية مشيداً، ليدلنا على طبيعة المدنية التي كانت سائدة، ولكي يتخذ الناس منها عبرة، وليعلموا أن دمار الحضارة لم يكن لضعف بنائهم وقلة حيلتهم المادية، بل لظلمهم لأنفسهم، وبالتالي لمخالفتهم لسنن ربهم، وليعلموا أنه ينبغي للبشر أن يعيشوا في ظلال العدل والرحمة، وليس اعتماداً على القصر المشيد والبئر العامرة.

واليوم حيث نجد البشرية تتوغّل في توفير الوسائل المادية ظنّاً منهم أنها تنقذهم من سنن ربهم إذا ظلموا، أو تراهم كلّما زادوا عتوّاً عن الحق ونفوراً واستكباراً في الأرض وبغياً فيما بينهم تراهم يحيطون أنفسهم بتدابير مادية لعلّها تقيهم العاقبة السوءى.

كَلَّا؛ إن الظلم إذا شاع، والفحشاء إذا انتشرت، والفساد إذا عمّ.. يأتيهم أمر الله الذي لا يُؤخّر، ويُحيط بهم ذنبهم فلا يستطيعون ردَّه.

* * *

بصائر وأحكام

علينا نحن البشر أن نستوعب السُّنَّة الإلهية التي تقضي بأن عقاب الله تعالى على بعض الذنوب يُدمِّر حضارات بأكملها.

أفلم يسيروا في الأرض؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**فَاحْذَرُوا مَا قَدْ حَذَّرَكُمُ اللهُ، وَاتَّعِظُوا بِمَا فَعَلَ بِالظَّلَمَةِ فِي كِتَابِهِ، وَلَا تَأْمَنُوا أَنْ يُنْزِلَ بِكُمْ بَعْضَ مَا تَوَاعَدَ بِهِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فِي الْكِتَابِ. تَاللهِ لَقَدْ وُعِظْتُمْ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ**»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لَيْسَ الأَعْمَى مَنْ يَعْمَى بَصَرُهُ، وَلَكِنَّ الأَعْمَى مَنْ تَعْمَى بَصِيرَتُهُ**»[2].

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٥٩٥.

(٢) تفسير الدر المنثور، الشيخ جلال الدين السيوطي، ج٤، ص٣٦٥.

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا الأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾»(1).

ورُوي عن حسن الصيقل قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام عَمَّا يَرْوِي النَّاسُ: أَنَّ تَفَكُّرَ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ، قُلْتُ: كَيْفَ يَتَفَكَّرُ؟

قَالَ: «يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ أَوْ بِالدَّارِ فَيَقُولُ: أَيْنَ سَاكِنُوكِ، أَيْنَ بَانُوكِ؟ مَا بَالُكِ لَا تَتَكَلَّمِينَ؟»(2).

تفصيل القول

آيات القرآن المبارك تُحدِّثنا عن المزيد من البصائر في العقل والفكر، ومن يظن بأن القرآن لا منهج منطقي خاص به مُدان بأنه لا منطق سليم له؛ لأن القرآن هو كتاب عقل وذكر وبصائر ونور وفرقان.

وإنما ينشر القرآن المجيد حديثه عن العقل وعن العلم وعن منهج التفكير في مواقع مُتعدِّدة؛ لأن القرآن يتصل بالواقع، غير مجرد عنه أو متعالياً عليه، ولذلك؛ نجد الحديث القرآني عن المُثُل والقيم لا ينفصل عن حديثه عن التأريخ والأمثلة التي فيه وعن الواقع الإنساني، لأن من يريد التعرُّف على تجارب الأمم السالفة عليه أن يُثير عقله، ويشحذ فطنته، ويتجرَّد عن الأفكار المسبقة والقناعات الخاطئة، وإلَّا فإنه سيمر على آيات الحقيقة في التاريخ وفي الطبيعة وفي نفسه دون أن يستفيد منها شيئاً، بل قد يزداد جهلاً وعمىً. ومن هنا؛ قال سبحانه وتعالى:

(1) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج1، ص379.
(2) الكافي، الشيخ الكليني، ج2، ص54.

١ - ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

والقول هذا سؤال استنكاري وتحريضي في الوقت نفسه. وعجباً من قول بعضهم: إن السير المطلوب هنا هو السياحة في كتب التأريخ، دون عطفها على اعتماد وسائل أخرى، رغم أن صريح القرآن يؤكد على أمر السير بلفظه ومعناه في أرض الواقع، والنظر عن قرب إلى ما تبقّى من آثار المدنيات الماضية، لما فيها من التعبير عن الحقائق بوضوح، وهي تُجسِّد السنن الإلهية التي جرت في الغابرين، حيث تعرَّضوا للعذاب ودُمِّرت مدينتهم بفعل طغيانهم وكفرهم.

٢ - ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ ﴾

أي: بسبب السير في آثار الأمم السالفة تنمو قابلية الإنسان على التحليل والاستنتاج والاعتبار، ومحل هذه القابلية هي جوهر الإنسان الذي يُعبَّر عنه بالقلب؛ إذ قلب الشيء أصله، كما هي سورة (يس) المباركة قلب القرآن وأصله، بمعنى محوره، وقد قيل: سُمِّي القلب قلباً لتقلُّبه، فلا بد من السير المباشر في الأرض لتدريب هذا القلب على حالة الثبات؛ إذ في هذه الحالة يتمكَّن المرء من الاستنتاج الصحيح.

٣- ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾

أسند فعل التعقُّل إلى القلب لأن العقل يتجلَّى فيه وهو فعله، وإنما ينمو العقل بالتعقُّل.

٤ - ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

ونتساءل: أليس الإنسان حين يسير ينظر أكثر مما هو يسمع، فلماذا تحدَّث القرآن عن السمع هنا دون النظر؟

يبدو أن السبب يكمن في أن أكثر معارف الإنسان سماعية، حيث تنتقل إليه تجارب السابقين عبر الكلمات. وما يراه الإنسان بعينه ويستوعبه بتجربته الذاتية جزء بسيط مما يستفيده من تجارب الآخرين.

٥ - ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

فإذا كان هناك قلب يعقل وأُذُن تسمع، فإن الواقع الإنساني سيكون في غنى عن الحديث عن القدرة على البصر؛ لأن البصر الحقيقي هو بصيرة القلب الكائن في صدر الإنسان، وصدر الإنسان أعلاه وأسماه، والأزمة الكبرى حيث يعمى القلب، لا حيث تعمى العين المجردة؛ لأن قيمة المرء في نوع تفكيره واستنتاجه واعتباره المتأتي من سلامة القلب، لاسيما وأن القلب رمز الحياة الإنسانية، وحيث لا تفكير سليماً ولا استنتاجاً ولا اعتباراً، فإنه لا حياة حقيقية بمقدور ابن آدم أن يتميز ويتمتع بها. وكما يموت الإنسان حين يتوقف قلبه، كذلك هو يموت حين ينعدم فيه التفكير وقدرته على التعقّل والاعتبار.

* * *

بصائر وأحكام

١ - من يريد التعرُّف على تجارب الأمم السالفة عليه أن يثير عقله ويشحذ فطنته. أما إذا لم يُجرِّد نفسه من الأفكار المسبقة فإنه سيمر على الآيات الكريمة دون أن يستفيد منها شيئاً، بل قد يزداد جهلاً وعمى.

٢ - بسبب السير في آثار الأمم السالفة تنمو قابلية الإنسان على التحليل والاعتبار، ومحل هذه القابلية هو جوهر الإنسان الذي يُعَبَّر عنه بالقلب.

ويستعجلونك بالعذاب

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «عِبَادَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ. عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ»[1].

ورُوي عنهم عليهم السلام فيما وعظ الله عز وجل به عيسى عليه السلام: «اعْمَلْ لِنَفْسِكَ فِي مُهْلَةٍ مِنْ أَجَلِكَ قَبْلَ أَلَّا يَعْمَلَ لَهَا غَيْرُكَ، وَاعْبُدْنِي لِيَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، فِيهِ أَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا، وَإِنَّ السَّيِّئَةَ

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٧.

تُوبِقُ صَاحِبَهَا. فَامْهَدْ لِنَفْسِكَ فِي مُهْلَةٍ وَنَافِسْ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

كما أن من سنن الله تعالى أن يأخذ القرى الظالمة ويُهلكها بما تقترف من الظلم، كذلك من سننه عز وجل أن يُمهل الظالمين لفترة مُعيَّنة. فالإمهال -وفقاً لهذه السُّنّة الإلهية- لا يعني نسيان الله إياهم، ولا يدل على عجزه ولا على مغفرته، بل قد يكون إمهالاً له لعلَّه يتوب، أو إملاءً له ليزداد إثماً فيُضاعف عليه العقاب.

وفي فترة الإمهال ترى الإنسان يقترف ذنباً -ولا تمسه العقوبة الإلهية المباشرة- فيتصوَّر خطأً أن ما اقترفه ليس بذنب يُؤاخَذُ عليه، أو يتصوَّر أن الله عز اسمه لن يُعاقبه.. وواضح أن كِلَا التصورين خاطئان؛ لأنه تعالى لا تغيب عنه غائبة، وهو يحفظ ويكتب حتى مثقال الذرة مما يصدر عن الإنسان، وهو الذي يعلم السر وما هو أخفى، وهو الذي سيُحاسب الإنسان على كل صغيرة وكبيرة، ويُطلعه على كل ما اقترف، حتى أنه تعالى يَكِلُ إليه قراءة كتابه بنفسه، فيشهد على نفسه بما فعل، تبعاً لِسُنّة الله في عباده، هذه السُّنّة القاضية بمسؤوليتهم عن أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم بالدرجة الأولى والمباشرة.

ولكن طغيان الإنسان وجهله من جهة، وإمهال الله تعالى له من جهة ثانية، يدفعانه إلى مزيد من الغفلة، هذه الغفلة التي تجعله يتساءل عن عذاب الله، بل قد يتحدى ربَّه سبحانه عبر التهكم عليه واستعجال

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص١٣٤.

عذابه، من دون أن يعلم أنه قد يكون مُحاطاً بالعذاب الإلهي متمثلاً بابتعاده وانقطاعه عن ربِّه. ومعلوم أنّه ما من نقمة يُمكن أن تحلّ بابن آدم أشد من نقمة الانقطاع عن ربِّه المتعال، حيث يُسلب منه التوفيق إلى طاعة الله كما تُسلب منه حلاوة عبادته ومناجاته.

ثم لماذا يستعجل الطاغي الجاهل عذاب الله؟ فهل هو قادر على دفعه إن هو حلَّ بساحته؟ أم له جانب يلجأ إليه، فيُنقذه من أهواله؟ أم أنه باستعجاله العذاب راغب باستشعار اللذة منه؟!.

٢ - ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾

هو الله عز وجل لا ولن يخلف وعده، ولن يقضي بتغيير سُنّته فيما يتعلق بالطغاة والظالمين، اللهم إلّا أن يتوب أحدهم ويعود إلى ربّه مستغفراً عازماً على هجر مساوئه؛ ذلك لأن الله عزَّ اسمه لم يخلق الخلق لاعباً.. وهذه لعمري كلمة غاية في الخطورة على الإنسان ومصيره الدنيوي والأخروي، فهو عز وجل كما لن يُخلف وعده للصالحين بأن يدخلهم جنانه، كذلك لن يُخلف وعده للأشرار بأن يزجّهم في نيرانه.

فلماذا البدار إلى أخذ الظالمين، فهل يُمكنهم الفرار من حكومته، أو الضعف من إلحاق الأذى بهم؟.

كَلَّا؛ إن الله تعالى لا يخشى أن يفوت عنه واحد منهم أبداً؛ لأنه المحيط بكل الكائنات إحاطة تامة وأبدية.

٣- ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

هذا الواقع الإلهي مصداق لإحاطة الرَّبِّ المتعال بعبيده، ونموذج مثال بسيط للغاية لشيء من التفاوت الموجود بين الخالق

ومخلوقه، فمهما تمرَّد العبد على قانون سيده، يبقى قاصراً كل القصور عن أن يتصوَّر بأنّ تمرُّده هذا سيبلغ به أبد الدهر؛ لأن عمر العبد محدود، ولأنه لا قيمة للدهر الدنيوي في حسابات الله تعالى، حتى الحسابات التي يضربها لعبده مثالاً، بناءً على محدودية أفقه، ومن هو الذي يطمح إلى العيش ألف سنة في نطاق الكفر والعصيان إذا كانت الألف سنة مجرد يوم عند الله، هذا إن قُدِّر له العيش طيلة هذه الفترة بكامل قوته وبكل إمكاناته.. والحال أن أعظم إمكانات ابن آدم لا يسعها إلّا الاستسلام أمام أضعف جنود الله.

ثم إنه ليس من الصحيح أن نُصوِّر الأمور ضمن الزمن الدنيوي؛ لأن من أهم المؤشرات الإيمانية هو إلغاء الزمن، كمن يلغي الزمن بينه وبين لحظة الموت ليعيش حالة رائعة من التقوى تمنعه عن الانقياد إلى هواه وشيطانه. ولعل أفضل ما يُمكن التعبير به عن أمر إلغاء الزمن كلمة الصبر الذي عدَّه أهل البيت عليهم السلام من دعائم الإيمان وأركانه.

ومن ناحية أخرى، نجد أن اللحظة القصيرة التي قد لا نحسب لها حساباً، بل قد نعجز عن تصور حقارتها في الحساب الإلهي الذي عَبَّرت عنه الآية الكريمة بأنّ ألف سنة هي بمثابة يوم واحد عند الله، إنّ هذه اللحظة قد تختزل في طياتها خلق الله لمساحات عظيمة جدًّا بالنسبة لنا في هذا الكون الفسيح، وفي تلك المساحات أجرام سماوية مترامية الأطراف، أو لعله عز وجل قد أقام قيامة عوالم بأكملها نحن في جهل تام بواقعها وحقائقها.

إن الزمن الذي ما هو إلّا عبارة عن تلاحق الحوادث؛ إنما هو حالة لدينا، أما في ملكوت الرَّبِّ فإن واقع الخلود لا يتأثر بشيء؛ لأن الله سبحانه فوق كل خلق، ومن ضمن هذا الخلق هو الزمن.

بصائر وأحكام

١ - من سنن الله تعالى أن يُمهل الظالمين لفترة معينة، لعلهم يتوبون ويرجعون عما اقترفوه من ظلم، وقد يكون إمهاله لهم إملاءً ليزدادوا إثماً.

٢ - كما أنّ الله لا يُخلف وعده للصالحين بأن يدخلهم الجنة، كذلك لن يخلف وعده للأشرار بأن يزجُّهم في نيرانه. وذلك لأن الرَّبَّ مُهيمن على المخلوق العاجز عن الفرار من حكومته.

عقبى القرية الظالمة

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُمْهِلُ الظَّالِمَ حَتَّى يَقُولَ: أَهْمَلَنِي، ثُمَّ إِذَا أَخَذَهُ، أَخَذَهُ أَخْذَةً رَابِيَةً»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ»[2].

وقال عليه السلام: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١٢، ص١٠٢.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٥.

عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٌ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ. وَمَا أَبْلَى اللهُ عَبْداً بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ»[١].

تفصيل القول

تكميلاً للبصائر القرآنية التي حوتها الآية الشريفة السالفة، يتحدَّث الله عز وجل عن مجموعة من القرى، كمصداق لقانون إلهي مُتعلِّق بواقع الظلم الذي ترزح فيه، أو لنقل: قد ورطت نفسها فيه، فلم يأخذها الله، وإنما أملى لها؛ لأنها لها الحق -ضمن مقاييس الرحمة الإلهية- أن تخوض تجربتها في الحياة، ولكنها حيث لم تُثبت جدارتها بأنعم الله، ولم تعِ حكمة الإملاء، فقد أخذها الله أخذ عزيز مقتدر، ثم ساقها إليه ليكون حسابها عليه هو، وهنالك تجزى بظلمها بما تستحق.

وكلمة ﴿وَكَأَيِّن﴾ تدل على الكثرة، وهي تحذرنا من أن نُصبح مثلها. وأخذ القرى يعني -فيما يعني- تدمير المدنيات وهلاك الأمم، وهي أبلغ أثراً في النفوس وأظهر آية في الأبصار من هلاك الأفراد.

* * *

بصائر وأحكام

القرية الظالمة، إذا لم تعِ حكمة الإملاء الإلهي، ولم تتب إلى ربِّها، سيأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ويكون مصيرها إلى الله تعالى.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١١٦.

الرسول نذير مبين

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا أَظْهَرَ بِمَكَّةَ دَعْوَتَهُ (إلى أن قال:) فَجَاءَهُ قَوْمٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ أَنَّكَ لَا تَرْضَى بِذَلِكَ حَتَّى تَزْعُمُ أَنَّكَ سَيِّدُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ نَبِيّاً فَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا تَذْكُرُهُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ مِثَالَ نُوحِ الَّذِي جَاءَ بِالْغَرَقِ وَنَجَا فِي سَفِينَتِهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّ النَّارَ جُعِلَتْ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلَاماً، وَمُوسَى الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّ الْجَبَلَ رُفِعَ فَوْقَ رُؤُوسِ أَصْحَابِهِ حَتَّى انْقَادُوا لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ صَاغِرِينَ دَاخِرِينَ، وَعِيسَى الَّذِي كَانَ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِهِمْ.

وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِرَقاً أَرْبَعَ؛ هَذِهِ تَقُولُ: أَظْهِرْ لَنَا آيَةَ نُوحٍ عليه السلام، وَهَـذِهِ تَقُـولُ: أَظْهِـرْ لَنَا آيَةَ مُوسَـى عليه السلام، وَهَـذِهِ تَقُولُ: أَظْهِـرْ لَنَا آيَةَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَهَذِهِ تَقُولُ: أَظْهِرْ لَنَا آيَةَ عِيسَى عليه السلام.

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَتَيْتُكُمْ بِآيَةٍ مُبَيِّنَةٍ، هَذَا الْقُـرْآنِ الَّذِي تَعْجِزُونَ أَنْتُمْ وَالْأُمَمُ وَسَـائِرُ الْعَرَبِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَهُوَ بِلُغَتِكُمْ، فَهُوَ حَجَّةٌ بَيِّنَةٌ عَلَيْكُمْ»[1].

تفصيل القول

في سياق الآيات الكريمة التي بَيَّن القرآن من خلالها قصص الأمم الماضيـة التي تعرَّضت للعذاب والهلاك، ينبري سـؤال: لماذا لا يُكْرِهنا الله عز وجل -وهو القادر المطلق- على السير على الصراط المستقيم؟.

والجواب هو: أنه تبارك اسـمه لا يُريد لنا الصلاح بوسيلة الجبر والإكـراه، لأنه قد كَرَّمَ الإنسـان من قبلُ بأن جعله كائنـاً حرًّا مريداً.. وهـذا ما يفهم من قوله العزيـز: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إذ الله تعالى كتب للإنسـان أن يكون مختاراً، وهذه الكرامة هي التي تمنع أن يُجبر الإنسان على أن يكون صالحاً أو طالحاً.

وقد أتبع سـبحانه وتعالى هـذه الكرامة بكرامة أخرى، وهي أنه بعث للناس من ينذرهم ويُخوِّفهم عذاب الرَّبِّ القدير.

أقـول: إن كل حصر لا بد أن يكون له جانبان؛ جانب الإثبات، وهو ما يذكر معه وفيه، وجانب النفي الذي يفهم من دليل الاقتضاء..

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري، ص٤٣٠.

ولكن؛ ما الذي ينتفي بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؟

يبدو أن ما ينتفي هو إجبار الإنسان على الإيمان. فلم يجئ الرسول إليه يُهدِّده بحراب يحملها أو قوة تنفيذية مُزوَّد بها ليُنفِّذ بها أوامر الله.. كل ذلك منتفٍ؛ لأن أساس بعثة الأنبياء قائم على مخاطبة الضمير الإنساني وإحياء الفطرة التي ران عليها الجهل والغفلة، ومن ثَمَّ إثارة العقل، ثم توجيهه الوجهة الصحيحة القويمة، ودفعه -وليس إجباره- إلى استهداف الكمال والتوسُّل بكرامة الحرية والإرادة.

كان ذلك كله لأنه تبارك وتعالى على علم مسبق بأنه لو أكره الإنسان على اختيار الكمال، مع وجود الغرائز والشهوات في ذاته، لأصيب بالتهافت والاضمحلال وتلاشي قواه، إذ لن يكون حينذاك ملكاً مجرداً عن الشهوة تابعاً صرفاً للحق، ولا حيواناً مجرداً عن العقل مهمته الحفاظ على ذاته وتكميل دورة البقاء.. والنتيجة أنه بالإكراه يتحطم داخليًا ويتناقض خارجيًا.

ولكن الإنسان بما هو مزوَّدٌ به من شهوة جامحة وعقل كابح، إن استغله يتكامل بالحرية والتوجيه.

أما الخطاب الإلهي: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فيدل على أن كلام الله غير مخصوص بقوم دون قوم، أو منطقة دون أخرى، بل هو خطاب للكل وفي جميع الأحوال؛ لأن الإنسان بما هو إنسان مُراد بهذا الخطاب ومحكوم بهذه السنة.

ثم قال ربنا سبحانه ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ﴾.

ومعروف أن ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر. أما كلمة ﴿أَنَا۠﴾، فتعني أن

السبب من بعثتي الإنذار. مما تدل على أن للنبي شخصية واضحة، لا لبس فيها، ولا ينبغي أن تحوم حولها شكوك النسب والنزاهة والعلم وغير ذلك مما يشترط في بعثة المبعوث.

﴿لَكُمْ﴾ اللام لام المنفعة، وتحقيق الهدف الموازي لطبيعة النفس الإنسانية المختارة، ﴿نَذِيرٌ﴾ رغم أن الأنبياء وأسماهم خاتم الأنبياء ﷺ مُنذِرون، فهم مُبشِّرون أيضاً. مُنذرون بالسخط والعذاب، ومُبشرون بالخير والسعد.. إلّا أن ما ورد في القرآن عن الإنذار أكثر منه عن التبشير، كما ورد في شدة النهي عن المنكر أكثر منه عن الأمر بالمعروف؛ لأن أزمة الإنسان الكبرى هي الانحراف عن جادة الحق، فهو بحاجة أكبر إلى الإنذار، فإذا اتَّعظ بالإنذار وسار ضمن صراط الله، احتاج إلى التشجيع بوسيلة التبشير بالسعادة الأبدية.

» إن الخطاب الإلهي غير مخصوص بقوم دون قوم، أو منطقة دون أخرى، بل هو خطاب للكل وفي جميع الأحوال؛ لأن الإنسان بما هو إنسان مُراد بهذا الخطاب ومحكوم بهذه السنة.

والإنذار النبوي –بطبيعة الحال– ليس تهديداً بقدر ما هو إشفاق وتوعية وتهذيب. فالتهديد قد يصدر من المُتحدِّث باعتباره مصدره، بينما الإنذار يتبع طبيعة عمل المُنذِر دون أن يكون النذير هو مصدره. مثلاً الطبيب لا يُهدِّد المريض، بل يُنذره. بينما الحاكم قد يُهدِّد الشعب.

أما كلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ فهي تدل على أن أهم صفة في المُنذِر أن يكون واضحاً مُصرِّحاً بالحقائق كلها بلا نقص أو تزوير أو خشية من الطغاة والمتنفذين في المجتمع.

إن مسؤولية الأنبياء تتفاوت في جوانب منها عن مسؤولية

الفقهاء أو حتى بعض المؤمنين الحريصين على المصلحة الإنسانية؛ إذ هؤلاء يجوز لهم -ضمن أحكام مُحدَّدة- استعمال التورية والتقية كما قال ربُّنا العزيز مخاطباً أفراد المؤمنين: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[1].

لكن الأنبياء بُعِثُوا بالإنذار الصريح، وقد التزموا لأداء هذه المهمة بالتوكل التام على رَبِّ العزة والقوة، والله يُؤيِّدهم بألوان التأييد والرفد.

* * *

بصائر وأحكام

١ - لقد كَرَّمَ الله سبحانه الإنسان بأن جعله كائناً حرًّا، وهذه الكرامة اقتضت عدم جبره على أن يكون صالحاً أو طالحاً.

٢- بعثة الأنبياء قائمة على مخاطبة الضمير الإنساني، وإحياء الفطرة التي ران عليها الجهل والغفلة، ومن ثم إثارة العقل، ثم توجيهه الوجهة الصحيحة وباتِّجاه الكمال.

٣-لأن أزمة الإنسان الكبرى هي الانحراف عن جادة الحق، فهو بحاجة أكبر إلى الإنذار، فإذا اتَّعظ بالإنذار وسار ضمن صراط الله، عند ذاك إحتاج إلى التشجيع بوسيلة التبشير.

(١) سورة آل عمران، آية ٢٨.

مغفرة ورزق كريم

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. قال: «أُولَئِكَ آلُ مُحَمَّدٍ عليهم السلام»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَكْمِلَ الْإِيمَانَ كُلَّهُ فَلْيَقُلِ: الْقَوْلُ مِنِّي فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ قَوْلُ آلِ مُحَمَّدٍ، فِيمَا أَسَرُّوا وَمَا أَعْلَنُوا وَفِيمَا بَلَغَنِي عَنْهُمْ وَفِيمَا لَمْ يَبْلُغْنِي»[2].

---

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢٣، ص٣٨١.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٣٩١.

ورُوِي عن طاووس، عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: «وَاللهِ لَا يَنْفَعُكَ غَداً إِلَّا تَقْدِمَةٌ تُقَدِّمُهَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ»[1].

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعاء له: «اللَّهُمَّ وَفِّقْنِي لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ تَرْضَاهُ عَنِّي، وَيُقَرِّبُنِي إِلَيْكَ زُلْفَى»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ أُعْطِيَ الاسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ المَغْفِرَةَ»[3].

تفصيل القول

لقد بعث ربُّنا سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم السلام بالإنذار أولاً، ثم إبلاغ الناس بأن للذين آمنوا وصَلُحَتْ أعمالهم مغفرةً ورزقاً كريماً.

صحيح أن الإنذار ذا طابع سلبي يُراد منه التخويف، إلَّا أن الحديث عن المغفرة والرزق الكريم يلحقه؛ لأن رحمة الله تعالى قد سبقت غضبه، ولأنه أرحم الراحمين، فهو واسع الرحمة ودائم الرحمة.. ولأن الناس يقعون في الخطيئة شاؤوا أم أبوا، أقروا أم أنكروا، ولكن الأهم هو ضرورة الخروج عن نطاق الخطيئة والعودة إلى رحاب التوبة والاستغفار، حيث يجد الله توّاباً رحيماً، مُبدِّلاً سيئاته حسنات.. وهذا يعني أن الإنذار النبوي دَفْعٌ حثيث إلى الإنطلاق نحو العمل الصالح، والتوبة بحد ذاتها وجه واسع من وجوه العمل الصالح، حيث يطرد المرء عن نفسه اليأس والخمول والانكماش.. وله إزاء ذلك رزق

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٨٢..

(٢) الصحيفة السجادية، دعاء رقم ١٢٣.

(٣) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٤١.

كريـم؛ أي يتفضَّـل عليه بكرامة في جميـع الجوانب الحياتيـة، وفي جميع مراحل وجوده الدنيوي والبرزخي والأخروي، فهو مُبارك مُضاعف عليه في كل حين.

***

بصائر وأحكام

الإنـذار النبوي دفع حثيث إلى الانطـلاق نحو العمل الصالح، وبـه يطرد المرء عن نفسـه اليأس، وله إزاء ذلـك رزق كريم في مراحل حياته جميعاً.

أولئك أصحاب الجحيم

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّ الظَّلَمَةَ جَحَدُوا آيَاتِكَ، وَكَفَرُوا بِكِتَابِكَ، وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنْ عِبَادَتِكَ، وَرَغِبُوا عَنْ مِلَّةِ خَلِيلِكَ، وَبَدَّلُوا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُكَ، وَشَرَعُوا غَيْرَ دِينِكَ، وَاقْتَدَوْا بِغَيْرِ هُدَاكَ، وَاسْتَنُّوا بِغَيْرِ سُنَّتِكَ، وَتَعَدَّوْا حُدُودَكَ، وَسَعَوْا مُعَاجِزِينَ فِي آيَاتِكَ.. (إلى أن قال عليه السلام:) اللَّهُمَّ وَانْتَقِمْ مِنْهُمْ، وَاصْبُبْ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ، وَاسْتَأْصِلْ شَأْفَتَهُمْ، وَاقْطَعْ دَابِرَهُمْ، وَضَعْ عِزَّهُمْ وَجَبَرُوتَهُمْ، وَانْزَعْ أَوْتَادَهُمْ، وَزَلْزِلْ أَقْدَامَهُمْ، وَأَرْعِبْ قُلُوبَهُمْ»[1].

(١) الصحيفة السجادية، دعاء رقم ١١٩.

تفصيل القول

١ - ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾

الكافرون والمنافقون الذين يتحرَّكون وينشطون ويعملون، لهم هدف مُحَدَّد ومسير معين؛ فهم لا يكلّون ولا يملون، ما دامت أنفسهم الأمّارة بالسوء، ومادام الشيطان، ومادامت المصالح الدنيوية تدفعهم إلى تلبية رغباتها.

٢ - ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾

الناس تجاه آيات الله صنفان؛ فهناك مَنْ هم منغلقون فكريًا وسلوكيًا إزاء الآيات، ثم تراهم يتحدونها ويُحاولون بكل ما أُوتوا من قوة منع تأثيرها في أنفسهم أو في المجتمع المحيط بهم.. وهؤلاء هم الجاحدون بها. وصنف آخر، ينفتح على الآيات، ويتجاوب معها، وهم المؤمنون بها وبربهم، باعتبار أن الآيات تُوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

ولا ريب في أن من الآيات الربانية ما هي ظاهرة، مثل السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك.. ومنها المكتوبة، وهي آيات القرآن، ومنها الآيات الناطقة والمتمثلة في الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ومَنْ سار على دربهم من العلماء الربانيين. ومَنْ لا يؤمن بهذه الآيات يعجز عن الإيمان بالله عز وجل، باعتبار أنه قد كفر بما يدله عليه سبحانه وتعالى.

٣ - ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾

المُعَاجَزَة من المفاعلة، مثل: كلمتي مواجهة ومقابلة، وهي تدل

على أن في البين طرفين، كل طرف يسعى إلى تعجيز الطرف الآخر؛ حيث يجهد لإيصال الخصم إلى طريق مسدود، ليُعلن هزيمته في نهاية المطاف. وهذه المحاولة الباطلة حالة يصف بها الله تعالى سعي المعاندين لآيات الله لتبرير جحودهم بالآيات. فالجاحد يسعى حثيثاً ليُعجز الآيات، وليصرعها ويهدمها.. فهو يتألّب ضد أن يتمكن المؤمنون من تذكير الناس بربهم -مثلاً- عبر الآيات الربانية الظاهرة، كما يتهالك لإخماد نور الآيات القرآنية، وإلصاق تهم الكذب أو السخرية بها، أو يكايد مع أقرانه لتصفية النبي والأئمة عليهم السلام جسديًا أو معنويًا. وهكذا يفعل بالعلماء والداعين إلى الحق.

ولعل أبرز مصداق لذلك في التاريخ الإسلامي الأول سعي أعداء أمير المؤمنين عليه السلام في إشعال الحروب ضده وضد أتباعه المؤمنين، وكذلك تكالب أتباع بني أمية على قتل الإمام الحسين عليه السلام، حيث لم يتركوا موبقة وجريمة إلّا وارتكبوها ضد شخصه، وضد نهجه، وضد من يَمُتُّ إليهما بصلة.

وهذه المُعاجَزة، تعود -في الحقيقة- إلى نمط تفكير الكافر والمنافق وطبيعة الدوافع الروحية لهما.

ويبقى سؤال: لماذا هذا التحدي وهذه المُعاجزة تجاه الآيات الإلهية؟

أولاً: لأن الآيات ذات أثر بالغ القوة في أنفسهم والمجتمع المحيط بهم. فهم يسعون جاهدين لمنع ذلك الأثر، وقد قال ربنا سبحانه حكاية عنهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.[1]

فكانت الآلهة المزيفة تكاد تنهار لو لا صبرهم عليها.

(١) سورة الفرقان، آية ٤٢.

ثانياً: إن الكافر بالآيات لا يسعه التهرُّب من وجدانه، ولدى مواجهته لنفسه اللوامة ولضميره يقف أمام مفترق طريقين لا ثالث لهما؛ فإما أن يعود إلى جادة الحق، فيتوب ويؤمن، وإما أن يتمادى في الشر والجحود.. والموقف الذي تبنّاه هؤلاء هو الثاني، فلذلك كانوا يحاولون أبداً مجاهدة أنفسهم ومواجهة ضمائرهم، وهذا الموقف انعكس في تعاملهم مع آيات الله الناطقة، حيث المزيد من العداء واقتراف الجرائم، والإيغال في اتّخاذ المواقف المعادية. وكما قد يُصاب البعض من الناس بهذه الحالة المُزرية، إذا ما فَضَّل الرُّكون إلى رغباته وشهواته على أن يتدبر الآيات ويعي حقائقها.

ثالثاً: وهذا الصراع الأبدي بين آيات الله على مختلف المستويات (آيات الخليقة - آيات القرآن - الآيات الناطقة) يجعل الكافر في جهد دائم وبائس، بل وعذاب مستمر قبل أن يواجه عاقبته السوءى في نار جهنم.

٤- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

لقد حكم الكافر على نفسه بأن تكون عقباه الجحيم، وذلك منذ أن اتّخذ قراره بإعلان الحرب ضد آيات الرَّبّ، والله سبحانه وتعالى إنما بَيّن هذه النتيجة المأساوية للكافرين والمنافقين، تحذيراً منه عز وجل لعامة أولاد آدم لكيلا يتركوا آياته وراء ظهورهم، وكذلك دعوة إلى التدبر في آيات القرآن المجيد، وإلى معرفة النبي والإمام عليهما السلام معرفةً تُنجي الإنسان من الوقوع في الضلال.

بلى؛ إن أصحاب الجحيم يستحقونها، بل ويدخلونها وإن كانوا لمّا يخرجوا من الدنيا؛ لأن الله تعالى قال في موضع قرآني آخر:

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]، لأنهم أينما يُولون وجوههم، يجدون أسباب العذاب.

* * *

بصائر وأحكام

١ - النفس الأمّارة بالسوء والشيطان والمصالح الدنيوية، كلها تدفع الكافرين والمنافقين إلى الاستمرار في تحدّي الآيات.

٢ - لا يسع الكافر التهرب من وجدانه، ولدى مواجهته لنفسه اللوامة ولضميره يقف أمام مفترق طريقين لا ثالث لهما؛ فإما يعود إلى جادة الحق فيتوب ويُؤمن، وإما يتمادى في الشر والجحود، فيُواجه وجدانه باستمرار في صراع دائم وعذاب واصب.

٣- وبإعلان الكافر حربه ضد آيات الرَّبِّ، فإنه حَكَمَ على نفسه بأن يكون من أصحاب الجحيم، ليس في مستقره النهائي فقط وإنما الآن أيضاً.

(١) سورة العنكبوت، آية ٥٤.

ويسنخ اللّه ما يلقي الشيطان

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَيَذْكُرُ جَلَّ ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله مَا يُحْدِثُهُ عَدُوُّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾».

يَعْنِي: أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ تَمَنَّى مُفَارَقَةَ مَا يُعَايِنُهُ مِنْ نِفَاقِ قَوْمِهِ وَعُقُوقِهِمْ وَالانْتِقَالِ عَنْهُمْ إِلَى دَارِ الإِقَامَةِ، إِلَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ الْمُعْرِضُ

لِعَدَاوَتِهِ عِنْدَ فَقْدِهِ فِي الكِتَابِ[1] الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ذَمَّهُ وَالقَدْحَ فِيْهِ وَالطَّعْنَ عَلَيْهِ، فَيَنْسَخُ اللهُ ذَلِكَ مِنْ قُلُوْبِ المُؤْمِنِيْنَ، فَلَا تَقْبَلُهُ وَلَا تُصْغِيْ إِلَيْهِ غَيْرَ قُلُوْبِ المُنَافِقِيْنَ وَالجَاهِلِيْنَ. وَيُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ بِأَنْ يَحْمِيَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالعُدْوَانِ، وَمُشَايَعَةِ أَهْلِ الكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، الَّذِيْنَ لَمْ يَرْضَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالأَنْعَامِ حَتَّى قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾»[2].

تفصيل القول

من عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى وفضله وإحسانه، أنه لم يدع الإنسان يتخبَّط في الظلمات؛ ظلمات الجهل والغرور، كما لم يجبره على الهدى، وإنما كَرَّمه، فجعله مخلوقاً حرًّا في اختيار سبيل الهدى أو يقع حيث الضلال والرَّدى.

ولذلك، فقد أرسل الله الرسل والأنبياء وأنزل معهم الكتب الشريفة، ليحثوا الناس على اختيار سبيل الرشاد المنتهي إليه عز وجل، وقد جعل الرسل والأنبياء رجالاً معصومين عن الخطأ، كما بَيَّنَ الوحي كل ما يحتاج إليه الإنسان من أجل سدِّ الثغرات التي قد ينفذ من خلالها الشيطان إلى قلب هذا الإنسان.

ولقد بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى في الآية السالفة أن الثغرة الأولى التي قد ينفذ منها إبليس إلى قلبه هي اتِّخاذ موقف التحدي للآيات القرآنية، ليُفنِّدها بعد أن يُحجم عن استقبالها بقلب متفتح، فيسعى مُعاجزاً لها ومشمِّراً ساعد الصراع لمحاربتها.

(١) لعل المعنى أنه ألقى في الكتاب بعض شبهاته وتحريفاته.
(٢) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٣٨٣.

وثغرة أخرى طالما حُذِّر الإنسان منها، وهي محاولة تحريف الكلم عن مواضعه. وهذه المحاولة انعكاس صريح لمرض النفاق المُتكرِّس في قلب المُعادي للقرآن والرسول. وكم هو فضيع ابتلاء البشرية عبر التاريخ بهؤلاء المُحرِّفين لتعاليم السماء، وما ينجم عن عملهم البائس هذا، من تأويل باطل للوحي، أو إضافة خاطئة إليه، أو انتقاص مريب لبعض ما فيه، حتى وقعت البشرية دوماً ضحية هذه العملية المُتعدِّدة الجوانب (تحريفاً أو إضافة أو حذفاً).

ولعل فلسفة وجود هؤلاء المناوئين للأنبياء والرسل، وهؤلاء المسؤولين عن عمليات التحريف، ابتلاء الناس وامتحانهم، إذ كان من الضروري للناس أن يُميِّزوا بين الغثِّ والسمين قبل اتِّباعهم لحديث الحق أو لحديث الباطل.

والآية المباركة -مورد التدبر- من جملة الآيات المتشابهات التي لا بد من إعمال الدقة في فهم تفاصيلها، للخروج منها بنتائج مقبولة تُساعد على تكريس روح الإيمان في القلب.

١ - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾

فالنبي الخاتم ليس بدعاً من الرسل، وإنما هو امتداد لهذه السُّنة الربانية، والمتمثلة في كرامة الإنسان بالرسل، وعدم ترك البشرية في الفوضى، وفي ظلمات الضلال سادرين.

بلى؛ إن خاتم الأنبياء يمثل ذروة التواصل بين وحي الله والبشرية، وليست مهمات الأنبياء والرسل السابقين إلّا تمهيداً لنبوته ﷺ، ولو لم يكن هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كان من المناسب أن تُضاف عبارة أخرى، مثل: بعدك، بعد كلمة ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾.

وعملية التمهيد لنبوة رسـول الله ﷺ بواسـطة بعثة عشرات الآلاف مـن الأنبياء والمرسـلين، إنـما هي نعمة إلهيـة مُوجَّهة إلى عقول ونفوس الناس الذين سيُكلفون باتِّباع النبي الخاتم والُمصدِّق لمن قبله.

٢- ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

يبدو أن الرسول هو من يُكَلَّف بالبلاغ، بينما النبي هو من يتلقَّى الوحي بنفسه ولنفسـه. ونبينا ﷺ قـد جُمِع لـه كِلَا الشَّرفين، فصار خاتـم الأنبياء وسـيد المرسـلين، وهـو الأقـرب إلى الله تعـالى، قبل أن يُكَلَّف بالنبوة والرسالة.

والله عز وجل أراد بهذا التعبير الشمولي تبيين حقيقة هامة ترقى إلى مستوى السُّنن الإلهية في عباده. وهي:

٣- ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾

مـاذا تعنـي كلمـة ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾؟ وما هـي الأمنيـة التي يتمناهـا النبي والرسول، خصوصاً وأن شخص النبي والرسول معصوم عن الخطأ، وله اليقين بالحق، ولا شك لديه أبداً ومطلقاً فيما يُوحى إليه أو يُكَلَّف به؟.

نقول بهذا الصدد:

أولاً: إنّ الآيـة لا تُشـير إلى أن جميع الأنبياء والمرسـلين يتمنون، فمنهم من لم يتمنَّ فلم يُلقِ الشيطان شيئاً تجاهه. ذلك لأن الآية ذكرت أنه إذا تمنى.

ثانيـاً: إنّ بعـض المفسِّريـن اعتمـدوا معنىً لغويًّـا للتمني، وهو القـراءة. حيث قالوا: فلان تمنّى؛ أي قرأ، مستشـهدين ببعض الأبيات الشعرية، فيكون المعنى: أنه ما من نبي من الأنبياء، ورسولٍ من الرسل

إذا تلا (قرأ) بعض النصوص الإلهية المُقدَّسة على الناس لتبيين أحكام شرعهم، إلَّا وحاول شياطين الإنس والجن تحريف تلك النصوص، متناً أو معنىً. فالإلقاء إذاً، محاولة شيطانية للتغيير في النص المُقدَّس.

وحيث لم نجد شهرة لغوية لمعنى القراءة في لفظة التمني، فإننا نشك في هذا المنحى من التفسير؛ وذلك لأن آيات القرآن يُصدِّق بعضها بعضاً، حيث إن القرآن المجيد لم يستخدم الأمنية بمعنى القراءة في الآيات الأخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾(1).

ثالثاً: لأن التمني هو طلب حاجة ما، يأتي سؤال: هل يجوز للنبي أن يتمنى شيئاً في النص المُقدَّس؟. وما هي طبيعة ذلك الشيء؟.

لعل الجواب: أن النبي ﷺ شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء المعصومين، كان يتمنى هداية الناس، ووصولهم إلى الخير؛ لأنه يحبهم ويحرص عليهم، ولأنه كان يعرف أبعاد العذاب الإلهي وشدته، فكان يتمنى ألَّا يُبتلى به أحد أبداً.

أما الشيطان؛ فإنه يتحرَّك بالاتِّجاه الآخر، حيث التهالك في إبعاد الناس عن النبي وتفنيد أمنيته إلى هدايتهم. فهنالك إذاً أمانٍ مُتضادة.. حيث يعمد الشيطان إلى إفساد أمنية النبي. فإذا كانت أمنية النبي هداية الناس، فإن إلقاء الشيطان إضلالهم، ولكن الرَّبَّ لا يدع الشيطان يُفسد حجته.

٤- ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾

النسخ هو المحو، فيمحو الله أمنية الشيطان وطموحه في إضلال

(1) سورة البقرة، آية ٧٨.

جميع الناس. بمعنى أن المنتصر في نهاية المطاف هو الوحي. وأبرز مثال هـو المسـاعي الشـيطانية التـي بذلها اليهـود عبر التاريخ ضد شـخص الرسول المصطفى ﷺ، تلك المساعي التي كانت لتبيد أدنى أثر لأي شخص، مهما علت مرتبته، ومهما كثر أتباعه.

٥- ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

إلَّا أن يـد الله هـي فـوق أيديهـم، وإذا بذكر النبـي ﷺ يزداد علوًّا، وتُنسخ كل المساعي الشيطانية، حتى أنك لتجد العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه يستبشرون لمجرد سماعهم لاسمه ﷺ.

ومثـال آخـر: الإرادة الربانيـة التي حفظت للأئمـة المعصومين عليهم السلام ذكرهم الرفيع رغم الحرب الشعواء ضدهم ورغم فتاوى علماء البـلاط القاضيـة بقتلهم، ومن ثم بهدم قبورهـم والنصب لأتباعهم.. وذلك لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى قضت بأن يُحْكِمَ آياته. وأيّة آيات أكبر من النبي وأهل البيت سلام الله عليهم أجمعين؟.

فـالله تعالى لـه علمه ولـه حكمتـه القاضية بإعلاء ذكـر ومنهج النبـي وآل بيتـه الطيبيـن الطاهريـن، وهي أنه قـضى بأن يُظهر دينـه على الدين كلـه ولو كره المشركـون.. ويظهـر الديـن ويسـتولي بظهور رجالـه واسـتيلائهم عـلى إلقاءات الشـياطين وأمانيهـم الباطلة.

» ما من نبيٍّ، ورسولٍ إذا تلا بعض النصـوص الإلهيـة علـى الناس لتبيين أحكام شرعهم، إلَّا وحاول الشياطين تحريف تلك النصوص، متنـاً أو معنىً. فالإلقاء إذاً، محاولة شيطانية للتغيير في النص المُقدَّس.

* * *

بصائر وأحكام

١ - من عظيم رحمة الله وفضله وإحسانه أنه لم يدع الإنسان يتخبط في ظلمات الجهل، كما لم يجبره على الهدى، وإنما كَرَّمه فجعله مخلوقاً حرًّا في اختيار سبيل الهدى أو الوقوع في مهاوي الردى.

٢ - وإن حكمة وجود المناوئين للأنبياء والرسل، والمتهالكين في تحريف رسالات الله، هو ابتلاء الناس وامتحانهم؛ إذ كان من الضروري للناس أن يُميِّزوا بين الغثّ والسمين قبل اتِّباعهم لحديث الحق أو الباطل.

٣- إنّ المنتصر في نهاية المطاف هو وحي الله سبحانه وتعالى ومن يمثله على الأرض؛ لأن الله يمحو أماني الشيطان وطموحاته في إضلال الناس.

وإن الظالمين لفي شقاق

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «اللّهُمّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّي وَالتَّظَنِّي وَالحَسَدِ ذِكْراً لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّراً فِي قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيراً عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةِ فُحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شَتْمِ عِرْضٍ أَوْ شَهَادَةِ بَاطِلٍ أَوِ اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نُطْقاً بِالحَمْدِ لَكَ، وَإِغْرَاقاً فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَاباً فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْراً لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافاً بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءً لِمِنَنِكَ»[1].

(١) الصحيفة السجادية، من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال.

تفصيل القول

بعـد أن يُحْكِمَ الله آياته، ومن آياته سـبحانه أولياؤه من الأنبياء والأئمـة عليهم السلام، وينسـخ مـا يُلقـي الشـيطان في أمنياتهـم وتلاواتهـم لنصوص الوحي المقدس؛ فإن هذا النسخ الإلهي لوسـاوس الشيطان يأخـذ صـورة أخرى، حيث يجعلهـا الرَّبُّ تعالى فتنـة للذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون وناصبـوا الأذى لأئمة الحق والهدى وأتباعهم، وكذلك للقاسـية قلوبهم، وفي مقدمتهم اليهود وهم الأشد عداوة من بين أهل الكتاب للمؤمنين.

وحيـث لا يرعـوي هـؤلاء لكل كلـمات الإنذار، فإنهم سـوف يُفضحـون وتنكشـف سرائرهـم، كما ينكشـف مكرهم بالرسـالة من قبيل إيذاء الرسـول الأعظم صلى الله عليه وآله في أهـل بيته الطيبين الطاهرين وفي شيعتهم المؤمنين.

وحيث يسـقط مرضى القلوب والقاسية قلوبهم في الفتنة، فإن عنوان الظلم يصدق عليهم، وسوف يُعانون من تبعات ذلك ويبلغون الغايـة في النَّصَـب والتَّعَب، وتضيع سـعادة الدارين مـن أيديهم.. فلا يفلحون أبداً.

والظالم حين ينفلت عن إطار الحق فسوف يُنبذ بعيداً عن الحق. فلا يُفكر أحد أنه لو خالف الدين وعارض الرسـول فسوف يبقى على مقربة منها، فإذا رغب في العودة وُفِّق لها. كَلَّا؛ إنه سوف يُصبح في شقاق بعيد، حتى لا يبقى فيه أثر من الرسالة، ولا بقية من الهدى، والعياذ بالله.

* * *

بصائر وأحكام

حين يقع مرضى القلوب والقاسية قلوبهم في الفتنة، عند ذاك فإن عنوان الظلم يصدق عليهم.

إنّه الحق من اللّه

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَ وَزِيرُ الإِيمَانِ الْعِلْم»[1].

وقال ﷺ: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ؛ عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَاكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ فِي اللِّسَانِ فَذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى الْعِبَادِ»[2].

(١) قرب الإسناد، الشيخ الحميري القمي، ص٦٨.

(٢) معدن الجواهر، الشيخ أبو الفتح الكراجكي، ص٢٥.

تفصيل القول

١ - ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

امتدت أيادي التحريف إلى كتب السماء؛ تارة إلى متونها، وأخرى إلى تفسيرها وتأويلها، إذ تعرَّضت حقائق الرسالة للاختطاف من قبل المنافقين.. والسبب في ذلك أن الدنيا دار فتنة وابتلاء، حيث لا بد أن يُمتحن الناس؛ شاؤوا أم أبوا؛ فيسقط الذي في قلبه مرض، ويتهاوى أولو الشكوك والقسوة.. أما المؤمنون المتسلحون بالعلم، فيبقون صامدين كما الجبل، بل ويسمون إلى حيث الحقيقة الربانية والفوز والصلاح.

فكما أن الفتنة كانت سبب سقوط أناس، كذلك الفتنة كانت السبب في تسامي آخرين، فازدادوا إيماناً.. وهكذا الناس بعد الامتحان ليسوا كما كانوا قبله؛ ففريق يتهاوى، وفريق يزداد سموًّا.

فهي إذاً؛ المعادلة الصعبة، إذ القاسية قلوبهم يركسون في الفتنة، أما الذين أوتوا العلم وعرفوا الحكمة التي رسمها الله سبحانه للحياة، فلا مجال للشك إلى قلوبهم.

وهذا -في حقيقة الأمر- يتبع نوعين من الإيمان، فثمة إيمان مستقر يزداد نضوجاً بتوالي الفتن وتغير الظروف، وثمة إيمان مستودَع سرعان ما يفرط به صاحبه؛ لأنه رهين ظروف خارجية، فإذا تغيَّرت فَقَدَ هذا الإيمان.

والإيمان المستقر إيمان راسخ في القلب، ويطفح على اللسان، ويتجلَّى في الأركان، ويعمُّ كل نواحي السلوك، حتى يستولي على كيان

الإنسان. وعكسه تماماً الإيمان المستودَع الذي لا يمسُّ الإنسان إلَّا مسًّا ظاهراً.

وعليه، فإن الفتنة التي تحدثت عنها الآية السابقة، وكانت سبباً لسقوط القاسية قلوبهم في الويل والعذاب، كان دافعاً لتكريس الإيمان في قلوب المخبتين.

٢- ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾.

الذين قال الله تعالى عنهم في مناسبة أخرى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(1).

و(الإخبات) درجة لا يحصل عليها المرء إلَّا أن يمر بامتحان صعب، فيثبت فيه فيصبح مُخبِتاً. بمعنى أن المؤمن لا يكون مُخبِتاً إلَّا أن يقتحم العقبة ويتجاوزها بمخالفته لهواه، وإطاعته لأمر مولاه.

وإنّ من يصل إلى درجة الإخبات، ليعلم إن مصدر الحق من الله تبارك وتعالى دون غيره؛ أي لا يمكن للشيطان، أو النفس الأمارة بالسوء، أو النفوس المحجوبة بالشهوات.. أن تكون مصدراً للحق، وإنما هو حقٌ مطلق بيّنه الله للناس، وليس هناك طرق متعددة لاستلهام الحق، وإنما هو سبيل واحد وباب واحد، تماماً كما قال نبينا الأكرم ﷺ: «أَنَا مَدِيْنَةُ العِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا»(2). حيث حدَّد باباً واحداً فقط لتلقِّي العلم، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، فلا توجد أبواب متعددة.

وهؤلاء الذين أوتوا العلم، مؤمنون في واقع الأمر، ولكن

---

(1) سورة الحج، آية ٣٤ - ٣٥.
(2) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٤٢٥.

حيث يعلمون ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يزدادون إيماناً، نظراً إلى أن للإيمان درجات.

وتبدو هنا الدعوة واضحة دون لبس إلى المؤمنين ألَّا يقتصروا على مستوى دانٍ من الإيمان، بل عليهم أن يتطلَّعوا أبداً إلى الارتفاع بنوع إيمانهم.

ونستفيد من هذا السياق بصيرة هي فرق الإيمان عن العلم، أن الأول هو التسليم للثاني؛ أي تسليم القلب للعلم، انطلاقاً من تسمية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للإسلام في كلمة شريفة مفصلة، حيث قال: «لَأَنْسِبَنَّ الإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي؛ الإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ..»[1].

٣- ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ينبغي للإنسان المؤمن أن يعرف أنه لم يبلغ درجة من الإيمان؛ دانية كانت أو عالية، إلَّا بفضل الله سبحانه وتعالى.

حيث إنه أولاً يحصل على مقدمات الإيمان بالتوكل على الله تعالى، وأيضاً بفضله سبحانه حيث وهب له الإرادة والمشيئة وأعطاه من الإمكانات الكثيرة ما هيَّأ بها تلك المقدمات. أما النتيجة بعد المقدمات، فإنها تأتيه هي الأخرى من عند الله المتعال أيضاً.

ولنضرب مثلاً: الفلَّاح يُهيِّئ الأرض ويزرعها كمقدمة لجني الثمار، ولكن كيف قدر على التهيئة والزرع؟ أوَلَيس بفضل الله؟ بل ثُمَّ إن إيناع الثمرة وخروج النبتة من الأرض، لا مدخلية للزُّرَّاع في

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٢٥.

تحققهـا، إذ أملاح التربة والغيث والشـمس والريـاح اللواقح.. كلها من فضـل الله وتدبيره، حيث يقول الرَّبُّ سـبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1].

فكـما أن ثمـرة النبات تصدر عـن فضل الله وقدرتـه ومالكيته، كذلك الهداية إلى الصراط المسـتقيم، التي هي نتيجة الإيمان، والارتقاء بمستوى الإيمان درجةً بعد أخرى إنما تتحصَّل من الله سبحانه وتعالى.

ذلك لأن ابن آدم يُواجه دوماً موجات من الوساوس، وتعترض مسـيرته ضغوط هائلة.. فلا مناص من التوكل على الله في تحديها، بينما غـير المؤمن بـالله تعالى فأمره كان فُرُطاً؛ لأنّه يصبح في مهب وسـاوس النفس وضغوط الحياة، فتراه كل يوم في اتّجاه، لأنه يفتقر إلى آلية تحديد الحـق وإلى قوة العمل بـه.. فهو غافل قلبه بما أغفله الله السـاخط عليه لظلمه نفسـه، حتى لتراه مشـوش الذهن، مضطرب النفس، لا يهتدي بنور، ولا يركن إلى قوة.. والفرق بينه وبـين المؤمن يتركَّز تماماً في هذه النقطـة؛ لأن المؤمن اختار رضـا الله إطاراً لمواقفه، والله هداه إلى صراط مسـتقيم، ويتضاعـف حفظ الله له خلال قطعه شـوط الاسـتقامة كلما أصرَّ عـلى مواصلـة الطريق للبلوغ إلى نهاية المطـاف؛ أعني رضوان الله الأكبر.

ثم العقل وعاء العلم، فمن غلَّب عقله الواعي للعلم، وهبه الله نوراً وهّاجاً يهديه إلى سـبل السـلام وصراط الله المسـتقيم، ولا سيما في مواقع الشبهة، وما أكثرها.

وهـذا يعنـي أن ثمة إلهامـاً يحظى به المؤمن من عند الله سـبحانه

(١) سورة الواقعة، آية ٦٤.

وتعالى، يدلُّه على صائب الخيارات.

بلى؛ إن هذا المقطع من الآية الشريفة عبارة عن جملة اسمية، والجملة الاسمية تمتاز بكونها أشد تأكيداً وثباتاً، قياساً بالجملة الفعلية، لما لهذه الأخيرة من تحوُّلات زمنية.

بمعنى أن الله قد كتب على نفسه وعداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾[1] مؤكَّد الوقوع قاضياً بهداية الذين آمنوا.. ولكن إلى أيّة وجهةٍ يا ترى؟

إنها الوجهة المتمثلة بالصراط المستقيم، وليس الصراط المستقيم سوى القرآن الكريم وحملته الكرام؛ أي أن التمسك بالقرآن وحامليه نعمة ربانية عظمى، بل هي النعمة الربانية الأعظم، من بين نعم الله تعالى على الإنسان المؤمن، الحثيثة جهوده في إطار السمو بإيمانه.. وأن يجد المرء نفسه مهدياً إلى الصراط المستقيم؛ يعني كونه قد بلغ الغاية في الإيمان والعلم والهداية.

« إن الناس بعد الامتحان ليسوا كما كانوا قبله؛ ففريق يتهاوى، وفريق يزداد سموًا. وهي المعادلة الصعبة، إذ القاسية قلوبهم يركسون في الفتنة، أما الذين أوتوا العلم وعرفوا الحكمة التي رسمها الله للحياة، فلا مجال للشك إلى قلوبهم.

وصفة المستقيم المضافة إلى الصراط تعكس معنى غير المعنى الذي تحمله صفة (القويم). فالقويم تعني الاعتدال والاستواء والصواب.. ولكن صفة (المستقيم) تفوق صفة القويم بأنها تتضمن مدخلية الإرادة البشرية؛ أي أن الطريق المستقيم، هو ذلك الطريق الذي يريد له الإنسان أن يكون قويماً. فهو يستقيم على طريق الهدى بإرادته وكذلك بفضل الله تعالى.

ويُشير ذلك إلى كون الإنسان السائر ضمن الصراط المستقيم،

(١) سورة الإسراء، آية ٥.

يختلف عمن هو جالس في القطار -مثلاً- والقطار يسير به في طريق قويم. كَلَّا؛ بل إنه يختار الصراط المستقيم مساراً لنفسه بعد أن يرفض مسار كلٍّ من المغضوب عليهم والضالين. وبالتالي؛ إنه يريد الصراط المستقيم، بكل صدق وإيمان وعزم وإرداة، ويرفض غيره.

* * *

بصائر وأحكام

١- الإيمان نوعان؛ فثمة إيمان مستقر، يزداد نضوجاً بتوالي الفتن وتغيُّر الظروف.. بينما هناك إيمان مستودَع سرعان ما يفرط به صاحبه، لأنه رهين ظروف خارجية، فاذا تغيَّرت فَقَد إيمانه.

٢- الإخبات درجة لا يحصل عليها المرء إلَّا أن يمرَّ بامتحان صعب فيثبت له وينجح فيه؛ وهكذا لا يكون المؤمن مُخبِتاً إلَّا أن يقتحم العقبة ويتجاوزها بمخالفته لهواه وإطاعته لأمر مولاه.

٣- لأن ابن آدم يُواجه دائماً موجات متتالية من الوساوس، وتعترض مسيرته ضغوط من الحياة هائلة.. فلا مناص له من التوكُّل على الله في تحديها. بينما ترى الكافر أمره فرطاً؛ لأنه يفتقر إلى آلية تحديد الحق وإلى قوة احتماله.

نتيجة الإصرار على الكفر

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «بُنِيَ الْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: الْفِسْقِ وَالْغُلُوِّ وَالشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ. (إلى أن يقول:) وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْمِرْيَةِ وَالْهَوَى وَالتَّرَدُّدِ وَالاِسْتِسْلَامِ»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾

إذا كانت حجج الدين واضحة وأدلته بالغة، فلماذا ينحرف عنه

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٩٣.

الناس ويعكفون على كفرهم؟

ويتعمَّق هذا التساؤل عندما يعيش المرء في وسطٍ أكثر أهله من المشركين، وبالذات عند محاورته أحد الملحدين، حين يسرد عليه كل الحجج الدامغة والبراهين القاطعة، ولكنه يُواجَه بعناد، فتراه يعود على نفسه بالاستفهام عن كونه على حق، أو ذاك؟ وما إذا كان جميع من يحتك بهم على باطل؟.

فهنا، قد تحدث لديه ردة فعل سلبية تجاه ما يُؤمن، وربما نفذت الوساوس الشيطانية إلى قلبه من هذه الثغرة الخطيرة، ولكن القرآن باعتباره البلسم الشافي يتصدَّى لهذه الثغرة منذ البداية ويُؤكِّد للإنسان أن الناس أساساً منقسمون إلى فريقين منذ البداية؛ فريق مؤمن، وآخر كافر. والكافر هو الذي سواءٌ عليه أنذرته أم لم تُنذره تراه يبقى على كفره؛ لأنه عاقد عزمه على الكفر، فهو لا يؤمن حتى وإن كان مُنذِره شخص رسول الله ﷺ، أو كان الداعي له كأمير المؤمنين عليه السلام.. والسبب في كل ذلك ليس سرًّا غريباً، وإنما الأمر واضح كل الوضوح، وهو أنه قاسي القلب بليد الذهن.

وقد كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام كثيراً ما يقول:

عَلَمُ المَحَجَّةِ وَاضِحٌ لِمُرِيدِهِ
وَأَرَى القُلُوبَ عَنِ المَحَجَّةِ فِي عَمَى
وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِهَالِكٍ وَنَجَاتُهُ
مَوْجُودَةٌ، وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ نَجَا[1]

فأن يهلك هالك بسبب غرق سفينة في لجة البحر، فهذا أمر

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٥٧٨.

متوقع، ولكن السؤال الأخطر هو أنه: كيف نجا الناجي من بين جميع الهالكين، لاسيما إذا كان الهالكون كثيرين؟!

والله عز وجل يُبيّن لنا في سياق هذه الآية الكريمة أن فريقاً من الناس -ولا يهم عددهم- يسقطون إلى الحضيض، ليس لكونهم سقطوا في الفتنة، بل إن سقوطهم المريع كان بسبب أنهم كانوا قد كفروا، فهم عاكفون على الكفر، شاكّون بالإيمان، حتى أحاط الشك بقلوبهم وأذهانهم، حتى جاءتهم الساعة؛ أي أنهم عاشوا ضمن خط ممتد طيلة حياتهم في الشك والجدال العقيم اللذين فرضوهما على أنفسهم.

أما الساعة التي تأتيهم بغتة، فهي مبهمة، ولعلها شاملة لكل الساعات النهائية؛ فقد تكون ساعة الموت، ولعلها ساعة القيامة.. والمهم في الأمر أن للكافرين ساعة لا تنفعهم فيها نجاة غيرهم؛ لأنهم إلى النار ذاهبون لا محالة.

وهناك ساعة أخرى تُشير إليها الآية، وهي ساعة العذاب الذي يحمله يوم عقيم مثل عذاب عاد وثمود.

إن عنصر المفاجأة التي تتضمنها ساعة الهلاك، ينبغي أن يكون عامل تحريض للإنسان على عدم ترك العنان للغفلة أن تسيطر عليه، فيُسوِّف التوبة وهو لا يعلم ساعة نهايته.

٢- ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

اليوم العقيم هو الذي لا يتبعه يوم آخر إذ كل شيء ينتهي عنده.

***

بصائر وأحكام

يواجه الإنسان أحد خطرين: إما الساعة وإما العذاب. وهناك تنتهي فرصة الابتلاء، ويحين وقت الجزاء، وعند ذاك لا ينفع الإيمان ولا التوبة، وليس هناك ثمة فرصة أبداً.

وهذا لعمري يكفي لارتداع أي إنسان غويّ. ألا ترى أن أجل الإنسان قد خفي عليه ليكون أردع له عن المعاصي، ولكيلا يقول: أقترف المعاصي ثم أتوب من قريب.. ومَنْ يضمن له الحياة إلى أن يتوب؟

الملك يومئذ لله

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

لابد أن يضع الإنسان نفسه موضع من يتحدَّث عنه القرآن الكريم لدى قراءته آياته الشريفة، لكي تتحقَّق له الاستفادة المطلوبة من القراءة. فإذا مرّ بحديث عن المؤمنين، وضع نفسه موضعهم، وإذا كان حديثاً عن الكفار، وضع نفسه موضعهم أيضاً.. فلا يُمنّي نفسه بأن الآية صحيحة ولكنها لا تعنيه. وهذه وسيلة مثلى للاتّعاظ بالقرآن الكريم. لماذا؟.

لأن الموعظة إنما تحصل للإنسان حينما يعتبر نفسه معنيًّا بها، ومن دون ذلك لا معنى لها.

إن القرآن المجيد تنزَّل للناس كافة، ومن دون أي استثناء. ومن يزعم أنه قد استُثني من مواعظ الوحي يكون مصيره ما آل إليه بعض علماء اليهود والنصارى الذين ارتكبوا ما شاؤوا من الموبقات، وفي مقدمتها تحريف الكلم عن مواضعه، ثم سعوا إلى النأي بذواتهم عمّا أكدت عليه النصوص أو حذّرت منه، حتى أنهم قالوا: إن الله تعالى لن يُحاسبهم كما يُحاسب غيرهم، وأضفوا على أنفسهم صفة المُشرِّع، فقالوا بأن ما يصدر عنهم يعتبر بحدِّ ذاته تشريعاً (إلهيًّا) فهو بالتالي مُحصَّن بحصن السماء، وهم يمتازون بحصانة مميزة، فلا أهل الدنيا يُحاسبونهم، ولا الملائكة في يوم القيامة.

ولقد تنازل منهم مُتنازل مُتواضع، فقال: إنّنا قد يُعرِّضنا الله تعالى لناره، إلّا أن ذلك لن يستغرق سوى أيام معدودة.

ولكن هاتين الفكرتين نفاهما القرآن المجيد نفياً قاطعاً في أكثر من آية، وفي أكثر من مناسبة، ومنها قول الله تعالى:

١ - ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

فلا مجال لأحد أن يتقوّل من عند نفسه على الله عز وجل وعلى إرادته.. فإن الله سبحانه هو المالك للدنيا والمالك للآخرة، وله الملكوت ملكاً حقيقيًّا وليس ظاهريًّا فحسب، له الخلق وإليه المصير. وما يرى الناس في الدنيا من هامش من الحرية فإنما هي تابعة لإرادة المولى الجبار ليمتحنهم ويبتليهم. وما الموت الذي تتعرَّض له المخلوقات في الدنيا إلّا آية من آيات الله؛ الذي يقهرها به، وليعرفوا أن ثمة عالماً جديداً سيلجونه بعد الموت مُضطّرين مُجبرين فيه على كافة المستويات، حتى أن الأيدي لتتكلَّم وتشهد بالحق دونما إرادة من أصحابها.

٢ - ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

الذين آمنوا بدين الله الحق، وسلّموا بإرادتهم ومساعيهم إلى إرادة الله الحق.. أي أنهم أحرزوا شروط الإيمان في أنفسهم.

ثم عملوا الصالحات بأنواعها بعد الإخلاص لله في نية أدائها حتى أنهم لم يعتبروا الدين مُنفصلاً عن الحياة، بل نظّموا حياتهم بناءً على مُتطلبات الدين، ولأنه هو الذي يحكم بين الناس. فالفاء السابقة لكلمة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هي فاء تفريع على بصيرة حاكمية الله سبحانه وتعالى.

٣- ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

فهي جنات وليست جنة واحدة، كرماً من الله تبارك وتعالى، وفيها من النعيم الذي يعجز الإنسان حتى عن مجرد تخيُّله، فضلاً عن كونه قد رأى أو سمع بمثله، مهما تطوَّرت حياته في دار الدنيا، إذ مخ الإنسان مخلوق في إطار ما في الدنيا من الحقائق.

٤ - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

أولئك الذين لا يزالون في مرية من الحق، وجاءتهم الساعة بغتة -على فرض أنها ساعة الموت- وهم الذين دفع بهم كفرهم إلى التكذيب بالآيات، وهي كل حجج الله على البشر، وهي شاملة للأنبياء والأئمة، وكذلك آيات الله وكلماته الناطقة، وهكذا آياته سبحانه في الآفاق.

٥ - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

هم أولاً: مُبعدون عن الرحمة الإلهية في الآخرة، إذ يشير القرآن إليهم بما يُشار إلى البعيد، وثانياً: عذابهم مهين.

ولعل التعبير هنا بالعذاب المهين، (وليس الشديد أو العظيم) جاء تلمحيًّا إلى أنهم سيتعرَّضون للإهانة في ذلك العذاب. والإهانة ليست سوى نتيجة منطقية ومتوقعة للتكذيب بآيات الله، لأنه كان من عوامل ذلك التكذيب التكبُّر؛ التكبُّر على الله وآياته وأنبيائه وكتبه. فهو -إذاً- يقتضي العذاب المهين، لاسيما وأنهم لم يبدر عنهم تنازل عن كبرهم وجبروتهم الكاذب والمزيف.

أما الفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فقد تكون للإشارة إلى أن العذاب المهين يحل بالكافرين المكذبين بسبب سوء اختيارهم. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

من مصاديق أن الملك في يوم القيامة لله عز وجل، وأنه يحكم بينهم بالحق.. حَشْرُ الذين كفروا وكذبوا بآيات الله إلى سواء الجحيم، بعد أن يُدْخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم. فهو ملك حقيقي مباشر من قبل الله تعالى، وهو يتفاوت مع حال الدنيا وملك الله سبحانه فيها، حيث إنه قد أمهل فيها خلقه ليعملوا ما يُريدون إلى حد بعيد لتتوفر لهم الفرصة في العمل الصالح والاستزادة منه، وكذلك في العمل السيئ والتوبة عنه.. ثم لتكون الحجة له عليهم فيما سيُحشرون فيه في الدار الآخرة بمالكية الله لهم وحكمه العادل فيهم.

بلى؛ إن القسم الثاني نقيض القسم الأول، ولكن دخول حرف الفاء على مفردة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الخاصة بأهل الجنة في الآية السابقة، تفريعاً على حكم الله فيهم ورحمته بهم، نظراً إلى أن مصيرهم إلى الجنة يكون برحمة إلهية أولاً.

أما العذاب المهين الذي سيستحقه الكافرون المُكذِّبون بآيات

الله تعالى، فذلك لأن هاتين الموبقتين -الكفر والتكذيب- إنها يصدران عمَّن يصدران عنه بداعي غروره وكبره، وجزاء المُتكبِّر في الدنيا الإهانة في الآخرة. فالذي يكفر يلجأ إلى تبرير كفره بالكذب والتزوير ومن ثم التكذيب بآيات الله تعالى، وأيضاً التكذيب بالأنبياء وكفران النعم المتواترة.

* * *

بصائر وأحكام

١- لا مجال لأحد أن يتقوَّل من عند نفسه على الله عز وجل وعلى حاكميته.. فهو المالك للدنيا والمالك للآخرة، وله الملكوت ملكاً حقيقيًّا وليس ظاهريًّا فحسب، له الخلق وإليه المصير.

٢- الذين آمنوا بدين الله الحق، وسلَّموا بإرادتهم ومساعيهم إلى إرادة الله الحق، قد أحرزوا شروط الإيمان في أنفسهم، ثم عملوا الصالحات بأنواعها بعد الإخلاص لله في نية أدائها، حتى أنهم لم يعتبروا الدين منفصلاً عن الحياة، بل نظَّموا حياتهم بناءً على مُتطلبات الدين، لأن الله عز وجل هو الذي يحكم بين الناس.

٣- من مصاديق الملك الإلهي في يوم القيامة أنه يحكم بين عباده بالحق، حيث يحشر الذين كفروا وكذبوا بآيات الله إلى سواء الجحيم، بعد أن يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم.

٤- الكفر والتكذيب يصدران عمَّن يصدران عنه بداعي الغرور والكبر.. وجزاء المُتكبِّر في الدنيا المهانة في الآخرة.

اللّه خير الرازقين

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ»[1].

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم١٨٩.

تفصيل القول

١ - ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

قيمة الهجرة في سبيل الله من القيم الإسلامية التي طالما ذكَّر بها الله تعالى في القرآن الكريم وأكَّدت عليها روايات النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.

وقد ذهب بعض من عالج هذه القيمة من المُفسِّرين إلى القول بأن الهجرة وما فيها من أحكام، خاصة بعهد الرسول المصطفى ﷺ، وبالذات قبل فتح مكة.. أما بعدئذ فلا هجرة. إلّا أننا حينما نُلاحظ الزخم الجدي في بيان الهجرة والتأكيد عليها في كلمات القرآن الكريم والروايات الشريفة، لا يسعنا أن نختصر الهجرة في حقبة زمنية مُحدَّدة.. تماماً كما لا تقتصر سائر الأحكام الشرعية والقيم الإسلامية المُثلى، كالجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على العصر الإسلامي الأول.

ويبدو أن اقتصار قيمة الهجرة في سبيل الله على الصدر الأول للإسلام، جاء بناءً على الرغبة الأموية القاضية بفصل الدين عن الحياة برمتها، ليتسنَّى لهم التحكُّم بمصائر المعارضين لهم؛ ويُمثِّل هذا الاقتصار واحدة من حلقات تُؤدي بمجموعها إلى الفكرة الجاهلية بأن الرسول قد رحل، فليرحل معه الدين كله.. على عكس ما هو وارد من سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تؤكد أن قيمة الهجرة ثابتة بثبات الدين وإلى الأبد.

بلى؛ إن الهجرة تبقى قيمة دينية أساسية: والسبب في ذلك أن

الإنسان المسلم حيث يُواجه ظرفاً صعباً يعجز معه عن إقامة الشعائر الإلهية، ويشق عليه الالتزام بالأحكام الشرعية، فإنه يقف حينها أمام ثلاثة خيارات: إما الهجرة، وإما التقية، وإما الصبر على البلاء.

وتحت طائلة عدم التعادل الذي قد يحدث بين بطش القوة الحاكمة، وبين إمكانات المعارضة، يبرز خيار الهجرة خياراً معقولاً ومنطقيًا. هذا **أولاً**.

وثانياً: إن الهجرة ينبغي أن تكون هجرة في سبيل الله تعالى، دون استهداف المصالح الشخصية.

وثالثاً: إن الهجرة يُمكن أن تأخذ طابعاً جمعيًا، مما يزيد من تعقيداتها وصعوباتها.. ولعلها تكون في حالات مُعيَّنة أشد على المهاجر من القتل، الذي يُفترض أن يكون مرحلة نهائية في جهاد المؤمن، إذ تتضمَّن الهجرة الكثير من المشاكل مثل الغربة والجوع والفقر والإذلال.

ورابعاً: إن الهجرة ليست بالسلوك النادر أو الجديد؛ لأن كثيراً من الأنبياء عليهم السلام قد هاجروا، وكذلك الأئمة عليهم السلام، كما العلماء أيضاً، وذلك خلاصاً من الظلم والاضطهاد، واستعداداً لتحرير البلاد والعباد من الظلم والاضطهاد.

وهناك بُعدٌ آخر، يُمكن معالجته ضمن موضوع قيمة الهجرة، وهو أن الحديث قد يتناول الشخص المهاجر وحده، وقد يتناول المهاجر وتياره.. إذ التيار المهاجر لا بد أنه سيعود يوماً إلى وطنه منتصراً بإذن الله تعالى، وهذا ما وعد الله به عباده الصالحين. ولا فرق بين أمة وأمة، ومكان ومكان.. أما الشخص فقد يموت أو يُقتل في دار الغربة،

إلَّا أن أولاده قد يعودون في يوم ما. فمن هاجر ثم أدركه الموت فقد وقع أجره على الله تبارك وتعالى، إن كان قد هاجر في سبيل الله.

٢- ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾

قد يُقتل المهاجر في أرض الغربة، وقد يُقتل حين عودته إلى أرض الوطن، وحين ينبري للدفاع عن نفسه، أو لدى محاولته معاقبة من ظلمه، فيُجاهِد وقد يُقتل.

والفرق بين القتل والموت بَيِّن؛ إذ القتل بأيدي الناس، أما الموت فهو بأجله.

٣- ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

هذا وعد من الله، بأن يرزق المهاجر الشهيد أو الفقيد في دار هجرته، مما يدل على أن حياته ليست معنوية، بل حقيقية، حيث إن كل حي بحاجة إلى رزق، ولكن ما هو الرزق؟

مفهوم الرزق

ما نفهمه من روايات النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام وكذلك من إشارات القرآن الكريم، أن الرزق هو ما حُدِّد للإنسان لبقاء حياته، وليس بالضرورة ما يحوزه ويتمتع به من موارد إضافية وكمالية.

إذ الرزق مكتوب ومرصود عند الله سبحانه وتعالى. وقد تجد إنساناً يملك الملايين، بينما رزقه بسيط جدًّا، وقد يكون هناك شخص آخر لا يملك شيئاً ورزقه أفضل من ذاك؛ لأن الرزق هو ما ينتفع به ابن آدم.

ثم الله تعالى يرزق الرزق الحسن؛ بمعنى الرزق المريء الذي لا حرام فيه، ولا تتبعه السلبيات.

وهو تبارك وتعالى خير الرازقين، من حيث إنه يرزق من يشاء بغير حساب، وباعتبار أن رزقه منوط بحكمة سامية.

٤ - ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾.

إن التيار أو الشخص المهاجر يأتيهما الرزق من عند الله تبارك وتعالى، سواء مات أو قُتِل أو عاد منتصراً.. إذ يُعطيه الرَّبُّ من الرزق عطاءً كثيراً، ويُدخله مُدخلاً ينقله خلاله إلى مرحلة من العيش كريماً يتناغم والمُثُل التي هاجر من أجلها وسعى إلى تحقيقها.

وقد يشمل المعنى بُعدين:

البُعد الدنيوي؛ حيث يُحقِّق له النجاح والانتصار.

والبُعد الأخروي؛ حيث المهاجر في سبيل الله، والمستقيم على إرادة تحقيق المُثُل.. له من الأجر الكريم في يوم القيامة وجنان الخلد ما لا يجد متسعاً إزاءه إلَّا أن يُعلن رضاه عن كرم الرَّبِّ المتعال.

٥ - ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

إنه سبحانه وتعالى عليم بمن يعمل في سبيله ويهاجر من أجله.

وهو عز وجل حليم؛ لأنه يُمهل الظلمة يُهجِّرون الناس ويضطرونهم إلى تحمُّل أعباء الغربة ومعاناتها.. ويحلم عنهم لفترة معلومة، ثم بعد ذلك يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

* * *

بصائر وأحكام

١ - حينما يعجز الإنسان المسلم عن إقامة الشعائر الإلهية في وطنه، ويشق عليه الالتزام بالأحكام الشرعية، لأي سبب كان، فإنه يقف حينها أمام ثلاث خيارات: إما الهجرة، وإما استخدام التقية، وإما الصبر على البلاء.

وتحت طائلة عدم التعادل الذي قد يحدث بين بطش القوة الحاكمة وبين إمكانات المعارضة، يبرز خيار الهجرة خياراً معقولاً وشرعيًا.

٢ - الشخص المُهاجر يأتيه الرزق من عند الله تبارك وتعالى، سواء مات أو قُتِل أو عاد منتصراً، إذ يعطيه الرَّبُّ من الرزق عطاءً كثيراً، ويُدخله مُدخلاً ينقله خلاله إلى مرحلة من العيش كريماً يتناغم والمُثُل التي هاجر من أجلها وسعى إلى تحقيقها.

آفاق نصر اللّه

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له في وصف المتقين: «وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمُنْتَصِرَ لَهُ»[1].

وكتب الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رسالة إلى أصحابه: «وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَبْغِيَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ خِصَالِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ بَغَى صَيَّرَ اللهُ بَغْيَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَصَارَتْ نُصْرَةُ اللهِ لِمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ، وَمَنْ نَصَرَهُ اللهُ غَلَبَ وَأَصَابَ الظَّفَرَ مِنَ اللهِ»[2].

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٨.

تفصيل القول

فيما مضى بَيَّنَ السياق القرآني حكم الذين يُقاتَلون، حيث أذِنَ لهم الرَّبُّ بالدفاع لأنهم قد ظُلِموا، إذ لولا مشروعية الدفاع عن النفس لاستحالت الحياة.

وضمن هذا السياق طرحت الآيات قضية الهجرة في سبيل الله تعالى بما تشمل التهجير القسري المباشر، والتهجير غير المباشر عبر ممارسة الصغوط الفكرية والاجتماعية وغيرها.

وقد أكَّدت الآيات الشريفة وعد الله تعالى بالتعويض على الذين تعرَّضوا للتهجير ومن هاجر في سبيل الله تعالى، سواء تعويضاً دنيويًّا أو أخرويًّا، أو النوعين معاً، إذ يجدون في الأرض مُراغماً كثيراً، وحيث يُدخلهم الله مُدخلاً يرضونه.. وشرع السياق هذا ببيان المرحلة التالية، حيث قال ربنا سبحانه:

١ - ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾

وها هنا القرآن الكريم يُعالج استحقاقاً آخر للهجرة يتَّصل بالسلوك المرجو من المهاجرين العائدين.. إذ يُتوقع لمن يعيش في المهجر أن تتراكم لديه العقد النفسية بسبب الآلام التي تعرَّض لها، ولكي يُنفِّس عنها فإنه قد يلجأ إلى الانتقام من أعدائه الذين اضطروه للهجرة من قبل. ولكن القرآن الكريم يردعه عنه ويضع أمامه خياراً آخر لينهض بمستواه الفكري والنفسي إلى ما يترفَّع به عن الانتقام وهو التقيُّد بحدود القصاص.

ولكنه وفي خضم استعادته لحقوقه المسلوبة حيث تعرَّض

للبغي، فإن الله تعالى وعده بالنصرة.

إذاً، فالنـص القرآني هذا، ورد في سياق كبح جماح النفس لدى الإنسان المؤمن الذي طالما كان عُرضةً للأذى، للحيلولة دون ارتكاب ما يُحوِّله إلى كائن شرير كما هم أعداؤه الظالمون.

ويؤيـد هذا المنحى جملةٌ من الآيـات القرآنية الشريفة التي تحثُّ عـلى التـزام التقـوى حتى أثنـاء القتال وخـوض الحـروب؛ ذلك لأن التقوى تتجلَّى عند الإنسـان في سـاعة العُسرة، أكثر منها ما لو اعتكف الإنسـان في بيتـه مثـلاً، فتصير التقوى في سـاحة العمل معيـار المدى الإيـماني لدى الفـرد، إذ يلزمه أن يُقاوم رغباته ونزواتـه التي قد تدفعه إلى التصرُّف بما يتعدى حقوقه.

ولقد سَمَّى الله تعالى استرداد الحق عقاباً، كما سَمَّى الظلم الذي أدَّى إلى الهجرة عقاباً أيضاً. إذ الظالم كان يعتبر الإنسـان المجاهد مُسيئاً -وهـو مخطئ طبعاً- فاضطره إلى الهجرة والمعاناة.. ولكن الظالم مسيء على وجه الحقيقة، فهو يستحق العقاب.

٢- ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾.

توضيح لحقيقة الظالم الذي يلجأ إلى خيار البغي دوماً.

فهـو بدلاً مـن أن يتوجَّه بالشـكر إلى هذا العائد مـن المهجر، إذ لم يتصرف بغير اسـترداد حقه، إلَّا أنه يعود إلى سـابق سلوكه ويمارس الاعتداء.

٣- ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

جعـل الله تعالى نـصره إرادة مُشرعة على الدوام لمن يلتزم سـننه

الثابتة؛ لأن نصر الله نصر للعدالة والقسط والتقوى.. فمن التزم تحقيق هذه المثل السامية كان حريًّا أن يكون منصوراً، مرة ومرة، وهكذا.. بل لا فرق بين مرة وأخرى.

ولكن ثمة قضية في البين لا بد من توضيحها، وهي أن الله سبحانه وتعالى وعد من ينصره بأن ينصره؛ ذلك لأن الله قوي عزيز.. هكذا ذكر اسمي العزة والقوة في الآية (٣٩) من هذه السورة المباركة، بينما قال عز اسمه في هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

فما الفرق ترى بين الاستخدامين؛ بين القوة والعزة هناك، وبين العفو والمغفرة هنا؟.

في معرض الإجابة نشير إلى أن الفرق شاسع بين جولتي الصراع فيما يدور؛ إذ في الأول كان صراعاً مبدئيًّا بين المؤمنين والمشركين، فهو صراع حضاري شامل. بينما الوضع مختلف عند سقوط الطاغوت، حيث الوضع يستدعي بسط الأمن واستقرار حالة من السلم الاجتماعي.

فاسمي القوة والعزة جاءا هناك بهدف ترهيب المشركين، ومن ثم تشجيع المؤمنين. بينما العفو والمغفرة ذُكرا هنا بهدف التمهيد لما نحتاجه عند بناء الدولة وإقامة المجتمع الإسلامي، والله العالم.

ومن هنا يأخذ القرآن بأيدي المؤمنين ليضعوا نصب أعينهم دوماً قاعدة عظيمة تتمثَّل في معرفة أن أبواب الرحمة الإلهية والنصر الإلهي مفتوحة أمامهم دائماً، فلا ينبغي لهم أن يقترفوا ما يغلق هذه الأبواب دونهم، كأن يتجاوزوا حدودهم أو حقوقهم حينما يُمسكون بزمام القدرة، فيبطشون بطش الجبارين، لأنهم إذ ذاك لن يختلفوا -عند الله- عن غيرهم من الظلمة والطغاة.

ومما يُشَرِّع لهذه الحقيقة قول الإمام علي عليه السلام في وصيته قبل شهادته: «يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ لَا تَخُوْضُوْا دِمَاءَ المُسْلِمِيْنَ خَوْضاً، تَقُوْلُوْنَ: قُتِلَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ بِيْ إِلَّا قَاتِلِيْ»[1].

وبهذا حال دون توارث الأحقاد، بل وعمل على إفشاء روح التسامح بين الناس.

ثم دعنا نتساءل: ما الداعي إلى أن يتصرف أبناء الدين الواحد فيما بينهم على أساس التخويف، فيمارس كل منهم البغي ضد الآخر كوسيلة للردع؟ فمع مَنْ يا ترى إذاً يمارسون فضائل الأخلاق؟ أوَلَيس اعتماد البغي والردع المفرط يُهدِّد المجتمع ويُعرِّضه للدمار؟

* * *

بصائر وأحكام

١- إن كثيراً من حالات الاعتداء التي تقع بين الناس إنما تكون بسبب الخوف من الاعتداء من قبل الطرف الآخر. ومن هنا فإن توكل الانسان على ربِّه والاطمئنان إلى نصره إذا اعتُدي عليه فإنه لا يبادر بالاعتداء على الآخرين خشية اعتدائهم عليه.

٢- أوَلَيس الخالق المُهيمن على الأجرام الكبيرة مثل الأرض والشمس والقمر هو القادر أيضاً على أن ينصر المظلوم الذي يتعرَّض للبغي نصراً مؤزراً وأن يخذل عدوه كل الخذلان.

(١) ذخائر العقبى، أحمد بن عبدالله الطبري، ص١١٦.

متغيرات الزمان في إطار مشيئة الرب

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه لزنديق سأله عن الله سبحانه: إنه سميع بصير؟ قال عليه السلام: «هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ؛ سَمِيعٌ بِغَيْرِ جَارِحَةٍ، وَبَصِيرٌ بِغَيْرِ آلَةٍ، بَلْ يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ وَيُبْصِرُ بِنَفْسِهِ. لَيْسَ قَوْلِي: إِنَّهُ سَمِيعٌ يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ، وَبَصِيرٌ يُبْصِرُ بِنَفْسِهِ، أَنَّهُ شَيْءٌ وَالنَّفْسُ شَيْءٌ آخَرُ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ عِبَارَةً عَنْ نَفْسِي إِذْ كُنْتُ مَسْؤُولاً وَإِفْهَاماً لَكَ إِذْ كُنْتَ سَائِلاً، فَأَقُولُ: إِنَّهُ سَمِيعٌ بِكُلِّهِ، لا أَنَّ الْكُلَّ مِنْهُ لَهُ بَعْضٌ. وَلَكِنِّي أَرَدْتُ إِفْهَامَكَ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْ نَفْسِي وَلَيْسَ مَرْجِعِي فِي ذَلِكَ إِلَّا إِلَى أَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْعَالِمُ الْخَبِيرُ بِلَا اخْتِلَافِ الذَّاتِ وَلَا اخْتِلَافِ الْمَعْنَى»[1].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٨٣.

تفصيل القول

حيث يُظلم الإنسان، فيُضطَر إلى الهجرة.. فيُعاني ما يُعاني، ثم يعود، ثم يُعاقِب ظالمه بمثل ما عاقبه هذا الظالم واعتدى عليه، ولكن الظالم يبغي عليه؛ أي على هذا المظلوم المهجَّر.. هذه الصورة واقعية تتكرَّر دوماً، ولكن الله تعالى يَعِدُ المظلوم الذي يتعرَّض للبغي بالنصر، بعد أن يُقنعه بضرورة التزام طريق العفو والمغفرة. لماذا؟

لأنّ كثيراً من الاعتداء الذي يقع بين الناس يجري بسبب الخوف من الاعتداء من قبل الطرف الآخر، ولكن عندما يطمئن المؤمن إلى نصر الله له فهو لا يقوم بمثل هذا الاعتداء.

ولكن كيف لهذا المظلوم أن يَتَلمَّس الضمانة لاستحقاق النصر؟ بمعنى: كيف له أن يجد تجلِّياً ظاهراً لقوة الله وقدرته؟ نجد الجواب في الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾.

إنه سبحانه يضرب له مثلاً ظاهراً من هيمنة الرَّبِّ للزمان وتحوُّلات الليل والنهار، حيث يُهيمن على ظاهرتي الليل والنهار، فيُولج أحدهما في الآخر، ويُعيد العملية تارةً بعد تارة، بما يتضمَّنان من منظومة عظيمة من الأنظمة الدقيقة.. ليُؤكِّد للمظلوم المبغي عليه بأن من كان قادراً على الهيمنة على حركة الأجرام الكبيرة مثل الأرض والشمس، وما فيهما من الحركة والاستقرار وغير ذلك، لقادر على أن ينصره كل النصر، وأن يخذل عدوه كل الخذلان؛ لأن كل الأمور عائدة إليه بدءاً وعوداً، أزلاً وأبداً.. فلا مبرر للإنسان المظلوم أن يشك في حتمية النصر؛ لأنه صادر عمن يحكم بقدرة مطلقة آفاق الزمان

والمكان وأسرار الهيمنة على كل شيء، إذ هو السميع البصير، وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

* * *

بصائر وأحكام

١- جعل الله تعالى نصره باباً مُشرعاً لمن يلتزم سننه الثابتة؛ لأن نصر الله نصر للعدالة والقسط والتقوى.. فمن التزم تحقيق هذه المثل السامية كان حريًّا أن يكون منصوراً.

٢- القرآن يأخذ بأيدي المؤمنين ليضعوا نصب أعينهم دوماً قاعدة عظيمة تتمثّل في معرفة أن أبواب الرحمة الإلهية والنصر الإلهي مفتوحة أمامهم دائماً، فلا ينبغي لهم أن يتصرّفوا بما يُغلق هذه الأبواب دونهم، كأن يتجاوزوا حدودهم حينما يُمسكون بزمام القدرة فيبطشون بطش الجبارين؛ لأنهم إذ ذاك لن يختلفوا عن غيرهم من الظَّلَمَة والطغاة.

اللّه هو العلي الكبير

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام الحسين بن علي عليه السلام في دعائه يوم عرفة: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاكَ، وَتَكْشِفُ السُّوءَ، وَتُغِيثُ الْمَكْرُوبَ، وَتَشْفِي السَّقِيمَ، وَتُغْنِي الْفَقِيرَ، وَتَجْبُرُ الْكَسِيرَ، وَتَرْحَمُ الصَّغِيرَ، وَتُعِينُ الْكَبِيرَ، وَلَيْسَ دُونَكَ ظَهِيرٌ، وَلَا فَوْقَكَ قَدِيرٌ، وَأَنْتَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»[1].

تفصيل القول

القرآن كتاب الله تبارك وتعالى، وأبرز دلالة وأوضح علامة على

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج٢، ص٨٤.

أنـه كتـاب الله حقًّا، أنه الكتاب الوحيد الـذي يحوي من تجليات الرَّبِّ المتعـال ومـن آياته ومـن بصائره ما لا يحويهـا أي كتاب آخـر.. أما إذا انفتح الإنسان على القرآن كانت معرفته بربه معرفةً وجدانيةً صافيةً، لا تشوبها ملابسات الكلمات والمفاهيم الغامضة والتصوُّرات المشوَّهة.

إن حديـث القرآن الكريـم وحديث النبـي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام يرفـع الحُجب عن القلب، ثم يفتحه على العالم وآياته الدالة على وحدانية الله تعالى.

وكما هو واضح؛ فإن الآيات الكريمة المتوسـطة بين السـتين إلى الخامسـة والستين من هذه السـورة المباركة، تضمَّنت بيان بعض أسماء الله الحسنى، وهي بمجموعها تُمثِّل منظومة من الأسماء التي يحوي كل منها تجلِّياً لإفاضاته، ورحماته.

ففـي الآيـة السـابقة بيـان أن الله تعالى هـو الذي يملـك حركة الزمن، وأنه هو المهيمن عليه، باعتباره فوق الزمن وبيده أبعاده كلها.

١ - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾

والحـق ثابـت لا ينتهـي، وعـلى النقيض منـه الباطـل المحكوم بالفنـاء والزوال. والحق ينفع بينما الباطل يضر. كما أن الحق يستجيب للإنسـان، فيما الباطل كَلٌّ على غيره ولا يـأتي بخير أبداً.. والحق قوي، بل هو مصدر القوة ومصداقها الأبرز على الضد من الباطل.

وإنـما يتم فهم هـذه الحقيقة إذا عرفنا أن الأسـماء والمفردات قد وُضِعـت لمعرفـة الحقائـق الخارجيـة دون المفاهيـم الذهنيـة، وأنه كلما تجرَّدنا من المفاهيم ولامسـنا الحقائق الواقعية مباشرة توصلنا إلى المزيد من المعرفة.

وحيث يتأكد لنا أن لله آية في كل شيء، ننتهي إلى معرفة أن ربَّنا هو المُهيمن على كل شيء، وبالتالي فهو الحق الثابت، ودونه المُتغيِّر والزائل.

إن علامات الضعف والمحدودية، (زماناً ومكاناً وقوةً و..) ظاهرة في كل شيء، كما هي آيات الحكمة البالغة. وهكذا يُصبح التأمُّل في كل شيء وسيلة لمعرفة الرَّبِّ مباشرة وملامسة أسمائه الحسنى.

إن مقادير الخلق بيد الله تعالى، لأنه الحق الثابت، وكل شيء يبطل إلَّا وجهه الكريم، وإنما وجهه ما يتصل به من قيم وحقائق وأشخاص، وهي ثابتة قائمة ما دامت مُتصلة به سبحانه.

نعم؛ إن من حكمة الله في عباده أنه تبارك اسمه خلق الخلق وأودعه آياته. كما خلق الإنسان وأودعه عقلاً فشرَّفه وأكرمه وفضَّله، ثم أمره بأن يتدبَّر في آياته في الخلق، لكي يزداد معرفةً بربه بوجوه المعرفة.. ومن أبرز مصاديق المعرفة بالله أنه تعالى هو الحق الثابت، وأن ما يدعو الكفار والمنافقون والقاسية قلوبهم واللاهثون وراء الهوى محكوم بالزوال منذ البداية، بل إن بدايته دليل فنائه، لا سيما وأنه قد اتَّصل بالباطل والشر. ومهما تَصَوَّرَ الباطل والشر بصور القوة والجبروت، فإن الله يبقى هو العلي الكبير بأجلى وأبهى وأقدس مظاهره، ولا يُمكن أن يستهوي المؤمن صورة غير صورته، ذلك لأن علو الله وكبره غير محدودين بحدود:

٢- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾

وعلى عكسه مَنْ هو دون الله تعالى. أرأيت الجبل؟ فهو مهما كان شاهقاً، يبقى جاثماً أسفل السحاب، ومهما تعالى النجم يبقى مُتحرِّكاً

تحت السماء.. وهكذا كل شيء ما خلا الخالق العلي المتعال. فهو تعالى عن كل حدٍّ ووصف، وهو أكبر من أن يُحاط بنظر، إذ العلو الحقيقي والسيطرة المُطلقة مُنحصران فيه وحده لا شريك له.

فهو العليّ الكبير لأنه الحق، وإنما الحجب الواردة على ذات الإنسان وعقله هي التي تعوقه عن معرفة هذه الحقيقة الجلية.. فكان لا بد لابن آدم أن يخترق حجب الغفلة واتّباع الهوى بالاتصال مع الله، وبمن ينطق عن الله تعالى، ليصل إلى معدن العظمة والنور.. فيهجر القوالب الذهنية والمُسبّقات الثقافية ويُحطّم القيود الفكرية الباطلة، ويستعيض عنها بقيم إلهية حقّة.

وهكذا أراد الله تعالى للإنسان الكرامة بأن يرتقي إلى مستوى عبادته، وألّا يظلم نفسه باتّباع غيره. ولا يُمكن التسامي إلى هذا المستوى إلّا بتحويل القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام منظاراً ينظر به إلى كل شيء، ويتّخذ من كل شيء موقفاً سليماً يرضاه الله تعالى.

***

بصائر وأحكام

لقد أكرمنا الرَّبُّ حين أمرنا بإخلاص العبودية له دون ما سواه. ولكي نتسامى إلى هذه الدرجة، علينا أن نتّخذ من الوحي (قرآناً وسنةً) بصائر نشاهد من خلالها آيات الله وأسمائه وننظر إلى وجهه الكريم.

اللّه لطيف خبير

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (في خطبة له): «سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، وَنَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ فِي كُلِّ مَا يُرِيدُ مِنَ الْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، انْفَرَدَ بِصَنْعَةِ الْأَشْيَاءِ فَأَتْقَنَهَا بِلَطَائِفِ التَّدْبِيرِ، سُبْحَانَهُ مِنْ لَطِيفٍ خَبِيرٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»[1].

تفصيل القول

الظواهر الطبيعية التي تُحيط بالإنسان مدرسة، ولكن لمن؟.

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٧٠٤.

لمن يُلقي السمع وهو شهيد، لمن يفتح بصيرته على هذه الظواهر، وتكـون لديه رؤية سـليمة إليهـا. من هذه الظواهر الغيـث الذي ينزل من السـماء والذي يستبشر به الناس؛ لأنه كلما نزل المطر شـعر الناس بالراحة بموسم مبارك برفاه. ولكن هل يعتبرون بذلك؟

الأنعـام لا يهمهـا من المطـر إلّا علفها، ولكن الإنسـان الواعي حينـما ينظر إلى هذه الظاهـرة من حمل ملايين الأطنان مـن المياه العذبة من أعالي البحار ثم نقلها بانسـيابية إلى المناطـق الجافة، وخلطها مع ما ينفـع الأرض مـن نتروجين وأوكسـجين ومما لا نعلـم.. وإذا بها تنزل عـلى الأرض، على سـهلها وجبلها ووديانهـا وأحواضها فوق الأرض وفي جـوف الجبال وفي الأحـواض الموجودة تحـت الأرض.. فإذا هي امتـلأت من هذه الرحمة الإلهية التي تنفـع الناس، وإذا بها أصبحت في الحقيقة وسـيلة لاخضرار الأرض؛ الأرض التـي كانت مصفرة اللون أصبحت الآن خضراء نضرة تبعث بالبهجة وتعبق بشذا منعش.

لا أعلـم أن أهل المدن باعتبارهم يعيشـون دائماً خلف حواجز، هـل جربوا وذهبـوا إلى الصحراء قبل وبعد المطر حتى يكتشـفوا عمق التحـوُّل؟ كيف نمت الملايين من النباتات الصغـيرة التي كانت تنتظر بذورها المطر بفارغ الصبر، وإذا ببساط أخضر يكسو مساحات واسعة من الأرض، مَنْ الذي فعل ذلك؟

ربُّنـا يقـول للإنسـان: أيها الإنسـان لقـد أُوتيـت عقـلاً وفكراً ومنهجيةً سليمةً تستطيع أن ترى ربَّك من خلال كل ذلك، ترى صنع الخالـق. أيهـا الإنسـان كيف تريـد أن تعرف ربَّـك؟ أوَلَسـت تريد أن تعرفه من خلال أسـمائه ومن خلال أفعاله وآياته؟ وإلّا كيف تسـتطيع أن تعرف ربَّك، هذا هو ربُّك اهتدِ إليه؟

تدبروا في هذه الكلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهي كلمة تتكرّر في القرآن الكريم في سياقات مختلفة، حيث إنها تُحفّز على رؤية البصر والبصيرة، حيث إنهما تتكاملان في الإنسان: العين ترى، والقلب يُبصر.

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾

إن آيات الصنع واضحة، وإن دلائل الرحمة واضحة في كل هذا.

٢ - ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

الأرض ليست خضراء بذاتها، وإنما اخضرّت بفعل المياه السماوية. هذا وإذا أنعمتَ النظر وتابعتَ الفكر لعرفتَ من خلال لطيف صنع ربّك أنه لطيف يفعل أعظم الأمور برفق ويُسر وبلا أي خطأ، وأيضاً تعرف مدى دقة الأنظمة التي تحيط بهذه المتغيرات العظيمة وتهتدي من خلالها الى أن ربّك خبير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

بصائر وأحكام

١ - الظواهر الطبيعية التي تُحيط بالإنسان مدرسة لمن يُلقي السمع وهو شهيد.

٢ - من خلال النظر في لطيف صُنع الرّبّ وحُسن تدبيره يعرف المؤمن أسماء ربّه الحسنى.

هو الغني الحميد

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (في خطبة له): «وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

يستطيع الإنسان هذا العبد الضعيف المتواضع في قدرته وعلمه

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٣.

أن يعرف ربَّه، وذلك من خلال تأمُّله في السماوات والأرض ورؤيته لملكوتهما التي تدلُّه على أن الله هو الذي يُمسكهما أن تزولا.

ومن خلال البحث العميق في مخلوقات الرَّبِّ، يستطيع الإنسان أن يعرف أسماء الله الحسنى؛ وحيث إن معرفتها هي من عظيم مَنِّ الله تعالى عليه، حيث أكرمه بالتعرُّف إلى أسمائه الحسنى وأتاح له أن يعبده ويتقرَّب إليه.. فكان حريًّا به أن يستنير بهذه الكرامة، فلا يغفل عن معرفة ربِّه حتى يتعالى في ظل المعرفة بربِّه الغني عن عباده. والحميد على النعم الجزيلة.

٢ - ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

وإذا استوعب البشر اسماً من أسماء ربِّه، فإنه سوف ينال بفضل ربِّه شيئاً من محتوى ذلك الاسم. فإذا عرفت حقًّا أن ربَّك غني حميد، فسوف تسمو نفسيًّا إلى مستوى الغنى والحمد، وتدعوه أن يرزقك إياهما، وتسعى جاهداً لتتخلَّق بهما ولتحصل عليهما بتوفيق ربِّك.

* * *

بصائر وأحكام

١ - من خلال التأمُّل في السماوات والأرض ورؤيته لملكوتهما، يستطيع الإنسان أن يعرف ربَّه.

٢ - إذا استوعب الإنسان اسماً من أسماء ربِّه، فإنه سوف ينال بفضل ربِّه شيئاً من محتوى ذلك الاسم.

اللّه رؤوف رحيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

***

تفصيل القول

لقد أُوتي البشر أدوات إحساس للتكيُّف مع الطبيعة المحيطة به. ويشترك الإنسان في هذا الجانب مع سائر الأحياء، ولعل بعضها أكثر دقة وأقوى حسًّا. والبشر يتفاوتون في تفعيل الحواس؛ فمثلاً من يعيش في الصحراء يمتاز برهافة الإحساس وسرعة استجابته للإثارات المحيطة به، لحاجته الماسّة إلى ذلك؛ وهكذا فإنه يتفوّق على نظيره الذي يعيش حياة المدينة.

إنما يختلف الإنسان عن سائر أحياء الأرض بامتلاكه الطاقة

العقلية التي تُمكِّنه حتى من اكتشاف ما يخرج عن نطاق عمل الحواس، إلّا أنه في كثير من الأحيان لا ينتفع من هذه الطاقة الجبارة، مما يجعله عاجزاً عن السمو إلى معرفة ما وراء الطبيعة عبر حقائق الشهود.

ولنضرب مثلاً؛ الفرق بين الطبيب وغيره، إن الأول يُلاحظ ظاهرة صحية ما، فيكتشف من ورائها المرض، بينما الثاني قد يُلاحظ الظاهرة ذاتها، لكنه لا يكتشف شيئاً. وهكذا يتميَّز من يُحقق في الجرائم عن غيره في ذلك؛ أي في معرفة ما وراء الظاهر. وهكذا الفرق بين المهندس وغيره، أو بين عالم النفس ومن سواه.. الفرق دائماً يتمثَّل في معرفة ما يغيب عبر التأمُّل فيما يُشاهده الحس.

وهكذا فإن من أكبر الفوارق بين الناس بعضهم عن بعض، أن لدى البعض قدرة اكتشاف الخبايا والخفايا، فيما غيرهم يكتفون بملاحظة الظواهر ويحصرون أنفسهم ضمن حدود عالم الحس.

وهذه الحقيقة تتجلَّى في أفق المعارف العليا، وبالذات معرفة الخالق سبحانه، إذ إن القدرة ذاتها التي يستفيد منها الطبيب الحاذق وأيّ خبير آخر في الانتقال من معرفة الظواهر إلى معرفة ما وراءها، أنها هي ذاتها تُعطي الإنسان القدرة على معرفة الرَّبّ الذي هو غيب من خلال آياته المشهودة.

ولكن السؤال المهم: لماذا إذاً نجد أكثر الناس، ومع ما أُوتوا من العقل والمقدرة على بلوغ الغيب من خلال الشهود، لماذا لا يعرفون ربَّهم، وهو المحيط بهم، وهو الشاهد عليهم تبارك وتعالى، مع أن في معرفتهم لخالقهم نفعاً لهم، وفي الجهل به وبأوامره ضرراً عليهم؟

يبدو أن الإنسان بحاجة إلى تفعيل هذه القدرة عبر التذكير بها.

ومن هنا فإن رسالة القرآن الكريم التي تتضمَّنها الكثير الكثير من آياته المباركة تحمل إثارة هذا الإحساس وتفعيل هذه القوة في بني البشر.

فإذا تفعَّلت هذه القدرة فيه، فإنه سيعيش مع ربِّه الخالق المتعال مع كل حدث.. وسينظر إلى الطبيعة باعتبارها آيات تدلُّه على ربِّه، وليست مجرد ظواهر متناثرة، بل سيتخذ منها عبرة؛ أي ينتقل من شهودها إلى غيبها، ومما يظهر منها إلى ما هو أخفى.

وهكذا قال ربنا سبحانه:

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

وهكذا نجد القرآن الكريم يستنهض فكر الإنسان، ويدعوه إلى النظر بعين البصيرة، ثم يُذكِّره بأن الله سبحانه قد جعل ما في الأرض مُسخَّراً لخدمته.

والآية تتضمَّن الإشارة إلى حقيقة هامة، وهي أن كل ما في الأرض مُسخَّر للإنسان، وأن بمستطاع هذا المخلوق أن يستثمر ما فيها من خيرات وبركات.. ولكنه في الوقت نفسه، لم يقل: إنه سخَّر الأرض للإنسان، نظراً إلى أن وجودها، وطبيعة حركتها، وطبيعة مصيرها لا مدخلية للإنسان فيه، فلا ينبغي له أن يُغيِّر مصيرها، كأن يعمد إلى وسائل التدمير الشاملة ويُعرِّض مصير الأرض إلى الخطر الماحق، إنما قال: ما في الأرض.

ولكن؛ حيث أذن الله تعالى للإنسان أن يستثمر ما في الأرض، فإنّ من الخطأ القاتل أن يحجم عن التفاعل مع الأرض وما فيها والسعي لإعمارها، نظراً إلى أن إعمار الأرض بما يتناسب وإرادة الله سبحانه وتعالى قد يكون نوعاً من العبادة.

ولذلك؛ فإن ربًا قادراً مقتدراً يخلق أرضاً -كنموذج- بهذه المميزات، ثم يُكرِّم ابن آدم بتسخير ما فيها له، لحريٌّ بأن نؤمن به ونعبده دون سواه من الآلهة المزيفة.. بما فيها الظواهر الطبيعية ذات العلاقة بالأرض، التي افترى بعض الناس وقام بعبادتها من دون الله عز وجل. وشتان ما بين بصيرة القرآن الحكيم هذه وثقافات الجاهلية. فالقرآن يدعو البشر للانتفاع بما في الأرض وتسخيرها، بينما تريد الثقافات الجاهلية العكس، وهو أن يصبح البشر مُسخَّراً لما في الطبيعة ويعبدها.

ثم إن هذه الكلمة من الآية تدعو إلى التكامل بين الإنسان وبين الظواهر الطبيعية. فهو يخدمها وهي تخدمه، وهو يستعمرها وهي تزيده رفاهاً.

٢ - ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾.

الآية تُذكِّرنا بأن الله قد سخَّر ما في الأرض للإنسان، ومن جملة ذلك: أنه جعله قادراً، على صناعة الفلك، بتوفير وسائل صناعة هذا المنتج البحري، وهو السفينة، مثل الخشب والنحاس والقماش وغير ذلك مما يدخل في صناعة السفن، أو حتى البخار ومشتقات النفط والذَّرَّة.. فالإنسان صنعها بما وهبه الله له من عقل وعلم ووسائل مُتاحة أخرى. وهذا مَثَلٌ واضح لأسلوب تسخير الرَّبِّ ما في الأرض للبشر.

والفلك تجري في البحر، ضمن السهولة المتوفرة في جنس الماء مع انسياب الهواء ومع تصلُّب اليابسة، فصارت الفلك تجري بيسر -مبدئيًا- حيث البحر، وحيث سوق الله للرياح الموائمة.. إذ الرياح

-بدورها- لا تجري، ولا تتغيَّر وجهتها إلَّا بإرادة من الله عز وجل.

فجريان الفلك في البحر، ظاهرة أخرى تستحق التوقُّف من قبل (بصيرة الإنسان) لتثبت لديه حقائق ربانية أخرى، ينبغي الانتهاء بها إلى هيمنة الله الجبَّار، الذي هو في الوقت ذاته مُتفضِّل بكل شيء على ابن آدم، ليتيسر له اكتشاف الحق وانتقاء الفكر الصائب والعقيدة السليمة والسلوك القويم خلال حياته على الأرض.

وللحديث عن الفلك مفارقة أخرى، حيث إنه بالرغم من أن غالبية العرب في الجزيرة العربية لدى نزول القرآن كانوا يستخدمون الدواب في تنقلهم، ولا يهتمون كثيراً بالتنقل عبر الوسائط البحرية، فإن الله ذكَّرهم بها، ثم ذكَّر الناس ببعض آيات السماء حيث قال سبحانه:

٣- ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

بلى؛ إن الله عز وجل يُمسك بإرادته وقدرته السماء أن تقع وتهوي على الأرض. فالسماء بما فيها من أجرام قائمة على أساس منظومة من السُّنن الإلهية التي نُسميها نحن اليوم بالجاذبية والتي تتحدَّد بها مواقع النجوم والتي أقسم بها الله سبحانه وقال عنها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]؛ إنها متصلة مباشرة بإرادة الرَّبِّ، حيث إن ضبط هذه المواقع في مساراتها لا يُمكن إلَّا بهيمنة قدرة محيطة بها، وهي حسب ما نفهم من سياق الآية سوف تتلاشى عندما يأذن الله بذلك.

ولعل في هذه إشارة إلى أنَّ لإذن الله تعالى نهاية مُحدَّدة ومعلومة من قبله تعالى، حيث السماء تقع يومئذ على الأرض، فينتهي هذا العالم،

(١) سورة الواقعة، آية ٧٦.

ليسوق الإنسان إلى عالم آخر، تماماً كما جاء به من عالم مغاير إلى هذا العالم.

وإنما الله هو الذي يُمسك السماء، بما فيها من عظمة ظاهرة واتِّساع هائل، فهي ليست إلَّا مخلوقاً طائعاً كل الطاعة، ومُسلِّماً مطلق التسليم لإرادته سبحانه.. لا سيما إذا عرفنا أن لله مخلوقات أخرى، قد لا تُحصى كثرة، وهي أكبر وأوسع بكثير من السماء، مثل كرسيه الذي وسع السماوات والأرض.

٤ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

علاقة الله بالناس علاقة الغني بكل معنى الكلمة بالفقير بكل معنى الكلمة. والإنسان مُحتاج إلى رأفةٍ ورحمة.. فالله تبارك وتعالى قد رأف بالناس، حيث سخَّر ولا يزال يُسخِّر لهم ما في الأرض، وحتى بعض ما فِي السماوات.. ليستثمروه استثماراً يتواءم مع إرادته السامية والحكيمة.. فإذا هم فعلوا ذلك رحمهم وأعطاهم في المستقبل ما يفوق حتى آفاق خيالهم.

ولعل الفرق بين الرأفة والرحمة، كما الفرق بين الحال والمستقبل. فالرأفة هي الرحمة الراهنة، والرحمة هي الرأفة المستمرة. والله العالم.

* * *

بصائر وأحكام

١ - يختلف ابن آدم عن سائر أحياء الأرض بامتلاكه الطاقة العقلية التي تُمكِّنه من اكتشاف ما يخرج عن نطاق عمل الحواس. غير

أنه في كثير من الأحيان يمتنع عن الاستفادة من هذه الطاقة، مما يجعله عاجزاً عن السمو إلى معرفة الغيب.

٢ - أَذِنَ الله للإنسان أن يستثمر ما في الأرض، ومن الخطأ أن يُحجم عن التفاعل مع ما في الأرض من خيرات ويسعى لإعمارها، نظراً إلى أن إعمار الأرض قد يكون نوعاً من العبادة.

٣- الله تبارك وتعالى قد رأف بالناس، حيث سخَّر ولا يزال يُسخِّر لهم ما في الأرض، ليستثمروه استثماراً يتواءم مع منافعهم ومع إرادته الحكيمة.. فإذا هم فعلوا ذلك، رحمهم وأعطاهم مستقبلاً ما يفوق حتى حدود خيالهم.

إن الإنسان لكفور

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾.

* * *

تفصيل القول

إذا حاولنا قياس المسافة بين الموت والحياة، فلا ريب في أن عقولنا ستُصاب بالذُّهول، إذ الحياة تختلف اختلافاً جذريًّا عن الموت، كاختلاف الصخرة من الحجر وحشرة تدبُّ عليها.. وإذا كان العلم البشري لم يحصل على معلومة كافية تدل على طبيعة الحياة، فكيف به إزاء الموت المُوغِل في غياهب الغيب؟

فالحياة مثلاً تجعل الكائن الحي مهيمناً على محيطه، كما النواة الحية إذا زُرِعت في أرض صالحة، حيث تستجيب لها كافة العوامل الطبيعية التي تساهم في إخراج نبات مبارك.. أما النواة الميتة فهي تتحلَّل مع

الزمـن في محيطهـا، وهكـذا تجد النواة الحيـة حاكمة عـلى الطبيعة، بينما النواة الميتة محكومة لها.

ثـم الحياة نعمة كـبرى؛ لأنها هيمنة وملك وقدرة ومسـؤولية.. مسـؤوليّة الامتحان التي قال عنها سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[1].

فالإنسـان كان شـيئاً مـن العـوالم الماضيـة؛ عـالم الطـين أو عالم الظـلال أو عالم الذر أو عالم الأصـلاب والأرحام، ولم يكن جديراً بأن يُذكـر، ولكـن الله تعالى نفـخ فيه من روحه، فأضحى أهـلاً لأن يُذكر؛ وحيث أصبح كذلك، أصبح أهلاً لأن تُناط به مسـؤولية حمل الأمانة، أمانة الإقرار بالعبودية لربِّه الواحد الأحد، ومن طبيعة الإنسان إما أن يكون شاكراً وإما كفوراً.

يقول الله تعالى:

١ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾.

أي: هـو (الفَعَّال لما يُريد)، ولم يُمْلِ عليه أحـد الإرادة في خلق الإنسـان، ولا شـاركه أو أعانه.. وهكذا لم تُنسب الخلقة إلى غيره؛ لأنه هو القادر على أن يهب الخلق ويهب الحياة.

٢ - ﴿أَحْيَاكُمْ﴾.

أي: أنـه لم تكونوا أحياءً، فأحياكم. وهذا يدلنا على أن الإنسـان قد خُلِق بإرادة الله بلا حياة، ثم أُوتي الحياة. وهكذا فإن حياة الإنسـان

(١) سورة الإنسان، آية ١ - ٢.

لم تأتِ مباشرة مع وجوده. قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[1] فالظلمة تسبق النور، ولعل كلمة الظلمات تدل على الكائنات المظلمة التي هي أكثر بكثير من الكائنات المتنورة.

٣- ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾

إن الحياة كما وُهِبَت للإنسان، فلا بد أنها سوف تُسلب منه في لحظة مُعيَّنة.. وانتقال الإنسان من الحياة إلى مرحلة الموت انتقال محتوم.

فالإنسان يحيى ويُولد، ويُولد معه موته وأجله الذي يُلاحقه أين ما ولّى وجهته.. وإن من الخطأ أن يتصوَّر المرء أجله بعيداً عنه. كَلَّا؛ الموت كما الظل يُلاحق صاحبه. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[2].

وكان هناك سباق بين البشر والوفاة، ولكن حيث يجهل الإنسان الموت، فإنه يُحاول الفرار منه، ولكن أنّى له الفرار من ظلّه؟ قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[3].

فثمة واقع مُسلَّط سيفه الصارم على البشر، إنه الحق. وكم يُحاول المرء الفرار منه ولكن عبثاً. فكم شيَّد البشر بُروجاً، لعلّه يخلد فيها؟ وكم افتعل مناهج، ومكر ألواناً من المكر لكي يتجنَّب الوفاة؟ وكم افتعل من الأساليب الملتوية خلال حياته.. ولكن الإماتة أمر من الله عز وجل المهيمن عليه والقائل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام، آية ١.
(٢) سورة الجمعة، آية ٨.
(٣) سورة ق، آية ١٩.
(٤) سورة الأنعام، آية ١٨.

وهذا المقطع القرآني من الآية، وآيات أخرى مماثلة.. تؤكد كلها أن المـوت أمـر حق وينـزل على كل إنسـان، وإن طال أجلـه، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾(١).

أي: أن المـوت يتعرَّض للإنسـان وإن قُتِـل، إذ هو يذوق الموت عند حلول أجله حتى ولو قُتِل قبلئذٍ.

بـلى؛ يجري ابـن آدم نحو أجله على قطار الزمـن، فكل لحظة تمرُّ عليه فإنما تقطع من حياته جزءاً.

٤- ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾.

حقّـاً؛ إن الموت الذي تُشـير إليه كلمـة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ مرحلة صعبة التصوُّر، ولكن قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ أصعب تصوُّراً.

فالله تعالى يُحيي الناس بعد إماتتهم؛ يُحييهم للمثول أمام سـاحة عدلـه المطلـق في يوم القيامة، إذ يُرفع أمام كل إنسـان كتاب خاص به، من شأنه أنه لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

إن الخلـق الأول لا مـن شيء، ثـم الإماتـة والسـوق إلى عـالم الـبرزخ، ثـم الإحيـاء والسـوق إلى عـالم يـوم القيامة، ومـن ثم عالم الخلـود حيث العقاب والثـواب.. كل أولئك مراحل أشـارت إليها الآيـة القرآنيـة، لتضع الإنسـان في حيّـز يُمكنه أن يطّلـع على حقيقة نفسـه، ولتتمهَّد له حريته في انتخاب أي الخيارات تجاه هذه المراحل والعوالم.. ولكن!!

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

٥- ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾

تُشير هذه العبارة القرآنية إلى أن من طبيعة الإنسان كُفران من أنعم عليه، سواء كان خالقه أو المخلوق.

ومن الملاحظ أن كلمة ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تُستخدم في القرآن الكريم لتدل على طبيعة البشر، حيث نرى الإنسان في القرآن يوصف بأنه عجول وكفور وجهول؛ أي من طبعه العجل والكفر والجهل.

وهذه الطبيعة المُتكرِّسة في ذات الإنسان تقتضي كفرانه، إلَّا مَنْ يتخلَّص من طبيعته هذه بجهد كبير.

وإنما (الكَفور) مفردة على وزن فَعول، وهي من الصفات المُشبَّهة التي تدل على الاستمرار. بمعنى أن الإنسان مُعرَّض في كل حين إلى كُفران من أنعم عليه، وقد يكون وزن فَعول (كَفور) للدلالة على المبالغة، أي أن الإنسان كثير الكفران.

وليس من شك في أن كُفران النعم ليس بالوزر البسيط؛ لأنه قد يسقط بصاحبه إلى حضيض الكفر المطلق، والكفر هذا يسوق الإنسان إلى حيث الأغلال والسعير وغضب الرَّبِّ الجبار.

وهذه الحقيقة تدفع بالإنسان إذا وعاها حقًّا أن يُجاهد نفسه، ليتحوَّل من طبيعة الكفر إلى واجب الشكر.

* * *

بصائر وأحكام

١ - إن الحياة كما وُهبت للإنسان، فلابد أنها سوف تُسلب منه في لحظة، وانتقال الإنسان من الحياة إلى مرحلة الموت انتقال حتمي.

٢ - يُحيي الله تعالى الناس بعد إماتتهم، للمثول أمام ساحة عدله المطلق في يوم القيامة، إذ يُرفع أمام كل إنسان كتاب خاص به، من شأنه أنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

٣- لا شك في إن كفران النعم ليس بالوزر البسيط؛ لأنه قد يُسقط صاحبه إلى حضيض الكفر المطلق، والكفر يسوقه إلى حيث الأغلال والسعير وغضب الرَّبِّ الجبار. وهذه الحقيقة تدفع بالإنسان إذا وعاها حقًّا إلى أن يجاهد نفسه ليتحوّل من طبيعة الكفر إلى واجب الشكر.

لكل أمة منسك

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧)﴾.

* * *

من الحديث

رُوي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. قال: «ذَبْحٌ هُمْ ذَابِحُوهُ»[1].

تفصيل القول

كيف يتسنّى لابن آدم أن يتخلّص ممّا لديه من طبيعة الكفر بالنعم، ليعيش في رحاب الشكر والإيمان؟

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، ج٢، ص٣٩١.

إذا كانت النفس البشرية نزَّاعة للكفر بالنِّعم، فإنَّ مَنْ وَضَعَ فيه هذه النزعة، لا ريب قد وضع له برامج كابحة لها، وقادرة على توجيهها إلى حيث التعافي منها.

إن حاجة الإنسان الجهول الكفور إلى الدين وإلى النظام التربوي والتثقيفي والاجتماعي ثم الاقتصادي والسياسي ليست حاجة كمالية، بل هي من أشد الضرورات، إذ من دونها لن يبلغ السعادة والفلاح.

وإذا كانت سائر الأحياء ماضية نحو غاياتها عبر ما فيها من غرائز، فإنّ الإنسان لا يُحقق غاياته إلَّا بالنظام الذي يلتزم به، ولذلك؛ حينما قال ربُّنا المتعال في الآية السابقة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾[1] فإنه سبحانه بَيَّنَ هنا برنامجاً مُتكاملاً لإصلاح الإنسان ذاته، وهذا البرنامج قد تمثَّل في قوله:

١- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾.

إذ الله لم يترك الناس سدى، بل بعث إليهم رسلاً، وأنزل معهم كتباً، ووضع لهم فيها برامج واضحة لإصلاح الإنسان.

ومن هنا يتَّضح خطأ الاسترسال مع الحياة من جانب ابن آدم؛ لأن هذا الاسترسال من شأنه القضاء على فرص السعادة لديه، ولا بد من أخذ المنهج الرباني بقوة، واتِّخاذه بمثابة الكوابح لطبائعه لكيلا يتعرَّض للهلاك، خصوصاً وأن المرء مهما التزم بالحق، ومهما قضى ردحاً طويلاً من حياته سائراً في الطريق الصحيح، إلَّا أنه يبقى مُهدَّداً بالهلاك لدى الاسترسال مع عوامل الإغواء واعتماد ثقافة التبرير؛ لأن البلاء محيط بابن آدم إحاطة السوار بالمعصم، ويجري الشيطان فيه

(١) سورة الحج، آية ٦٦.

مجرى الدم؛ بل إن مَثَل الإنسان في الحياة مَثَل مَنْ يمشي على مسلك دقيق على حافة جبل، فهو مُهدَّد بالسُّقوط عند تعرُّضه لأدنى دفعة، ولعل همزة واحدة من الشيطان تهوي به إلى حيث الدمار.

أما التوجُّه إلى الله واتِّباع المنسك المرسوم من قبله سبحانه وتعالى، فهو كفيل بتحصين الإنسان من الوساوس النفسية وإلقاءات الشيطان.

وعوداً على بدء، أقول: إن الله تعالى قد جعل لكل أمة منسكاً ومنهجاً يتناسب مع ظروفها وواقعها ووضعها، والحقيقة الأكيدة في الأمر أن المنهج يجب أن يكون مجعولاً بإرادة الله سبحانه وتعالى، فلا ينتفع البشر بمناهج وضعية، تأخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال.. إذ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(1)، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(2). هذا أولاً.

وثانياً: قد تكون ظواهر النُّسُك مُتعدِّدة ومُتفاوتة في صورتها، لتفاوت الحياة لدى كل أمة.. إلَّا أنها في الحقيقة تُمثِّل في جوهرها منهجاً واحداً.

فإحترام الأنبياء -مثلاً- مَنسك مُنزَّل من عند الله تعالى، إلَّا أن إظهار هذا الاحترام قد يختلف من أمة إلى أخرى، ولكن هذا النُّسُك يبقى أمراً واجباً مادام نقيًّا عن شوائب الشرك.

وعبارة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ إشارة إلى واجب الأمم بالتقيُّد بالمناسك لتضبطهم، وتُصفِّي ما خُلِق معهم من النوازع غير القويمة.

بلى؛ يجب الانضباط بالنُّسُك الإلهي المجعول لهذه الأمة أو

---

(1) سورة آل عمران، آية 19.
(2) سورة آل عمران، آية 85.

تلك، وذلك امتحان لأفرادها حتى تسقط عنهم الحجب، ويتبين ما لديهم من معدن نوراني أصيل.. وذلك عبر مكابدة الذات وبالعمل الصالح واتِّباع القيادة الرشيدة المختارة لهم من جانب الله عز اسمه.

وتعدُّد المناسك لا يعني بالضرورة إلغاء كونها نابعة من مصدر واحد، وإنما الرسالات السماوية حلقات تتكامل، حتى أن نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، لم يصفها القرآن المجيد بأنها رسالة إلغاء لما سبقها من الرسالات والنبوات إلغاءً تامًّا، بل هي مُكمِّلة لها ومُهيمنة عليها.

٢- ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾

فلا يحق لقوم الرسول المصطفى ﷺ أن يقولوا بأنه قد جاءهم بأمر جديد، فيتذرَّعون بهذه المقولة لتبرير إصرارهم على التشبُّث بالقديم من الثقافة والتقاليد، بل الرسول الأعظم إنما قد بُعث ليتمم للناس مكارم الأخلاق، إذ تبقى ناقصة من دونه ومن دون رسالته المباركة. إضافةً إلى أن هذه المكارم أضحت مُعرَّضة لفقدان محتواها الأصيل دون التصديق بنبوة الخاتم، نظراً لسمو مرتبة هذه النبوة، ولعظمة مكان المبعوث بها ﷺ عندالله سبحانه وتعالى.

٣- ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾

لما كان الله عز وجل هو غاية الغايات النبيلة والقدسية، فإن الدعوة ينبغي أن تكون باسمه وإليه دون سواه، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾(١).

(١) سورة آل عمران، آية ٦٤.

فلتكن الدعوة إلى الله الرَّبِّ، وإلى ما أمر به، وإلى تكريس روح الإيمان به في النفوس، بما فيها نفوس غير المسلمين؛ لأن تأثير هذه الدعوة -لا ريب- تأثير كبير في النفوس.

٤ - ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾

فإذا كانت الطرق المتوفرة لدى الأمم الأخرى، توصف قرآنيًا بأنها طرق مختلفة وعوجاء، بفعل ما طرأ عليها من التغيير والتحريف، فإنه وبفعل الثقل العظيم الذي تُمثِّله نبوة الخاتم ﷺ.. فإن طريق خاتم الأنبياء والمرسلين يبقى هو الطريق المستقيم، وهو الذي يصل بالإنسان إلى غاية هي أحسن الغايات.. والرسول لا شك هو قائد المسيرة التي تمشي (على) الطريق المستقيم.

* * *

بصائر وأحكام

١ - إن حاجة الإنسان الكفور إلى الدين وإلى النظام التربوي والتثقيفي والاجتماعي، ثم الاقتصادي والسياسي، ليست حاجة كمالية، بل هي أشد الضرورات؛ إذ من دونها لن يبلغ السعادة والفلاح.

٢ - من الخطأ الاسترسال مع الحياة؛ لأنه يسلب الإنسان فرص السعادة الأبدية. وعليه لا بد من أخذ المنهج الرباني بقوة، واتِّخاذه بمثابة الكوابح لطبائعه لكيلا يتعرَّض للهلاك.

٣- التوجُّه إلى الله تعالى واتِّباع المنسك المرسوم من قبله، كفيل بتحصين الإنسان من كل الوساوس الشيطانية.

٤ - إن الله تعالى جعل لكل أمة منسكاً يتناسب مع ظروفها. وتعدُّد المناسك لا يعني بالضرورة إلغاء كونها من مصدر واحد، وإنما الرسالات السماوية حلقات تتكامل.

اللّه أعلم بما تعملون

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

❊ ❊ ❊

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أَوْثَقُوا الْجَدَلَ»(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَالْجِدَالَ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الشَّكَّ فِي دِينِ الله»(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام لمحمد بن النعمان في حديث طويل: «يَا ابْنَ النُّعْمَانِ؛ إِيَّاكَ وَالْمِرَاءَ فَإِنَّهُ يُحْبِطُ عَمَلَكَ، وَإِيَّاكَ وَالْجِدَالَ فَإِنَّهُ يُوبِقُكَ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْخُصُومَاتِ فَإِنَّهَا تُبْعِدُكَ مِنَ الله»(٣).

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص١٣٨.
(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص١٣٨.
(٣) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٣٠٩.

تفصيل القول

يُميِّز الرسالات الإلهية عن غيرها من المناهج الوضعية أنها تستنطق الوجدان، وتُحاكم الإنسان لدى محكمة فطرته.. وهذه الميزة العامة تتجلَّى في الرسالات الإلهية لدى الصراع الفكري مع غيرها.

وتفصيل هذه الحقيقة: إن في وجدان كلٍّ منا فطرة الإيمان بالله، ذلك الإيمان الذي يتشعَّب منه الإيمان بأسمائه الحسنى وسُننه الحكيمة ووصاياه وأحكامه، ومن هنا فإنك ترى كل إنسان يُقرُّ في وجدانه بأن الله تعالى هو الخالق، وهو ذو القدرة المحيطة والمهيمنة على الخلق أجمعين.. وكذلك يُقرُّ -بفطرته- أن هناك سنة العدل، إذ يُحاكم الجميع في يوم القيامة. وهذا يعني أن فطرة كل إنسان تحتوي على المعالم الأساسية لدين الله في خلقه، أما التفاصيل، فيعتمد التأكُّد منها على الأنبياء عليهم السلام المبعوثين من قبل الله تعالى إلى البشر، ثُمَّ أوصيائهم من بعدهم صلوات الله عليهم.

١ - ﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ﴾.

وحيث تطرَّقت الآية السابقة إلى واقع تشعُّب الناس إلى مشارب، واعتناقهم تصوُّرات شتى، فإن المحصلة المنطقية لهذا التنوُّع الحاصل حدوث تنوُّع الآراء والأفكار.. وكذلك تفاوت درجات تمسُّك الناس بهذا الرأي أو تلك الفكرة.

ومن هنا فإن الواجب على المؤمنين تجنُّب الجدال المثير للعصبيّة. وبالرغم من شدة إيمان المؤمنين بدينهم ووضوح يقينهم بما فيه من التعاليم، فعليهم ألَّا يدعوهم ذلك إلى مواقف مُتشدِّدة أو تعابير

قاسية، بل لا بد أن يظل نهجهم أخلاقيًا يُرجى منه احتواء الصراع وتحويل دفة حراكه إلى حيث نشر الكلمة الصادقة والعمل الصالح، والاستمرار بالدعوة إلى المحور الجامع للكل، وهو الإيمان بالله الخالق والعليم بمجريات الأمور، لكيلا يدعو الكفار تعصبهم إلى العناد.

ولما كانت غالبية الأفراد المتحاورين، أو الواقفين موقف التلقّي للنصيحة، تنظر إلى طبيعة المُتكلِّم قبل نظرها إلى طبيعة الكلام، فإن القرآن المجيد يأمر أتباعه بملاحظة هذا الواقع البشري الثقافي، وبالتالي، فهو يُلقي عليهم مسؤولية التخلُّق بأخلاق الحوار المنطقي الهادف إلى بلوغ النتيجة المنطقية، بعيداً عن زجِّ الحوار إلى حيث استعراض الشخصية، إذ الداعي إلى الله يُفترض فيه التجرُّد التام لدى الحوار عن ذاته.

قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «تَوَاضَعُوْا لِمَنْ تَتَعَلَّمُوْنَ مِنْهُ العِلْمَ، وَلِمَنْ تُعَلِّمُوْنَهُ، وَلَا تَكُوْنُوْا مِنْ جَبَابِرَةِ العُلَمَاءِ فَلَا يَقُوْمُ جَهْلُكُمْ بِعِلْمِكُمْ»(١).

فإذا كانت الفطرة الإنسانية لدى جميع أشكال البشر تُنادي بالإيمان بالله، وحتى بوحدانيته.. فلا مُبرر للداعية إلى الله أن يخلط الأوراق عبر ارتكاب الأخطاء عند الدعوة. ومن أولى ملامح خلط الأوراق، اعتماد سُبل التكبُّر، وعدم التسلُّح بسلاح العلم، ورغبة الداعي في تحويل الحوار إلى معرض للذات أو المذهب أو الحزب أمام من منعته الظروف عن سماع نداء الفطرة النزيهة.

وقد نسب السياق الجدال إلى الآخرين، حيث يُتوقَّع أن

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص٢٠٢.

يُعارضوا الدعوة، لأنهم بعيدون عن فضائل الأخلاق عادةً، فإن من المتوقع أن يجروا الحوار إلى حالة من الجدل، و بغير التي هي أحسن.

فإذا بلغ الحوار إلى هذه الدرجة، فإن المطلوب أَلّا يُذهِب الداعية نفسه عليهم حسرات، إنما إيكال الأمر إلى الله إيذاناً بنهاية الكلام والتحاكم إلى العمل الصالح.

٢- ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

لعل عبارة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تدل على أن الجدل حول الكفر والإيمان لا يبقى في إطار نظري، بل يتجاوزه إلى العمل، ولذلك نجد السياق جاء بصيغة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

بصائر وأحكام

١- يُميّز الرسالات الإلهية عن غيرها من المناهج الوضعية، أنها تستنطق الوجدان، وتُحاكم الإنسان لدى محكمة ضميره وفطرته.

٢- على المؤمنين تجنُّب التعالي على الناس بالكلمة. وبالرغم من شدة إيمانهم ووضوح يقينهم فعليهم أَلّا يدعوهم ذلك إلى مواقف مُتشدِّدة، بل لا بد أن يظل نهجهم أخلاقيًّا يُرجى منه احتواء الصراع وتحويل دفة حراكه إلى حيث نشر الكلمة الصادقة والاستمرار بالدعوة إلى الرَّبِّ الخالق والعليم بمجريات الأمور، لكيلا يدعو الكفار تعصبهم إلى العناد.

اللّه يحكم بينكم يوم القيامة

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾.

***

تفصيل القول

على المؤمن ألّا يحبس نفسه في دائرة الجدل مع الكفار، إنما ينطلق إلى ما هو أوسع من ذلك بكثير؛ أي دائرة يوم القيامة والمالكية الربانية المطلقة، والعدل الإلهي التام.. فلا يصح لمؤمن اعتبار نصره في الدنيا، نصراً نهائيًا، إذ النصر النهائي للمؤمن يتحقّق في يوم القيامة.

وعلى المؤمن الاستقامة على الهدى، والإصرار على قول الحق إصراراً متواصلاً، وعدم التنازل عن الحقائق الربانية بالاسترسال مع خرافات البشر وعليه ألّا يسعى من أجل التوفيق بين ما هو إلهي وما هو شيطاني؛ لأن ذلك يتناقض جذريًا مع الدعوة إلى مبادئ القرآن الكريم.

إن جهـاد الأنبياء وأوصيائهـم عليهم السلام يصب في إطار التمييز بين الحـق والباطـل، لتتجـلّى الحجة البالغة لله سـبحانه وتعـالى على البشر، ويتم الفصل بين قيم الحق ووساوس الشيطان، لكي يتسنّى لمريد الحق أن يعرفه فيتّبعه، ولكيلا يبقى مجال لمريد الباطل أن يُلبس باطله بالحق، فيخدع نفسه والآخرين.

نعـم؛ إن الأنبياء والأئمة ومن بعدهـم العلماء الربانيين لم يقبلوا أبداً بفصل الدين عن الحياة، كما لم يقبلوا خلط الحق بالباطل.

وليكـن في حسـبان الداعـي إلى الله عز وجـل أن الاختلاف بين السـبيلين؛ سبيل الحق وسـبيل الباطل، لن يُحلّ في الدنيا مادامت الدنيا دار فتنـة وابتـلاء، وما دام الشـيطان يوسـوس في الصـدور، ومادامت النوازع النفسية تأمر بالسوء، وإنما تُكشف الحقائق واضحة يوم القيامة. وواجب المؤمن الاهتمام بإصلاح نفسه، وبالتوجُّه إلى الآخرين بالدعوة إلى الخير والحق، ومن ثم إرجاع الأمر إلى رَبِّ العباد دون سواه.

بصائر وأحكام

١- عـلى المؤمن الاسـتقامة عـلى الهدى والإصرار عـلى قول الحق إصراراً متواصلاً، وعدم التنازل عن الحقائق الربانية استرسـالاً مع بعض الخرافات؛ لأن ذلك يتناقض جذريًا مع الدعوة إلى مبادئ القرآن الكريم.

٢- إن الأنبيـاء والأئمـة ومن بعدهم العلـماء الربانيين لم يقبلوا أبـداً بفصل الديـن عن الحياة، وبخلط الحق بالباطـل، وذلك لكي تتم الحجّة على الكافر وتتوفر الفرصة للمؤمن.

إن ذلك في كتاب

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

* * *

من الحديث

عن منصور بن حازم، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قُلْتُ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَيْسَ كَانَ فِي عِلْمِ الله؟

فَقَالَ: «بَلَى؛ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ»(١).

وقال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «عِلْمُ الله لَا يُوصَفُ مِنْهُ بِأَيْنٍ، وَلَا يُوصَفُ الْعِلْمُ مِنَ الله بِكَيْفٍ، وَلَا يُفْرَدُ الْعِلْمُ مِنَ الله، وَلَا يُبَانُ الله مِنْهُ، وَلَيْسَ بَيْنَ الله وَبَيْنَ عِلْمِهِ حَدٌّ»(٢).

---

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص١٣٥.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص١٣٨.

تفصيل القول

١ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾

ينساب جواب هذا الاستفهام في الذهن بصورة فطرية. كيف؟ بالنظر إلى ما في السماوات والأرض، حيث بقوله ربنا سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإذا التفت المرء التفاتة بسيطة إلى السماء والأرض، وتقدير الله وتدبيره لهما، وإحاطته بدقائقهما؛ سيعي كيف يعلم الله كل شيء، وكيف أنه هو محيط بما في السماوات والأرض، أوَلَيس هو الخالق لهما والمُدبِّر لشؤونهما؟.

إن علم الإنسان بعلم الله من شأنه أن يُغيِّر سلوكه تغييراً جذريًا، إذ إن تذكُّر هذه الحقيقة يردع ابن آدم من اتِّباع هواه، ويجعله قادراً على كبح جماح نفسه، لئلا ينساق مع ضغوط غرائزه، ويتمكَّن من ضبط تصرُّفاته وسلوكه وفق قيم الوحي. وهذا العلم -لا شك- يكون أكبر عون للإنسان على نفسه الأمَّارة بالسوء.

٢ - ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

بلى؛ إن الله تبارك وتعالى عالم بكل شيء؛ لأنه خالق كل شيء، وهو الذي سنَّ لكل شيء منهجه الذي به يبدأ وفيه يعيش وإليه ينتهي، حتى أنه يعلم بدبيب النمل على الصفا، ويعلم وزن الهواء ووزن الضياء.. وما من ورقة رطبة أو يابسة تسقط إلَّا بعلمه الذي يتضمَّن الإحاطة بالأنظمة اللطيفة التي تحكم هذه الورقة، وما الذي سوف يحدث من أثر بسبب بقائها على الشجرة أو سقوطها إلى الأرض، ويعلم بولادة الناس ومماتهم، وكيف يُولدون وكيف يموتون ومتى؛

لأنـه هو الباعـث فيهم روح الحيـاة، وهو القابض لهـذه الروح.. رغم تباين الأشـياء واختلافها، بدءاً من أصغر خليـة فيها وانتهاءً بمظهرها ومصيرهـا، حتى أنه يعلم علـماً دقيقاً بما تحتويه الجينـات الوراثية لكل شخص، وكأن تقدير الله وإحصاءه مكتوب على كل جينة منها.. ولعلّ يوماً من الأيام يتعرَّف البشر تاريخ أجدادهم وأسـلافهم، إذا ما تمكَّنوا من قراءة الجينات بشكل دقيق.. ولقد قيل في وصف ما تحويه كل جينة بشرية: إنها تحوي من المعلومات ما يفوق حجمها حجم أكبر مكتبة في العالم؛ أي أن حجمها أكثر من حجم عشرات الملايين من الكتب.

وليـس أحد غير الله تعالى، هـو الذي أثبت في كل جينة ما تحويه من المعلومات؛ لأنه خالقها ومُدبِّر أمرها، فهو يعلم بها علماً تفصيليًّا.

وليـس مـن عجب في أن يكـرم الله البعض من عبـاده بجزء من هـذا العلم، وحتـى بجميعه، وهو القائل سـبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1]، لما لروح هذا الإمام من اتصال بالملكوت.

وعلـم الله تعـالى بالحقائـق لم يسـبقه جهل ولا يشـوبه غموض ولا يحـدُّه شيء. من هنا لا نسـتطيع أن نقول بـأن الله يعرف؛ لأنَّ علمه لم يسـبقه جهـل حتى يعرف شـيئاً بعد جهله سـبحانه، لأنَّ علمه -عز اسـمه- علـم محيط وسـابق، وهـو كان يعلـم إذ لم يكـن شيء، وعلمه بالظلام كعلمه بالنور، وعلمه بما يأتي كعلمه بما سبق.

٣- ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾

إنَّ علـم الله تعـالى بـكل شيء منعكـس في كتـاب، فـما هـو هذا الكتاب؟.

(١) سورة يس، آية ١٢.

أقـول: إن علم الله تعالى ليس بالضرورة أن يقتصر عليه وحده، وهـو المُتفضِّل على عباده والمخلوقات بالجـود والكرم والحكمة.. وقد بثّ علمه في الموجودات وعلى نسب متفاوتة.

وقـد ورد في تأويل ﴿كِتَٰبٍ﴾ أنه الإمـام الذي أكرمه الله بالعلم ليكـون خير وسـيلة يهتدي بها المهتدون، وليكون لـه الفضل على غيره من أدعياء السلطة ومريدي القيادة.

إن أحـد جوانـب تمتـع النبـي والإمام بعلـم الله، أن تحـل عقدة بشرية عتيدة تتمثّل في السبيل إلى معرفة خالقهم، هذه العقدة التي يُبرِّر بهـا الجُهّال ابتعادهـم عن الله عز وجل؛ حتى أنك لترى بعضهم يدّعي حب الله، ولكنه يجهل طريق الوصول إليه والوسيلة التي تُقرّبه منه.

وهكـذا أفاض الرَّبُّ مـن علمه على أوليائه ليكونـوا أدِلّاء على سـبيله ودعاة إليه سبحانه. ولذلك صار لزاماً في صحة الدعاء وشرط قبولـه أن يتقـدَّم الداعـي بذكر من أرادهـم الله تعـالى وجعلهم أبواب رحمتـه، وهم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، إذ الصلوات هذه ترفع الحجب المانعة دون السمو إلى الله تعالى.

هكذا أراد الله أن يجعل إلى رحمته وسيلة، وإلى الاستجابة طريقاً، وإلى العلم أبواباً.. تماماً كما جعل الشمس مصدراً لنور الأرض ودفئاً، ولا يمكن لأحد أن يلتمس ضوءاً من دون الشمس.

ولا يتنافى أن يكون علمه سـبحانه عنده وعند بعض من خلقه، مثـل أن يُلقـى إلى الإمـام، أو يُثبت في كتـاب، أو يكون لـدى جبرئيل الأمـين عليه السلام.. وعلـم الكتـاب هـذا، منوط أبـداً بإرادة الله سـبحانه وتعالى وله وحده أن يُغيِّره.

٤ - ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

أي: إن إحاطة الله تعالى علماً بكل الأشياء وما وراء الأشياء وما بعد الأشياء، وإن إمكانية إلقاء جزء من العلم إلى إمام أو كتاب أو ملك أو لوح محفوظ وغير ذلك.. إنما هو يسير على الله تعالى؛ إذ لا يصعب على الرَّبِّ الخالق شيء.

وقد كانت قدرة الله سبحانه موضع تساؤلات عند البشر لجهلهم آفاق تلك القدرة التي لا تُحَدّ.

وهكذا جاء رجل إلى الإمام الرضا عليه السلام فقال: هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي بَيْضَةٍ؟

قَالَ: «نَعَمْ؛ وَفِي أَصْغَرِ مِنَ البَيْضَةِ، قَدْ جَعَلَهَا فِي عَيْنِكَ وَهِيَ أَقَلُّ مِنَ البَيْضَةِ، لأَنَّكَ إِذَا فَتَحْتَهَا عَايَنْتَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَلَوْ شَاءَ لأَعْمَاكَ عَنْهَا»[١].

وكان الإمام قادراً، وهو العالِم بعلم الكتاب، أن يقول -لو كان السائل ذا عقلية أوسع-: بأن الله حقّاً قادر على أن يضع الكون كله في مثل بيضة. أوَلَيس ربُّنا تعالى قد خلق الكون كله بدءاً من حجمه الذي كان كما البيضة، ولكنه تعالى جعل فيه قابلية التوسُّع والتمدُّد بقدرته التي لا تحدُّها حدود، بل وما قيمة الكون وغير الكون بالنسبة إلى قدرة الله ومشيئته، سبحان الله عما يصفون.

وهذا العلم المحيط وهذه القدرة اللامتناهية تجعل ابن آدم، لو وعاها، يعيش حياةً رشيدة، بعيداً عن الغفلة وعن الاستسلام لضغوط

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص١٣٠.

المادة ونوازع الذات ووساوس الشيطان.

* * *

بصائر وأحكام

١- إن الله تبارك وتعالى عالم بكل شيء؛ لأنه خالق كل شي، وهو الذي سنَّ لكل شيء منهجه الذي به يبدأ وفيه يعيش وإليه ينتهي.

٢- علم الله تعالى بالحقائق لم يسبقه جهل ولا يشوبه غموض ولا يحدُّه شيء.

٣- ليس بالضرورة أن يقتصر علم الله سبحانه عليه وحده، أوَلَيس هو المُتفضِّل على عباده والمخلوقات بالجود والكرم والحكمة.. وقد بثَّ علمه في الموجودات وعلى نسب متفاوتة.

٤- إن أحد جوانب تمتُّع النبي والإمام بعلم الله، أن تحل عقدة بشرية عتيدة تتمثَّل في السبيل إلى معرفة خالقهم.

ما للظالمين من نصير

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْ أُمَّتِي وَهَمُّهُ غَيْرُ الله فَلَيْسَ مِنَ الله»(١).

ورُوي عن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، مَنْ أَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لَمْ أَقْبَلْهُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصاً»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا مِنَ الشَّرِّ شَيْءٌ:

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٥٨.
(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١، ص٤٤.

الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالضَّرُّ لِعِبَادِ اللهِ»[1].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «أَدْنَى الشِّرْكِ أَنْ يَبْتَدِعَ الرَّجُلُ رَأْياً فَيُحِبَّ عَلَيْهِ وَيُبْغِضَ»[2].

تفصيل القول

قد يعبد الإنسان أرباباً من دون الله عز وجل من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر؛ فهو تارة يشرك بالله صراحة، كأن يتّخذ لنفسه صنماً إلهاً، وتارة أخرى تراه يتوجّه إلى الله بطرق ملتوية لا يرتضيها الرَّبُّ المتعال، كأن يخترع ديناً من نفسه ويدين الله به، أو ينسب إلى الله ما هو مُنزَّه عنه سبحانه.

فالآية السابقة محطّ التدبر، تُشير إلى أن علم الله تعالى علمٌ واسع، لا يصح تجزئته، كأن يقال: لله علم سابق بالأشياء، وعلم لاحق بأفعال الأشياء وحركتها. أو يقال -خطأً-: إن الله تبارك وتعالى بخيل بعلمه، وضنين به أو ببعض علمه على خلقه، أو بعض خلقه من الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحين.. فيما الله عز اسمه قد فتح باب الغيب للبشر، ولكنهم هم الذين يحجمون عن ولوجه، فهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[3] والقائل (عز من قائل): ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[4]. وهو الواصف رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[5].

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٣٥.
(٢) المحاسن، الشيخ البرقي، ج١، ص٢٠٧.
(٣) سورة التكوير، آية ٢٤.
(٤) سورة الحشر، آية ٧.
(٥) سورة النجم، آية ٣ - ٤.

والوحي لا شك غيب من الغيوب، ونحن نعلم -ضمن المُسلَّمات الدينية- أن القرآن الكريم كان نصًّا غيبيًّا مخزوناً في اللوح المحفوظ، ثم أنزله تبارك وتعالى على قلب الحبيب المصطفى نصًّا ظاهراً ومعنىً باطناً.. وكما أن الرسول الأعظم ﷺ كان مأموراً بأن لا يعجل بتلاوته والإفصاح عنه لحين وقته حيث يقضى إليه وحيه، تبعاً لإرادة الله وحكمة الإبلاغ؛ كذلك فإن الرسول الأكرم ﷺ، لم يُؤاتِهِ أن يُوضِّح كل معاني وغيب القرآن في فترة حياته الكريمة.. فأوكل -بأمر الله تعالى أيضاً- تبيين آفاق القرآن المجيد إلى الأئمة من بعده، باعتبارهم موضع سرّ الله وخزنة علمه والأمناء على معالمه.. فترى النبي ﷺ قال في الحديث المتواتر: «أَنَا مَدِيْنَةُ العِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا»(1). وهو لم يقل ذلك محاباةً لابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام القائل: «سَلُوْنِيْ قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُوْنِيْ»(2).

وهذه هي حال الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين خلفوا عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه أبواب العلم التي فتحها الرَّبُّ سبحانه لعباده، ولكن كثيراً منهم تجاهلوها فحرموا أنفسهم من العلم.

١ - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾

إذاً ربُّنا سبحانه قد فتح للبشر أبواب العلم، ودلَّهم على سبل العروج إليه، ووفَّر لهم فرصة الرُّقي إلى رضوانه، ولكنهم أهملوا فولجوا أبواباً أخرى وأشركوا بالله ما لم يعلموا. وهذا معنى عبادة ما لم يُنزِّل الله به سلطاناً وهو عبادة الله بغير علم، وهذا هو الظلم الكبير. ولكن لماذا اتَّخذ الظالمون ولائج من دون الله؟ ففيما يلي بعض التفصيل.

أولاً: إن غرور الإنسان بسبب جهله أو غفلته، أو بسبب أنانيته، أو

(1) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٥٧٤.
(2) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٩.

بسبب اتّباع شهواته، قد يجعله يظن أنه يعلم كل شيء.. وهكذا يفقد الرغبة في تدبر القرآن، ناهيك عن النصوص الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام؛ يفقد الرغبة في البحث عن الحقائق بموضوعية، حتى ينتهي به الأمر لأن يقع في شَرَكِ الشِّرْك، فيتيه في الطرقات الملتوية فيعبد أرباباً من دون الله.

ثانياً: لما كان الإنسان يستحلي التهرُّب من مسؤولياته، فإنه آلى على نفسه أن يتهرَّب من كل ما هو علمي ومنطقي، ذلك لأن العلم والعقل يُفضيان إلى تحمُّل المسؤولية، مسؤولية أن يكون الإنسان إنساناً، خاضعاً لإرادة الرَّبِّ الخالق، مُتحمِّلاً لمسؤولية أداء الأمانة المُلقاة على عاتقه ككائن مُكرَّم.

ثالثاً: إنّ الطريق إلى الله سبحانه وتعالى يتمثَّل في طريق الهدى، وطريق الهدى طريق واحد، فهو صراط مستقيم وليس سبلاً مُتعدِّدة، كما يحلو لبعض المُتهرِّبين عن المسؤولية أن يتصوَّروا.

ما هو السلطان؟.

إن السلطان المشار إليه في الآية ليس هو الثروة والقوة، بل هو الدليل الواضح، وما لم يجد الإنسان هذا الدليل الواضح والقاطع، فإنما عمله في ضلال.

وهذا الدليل القوي؛ ليس سوى شرع الله تعالى، الذي نصَّ على ضلالة الخروج عليه، ومعلوم أن من شرع الله تعالى تفويض جماعة من المصطفين الأخيار لغرض إبلاغه وتبيينه، بعد أن صيَّرهم أُسوة حسنة لمن يُريد اتّباعهم.

فأنّى للإنسان أن يهجر شرع الله، ويستخف بمن اختارهم الله، أو يُولّي ظهره لبعضهم، ثم يُقبل على دُعاة السوء، وهو مع ذلك يدَّعي النور والصلاح والنجاح، أو يدعو غيره لانتهاج سبيله؟

إنّ الاجتهادات الخاطئة التي انبعثت من الغرور لا تهدي الإنسان إلى ساحل النجاة، ولا التعصب الأعمى يهدي إلى صراط سويّ، إنما البرهان الحق هو سبيل النجاة.

٢ - ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

حيث يتخذ الإنسان أرباباً من دون الله، ويعبدهم من دون علم، فإنه لا شك يكون ظالماً، فلا يجد له نصيراً من دون الله عز وجل، لأنه اختار بإرادة تامة السير في طريق الضياع، حيث لا نهاية مرجوّة ولا غاية صالحة واضحة.

فلا يأمن المرء مكر الله، ولا يظن أن الله سوف يُنجيه -بلا سبب- من ضلاله.. كَلَّا؛ إنه سيبقى في تيه الضلالة؛ لأنه اختار العمى على الهدى ولم يبحث في دينه عن سلطان مبين.

* * *

بصائر وأحكام

١ - لقد فتح الله سبحانه للبشر أبواب العلم، ودلَّهم على سبل الولوج إليه، ووفّر لهم فرصة الرُّقي إلى رضوانه.. ولكنهم أهملوا كل ذلك وولجوا أبواباً أخرى مما قادهم إلى الشرك بالله العظيم.

٢ - حين يتَّخذ الإنسان أرباباً من دون الله، ويعبدهم من دون علم، فإنه لا شك يكون ظالماً، فلا يجد له نصيراً من دون الله عز وجل، لأنه اختار بإرادة تامة السير في طريق الضياع.

النار موعد الكافرين

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ قَالَ: «كَانَ الْقَوْمُ إِذَا نَزَلَتْ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام آيَةٌ فِي كِتَابِ الله فِيهَا فَرْضُ طَاعَتِهِ أَوْ فَضِيلَةٌ فِيهِ أَوْ فِي أَهْلِهِ، سَخِطُوا ذَلِكَ وَكَرِهُوا حَتَّى هَمُّوا بِهِ وَأَرَادُوا بِهِ الْعَظِيمَ، وَأَرَادُوا بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله أَيْضاً لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، غَيْظاً وَغَضَباً

وَحَسَداً حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ»[1].

تفصيل القول

إن الموقف المُسبق هو من أخطر ما يحجب المرء عن الحقائق، بما فيها الآيات الواضحة المبصرة.. حتى لتعود غير ذات نفع؛ مهما تُليت عليه.

١ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾

فالآيات تُتلى؛ الواحدة بعد الأخرى؛ وتتوالى حتى لا يتسنّى لأحد تكذيبها أو الإعراض عنها.

ثم إن تلك الآيات بيِّنات، وليست غامضة أو مُتشابهة لتكون للمُكذِّب فسحة تبرير في ردِّها.

وحينما يسمعونها يتحمّلون مسؤولية جسيمة؛ لأنهم لا يعودون إذ ذاك جاهلين، ليقال: إن الجاهل معذور. كَلَّا؛ إن الآيات تُلِيَت عليهم بوضوح.

ثم إن الذين كفروا كانوا قد طلبوا بأنفسهم من الرسول الأكرم ﷺ أن يأتيهم بآيات مُبصرة، فجاءهم بآيات قرآنية واضحة، كما قدَّم إليهم المُعجزة تلو المُعجزة.. ولكنهم أعرضوا عنها لموقفهم المُسبق منها.

ولقد قضت إرادة الله سبحانه وتعالى بأن من يطلب الآية، ثم

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢٤، ص٣٦٢.

يُعرض عنها بعد أن عرفها، يُعجّل إليه عذاب الله عز وجل، وهو يختلف عمن لا يطلب آية ثم يكفر بها إذا جاءته.. وقد قصَّ علينا القرآن قصص أقوام تحدَّوا أنبياءهم وطلبوا إليهم إظهار المُعجزة، ثم حينما جاءتهم الآيات مُبصرات، كفروا بها وأعرضوا عنها، فجاءهم العذاب بغتة.. غير أن مكانة النبي المصطفى ﷺ ومقامه عند الله، كان حائلاً دون نزول العذاب (المباشر) والعاجل بقومه.

والسؤال: لماذا يُعجّل العذاب على من طلب الآية ثم كفر بها؟

لعل حكمة ذلك أن من العلم الذي تحويه آيات الله ما لا يحتمله الناس جميعاً، فإذا طلبه من لا يحتمله، كان وبالاً عليه، لأنه سوف يكفر بها وسوف يتحمَّل وزر ما اتَّخذه من الموقف السلبي المُسبق تجاه الآية، ذلك الموقف الذي وصفناه أعلاه بأنه أخطر ما قد يحيق بالإنسان.

إن للإنسان في نفسه ثلاث قوى:

الأولى: قوة العقل وجنوده.

الثانية: قوة الجهل وجنوده.

الثالثة: قوة الإرادة.

وفي لحظة الاختيار بين ما يُمليه العقل وما يمليه الجهل، يُزَوَّد الإنسان بقدرة هائلة، هي الإرادة الحرَّة التي يُحدِّد الإنسان مصيره بها؛ إن خيراً أو شرًّا.

مفارقة بين موقفين:

وحينما يريد البشر الخير يرفعه الله سبحانه إلى درجات العلى، بينما عندما يريد الشر يردُّه إلى الدرك الأسفل. وإليك مفارقة بين موقفين:

فهذا النبي إبراهيم عليه السلام طلب من الربّ أن يُريه ملكوت السماوات، فاختار ربّه المتعال على كل الدنيا، بل إنك تراه كيف أحجم عن طلب المساعدة من أي شخص عندما كان أقرب ما يكون إلى نار نمرود، وبعد أن عرضت الملائكة عليه أنواع العون، وإنما اكتفى بالتوكُّل على الله.

هذا موقف الذي رفعه الرَّبُّ إلى الدرجات العُلى فأسلم نفسه لربّه، بينما ترى الموقف المعاكس عند ذلك الأعرابي الناصبي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عذاباً واقعاً إذا كان أمره صلى الله عليه وآله لولاية الإمام علي عليه السلام قد نزل عليه من الرَّبِّ سبحانه، فنزل عليه العذاب العاجل، لأنه طلب الآية على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كان رافضاً له مُسبقاً، فكان فيها هلاكه.

٢- ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾

لقد تُليت عليهم الآيات، ولكنهم كانوا قد رفضوها -في أنفسهم- رفضاً مسبقاً، وبسبب عجزهم عن مواجهتها والردِّ عليها بالدليل الصادق، ظهر كفرهم على ملامحهم، حتى بان عليها بكل وضوح، وتكشَّفت سرائرهم البغيضة.. بل إن حياتهم برمتها أضحت مطبوعة بطابع الكفر والحنق والحسد وكل السلبيات، رغم بلوغ الآيات الشريفة إلى أسماعهم وأنظارهم، ولم يتكلَّفوا البحث عنها، ولم يأبهوا بإلقاء الحجة البالغة عليهم.

والمنكر: يعني إنكار الشيء، وعدم قبوله.

٣- ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾

فإنهم بغضاً منهم للحقيقة كادوا يفتكون بالذين كانوا يتلون

عليهم الآيات.. مثلهم في ذلك، مثل المريض الذي يتحامل على الطبيب حينما يصارحه بإصابته بمرض خطير، إذ بدلاً من أن ينصاع لنصائح الطبيب، تراه يرميه بتهمة الجهل والتقصير.

إنهم يرفضون الآيات سلفاً.. ولكن لماذا؟.

لأنها تخالف سلوكهم وأفكارهم، ولكنهم يجهلون المصير الحتمي الذي سيؤولون إليه.

٤- ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ﴾

أي: أكثر سوءاً مما تتشاءمون منه هو النار؛ لأنها أسوأ من العار الذي تخشون منه إذا اعترفتم بالخطأ، وأسوأ من الخسائر التي تتوقعونها بعد الإيمان مثل خسارة الموقع الاجتماعي أو الثروة أو بعض شهوات الدنيا.

النار هي مُنتهى الشرّ وغاية العقاب الذي يحيق بمن اختار المقت لنفسه في الدنيا، بعد أن أعرض عن الآيات وكاد بالذين يتلونها كيداً.

٥- ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

إن العاقل يقيس عند الاختيار طرفي الأمر ومدى الربح والخسارة فيهما؛ ولا خير في خير بعده نار جهنم، ولا شر في شر بعده نعيم الجنة.

* * *

بصائر وأحكام

١ - من أخطر ما يحجب المرء عن الحقائق، بما فيها الآيات الواضحة المُبصرة، مهما تُليت وعُرِضت؛ إنه الموقف السلبي المُسبق منها.

٢ - لقد قضت إرادة الله سبحانه بأن من يطلب الآية ثم يُعرض عنها بعد أن يعرفها، يُعجّل إليه عذاب الله عز وجل.

٣- في لحظة الاختيار بين ما يمليه العقل وما يمليه الجهل، يُزوَّد الإنسان بقدرة هائلة، هي الإرادة الحرة التي يُحدِّد بها الإنسان مصيره؛ إن خيراً أو شرًّا.

ضعف الطالب والمطلوب

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كَانَتْ قُرَيْشٌ تُلَطِّخُ الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ، وَكَانَ يَغُوثُ قِبَالَ الْبَابِ، وَكَانَ يَعُوقُ عَنْ يَمِينِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ نَسْرٌ عَنْ يَسَارِهَا، وَكَانُوا إِذَا دَخَلُوا خَرُّوا سُجَّداً لِيَغُوثَ وَلَا يَنْحَنُونَ، ثُمَّ يَسْتَدِيرُونَ بِحِيَالِهِمْ إِلَى يَعُوقَ ثُمَّ يَسْتَدِيرُونَ بِحِيَالِهِمْ إِلَى نَسْرٍ، ثُمَّ يُلَبُّونَ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ.

قَالَ: فَبَعَثَ الله ذُبَاباً أَخْضَرَ لَـهُ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ الْمِسْـكِ وَالْعَنْبَرِ شَـيْئاً إِلَّا أَكَلَهُ، وَأَنْـزَلَ الله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾»(١).

تفصيل القول

من طبيعة الدنيا أنهـا تُغلِّف الحقائق وتحجبها بحجاب الغرور، ولن يصل الإنسان إلى حقيقة ما، ما لم يزح عن بصيرته ذلك الحجاب. والآية هذه لو تأمّلنا فيها تُعيننا في كشف هذا الحجاب.

١ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾

وهـذا الخطـاب كـما تـرى خطـاب إلى أجيـال البشريـة عامـة، ويسـتفيد منه المؤمن وغير المؤمن إن شاء، على اعتبار أن عجلة الغرور تسحق كل من يُصادفها وفي كل حين.

وضَرْب المثـل في هـذه الآيـة، يُشـير إلى منهـج قـرآني رائـع في الانطـلاق مـن الواقـع، وبأبسـط صـوره، لتجسـيد الحقائـق الكبرى، وهكذا للتعبير عن حكم إلهي جار في حياة أهل الأرض.

ومن هذه الأمثال ألّا نخدع أنفسـنا، فنكتفي بمظاهر الأشـياء، دون البحث عن بواطنها.

فمثـلاً؛ علينا ألّا ننخدع بـما يفعله الحكام الظَّلَمة من أفعال بُغية التظاهـر بالقـوة غـروراً، بينما واقعهم خـواء، لأنهم -مهـما تعاظموا- فإنهم بالتالي بشر ضعفاء.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص٥٤٢.

٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

الخطاب القرآني في هذا السياق عام يشير إلى كل من يتخذ لنفسه صنماً ظاهراً أو باطناً (الطغاة أو هوى الأنفس). ولذلك بدأ الخطاب بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا يشمل حتى المؤمن الذي ليس معصوماً، فقد يُلبس إيمانه بظلم، مثل أن يقصد الطبيب لمعالجة مرضه، ثم يظنه هو الشافي دون أن يعرف أن ربَّه هو الشافي وإنما الطبيب وسيلة فحسب.

وهكذا فإن أزمة البشر العقائدية تتمثَّل في أن الغالبية منهم يَدْعُون بشراً مثلهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

ولكن أولئك البشر هم مثلهم في ضعف محيط، وأنهم:

٣- ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾

بلى؛ إنهم عاجزون عن خلق الحياة، حتى قيل: إن كبار العلماء اجتمعوا ووفروا ما لهم من أفكار وبحوث ووسائل لصناعة حبة عدس واحدة.. وبعد بذلهم وقتاً مديداً استطاعوا صناعة حبة لها بعض خواص حبة العدس، ولكنهم حينما زرعوها، لم تخضر وتبين لهم أنها خالية من الحياة.

فالبشر مهما تجبَّر وطغى بعلومه واكتشافاته واختراعاته.. لن تكون له القدرة على بث الحياة، بما في ذلك في مثل هذا الذباب الذي يستحقره الناس ويتصوَّرنه بسيطاً، بل إنه يُشكِّل حلقة هامَّة في سلسلة حلقات الحياة، حيث إنه يعيش على القذارات المُضرة كما يقضي على بعض الجراثيم.

بلى؛ إن الله تعالى جعل في مقدور الإنسان أن يصنع الآلات غير

الحية، مثل السيارة والطائرة.. ولكن البشر يبقون عاجزين عن خلق طائرة مثلاً، قادرة على إنجاب مثلها، بينما الذبابة تُنجب مثلها بكل سهوله وبكثرة حتى نعجز أحياناً عن مواجهتها.

ونفهم من هذا، أن الإنسان وغير الإنسان من سائر المخلوقات عاجزون عن صناعة الحياة عجزاً مُطلقاً، رغم كونهم قادرين على بعض التأثير فيها ضمن دائرة القدرة الممنوحة لهم.

٤ - ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾

قد يسلب الذباب راحة الإنسان أو حتى صحته، ولكنه عاجز عن استردادهما منه رغم حقارته في عينه وبالنسبة إلى مكانة البشر.

٥ - ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾

من يعبد غير الله طالبٌ؛ فهو ضعيف.. والمطلوب ضعيف أيضاً، لأنه بدوره عاجز عن أن يُقدِّم له شيئاً. بينما الله تعالى يدعو الإنسان أن يتوجَّه إليه ويقترب منه باعتباره القدرة القاهرة الوحيدة؛ فهو المُهيمن على الدنيا والمالك ليوم الدين، إنه أحرى بأن يُطلب منه ويُدعى فيستجيب تبارك وتعالى.

* * *

بصائر وأحكام

١ - الدنيا دار غرور، ومن أبعاد ذلك ما يتخذه الطغاة لأنفسهم من مظاهر القوة. فإذا بالبعض يدعونهم من دون الله، وهم أضعف

مـن أن يخلقوا ذبابـاً ولو اجتمعوا له، أو يسـترجعوا من الذباب شـيئاً أخذه منهم.

٢- الإنسـان وغيره من سـائر المخلوقات عاجزون عن صناعة الحيـاة عجزاً مطلقاً، رغم كونهم قادرين عـلى بعض التأثير فيها ضمن دائرة القدرة الممنوحة لهم.

اللّه قويّ عزيز

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

* * *

من الحديث

رُوي عن الفضيل بن يسار قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ، وَكَيْفَ يُوصَفُ وَقَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؟ فَلَا يُوصَفُ بِقَدَرٍ إِلَّا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ»[1].

وجاء في دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ ذَا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلَا يَخَافُكَ، وَمَنْ ذَا يَعْلَمُ مَا أَنْتَ فَلَا يَهَابُكَ، أَلَّفْتَ بِقُدْرَتِكَ الْفِرَقَ وَفَلَقْتَ بِلُطْفِكَ الْفَلَقَ»[2].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٠٣.
(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٩١، ص٢٤٥.

تفصيل القول

الآيات القرآنية المجيدة تهزُّ وجدان الإنسان (الواعي) هزًّا عنيفاً.. والآية الشريفة تُبيِّن أنه، بالرغم من كثرة النعم الإلهية المتوالية على الإنسان، لم يُقدِّر الله حق قدره. وهكذا يضحي ابن آدم مُداناً بهذا العتب الإلهي.

١ - ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾

وإزاء هذا العتاب الإلهي في الدنيا، يحسّ الإنسان في وجدانه بخجل جارف، لما أودع الله في ضميره من بواعث الخير وقيم الحق، فكيف به إذا وقف موقفه يوم القيامة، حيث تتجلَّى له قوة الله وعزَّته أكثر منها في دار الدنيا؟

لقد دعا الكثير من بني البشر من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، وغفلوا عن الله والتجؤوا إلى من هو عاجز حتى عن خلق ذبابة واحدة، وعاجز عن استنقاذ ما قد يسلبهم الذباب، فما هو موقفهم غداً أمام عتاب الرَّبِّ لهم؟

إنّ قلةً من الناس، وهم المؤمنون الناضجون، إذا ما ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم، وإذا تُلِيت عليهم آياته زادتهم إيماناً وكانوا على ربهم يتوكلون.

إن هؤلاء وحدهم يشعرون بخواء قواهم، وأن الواحد منهم كريشة في مهبِّ الريح العاصف. أما مَنْ سواهم فلا تهزُّه تذكرة الله ولا اسم جلالته.

بلى؛ عندما يتذكَّر الإنسان ضعفه، ووحدته، ويتذكَّر جهله.. ثم يُتبع ذلك بتذكُّر قوة الله ومدده ورحمته وعلمه وتعليمه له.. فإنه

في الحقيقة يبدأ بالسير باتِّجاه الخروج عن هوى النفس، ويعرف الشيء الكثير عن ربِّه القوي العزيز.

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

ومن البشر من يغفلون عن الحقيقة الصادحة بأن لله تعالى الأمر من قبل ومن بعد، فتراهم يُيَمِّمُون شطر الضعفاء، فهم يجهلون أن الله هو الخالق وهو البارئ وهو المُبدئ وهو المُعيد وهو الرزاق وهو المُنقذ وهو الملجأ.

إن الخطأ القاتل أن يتصوَّر المرء كون الله بعيداً عن خلقه، إذ كيف يكون الخالق بعيداً، وهو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[1].

فإذا دعا الإنسان ربَّه كان الله أقرب إليه من حبل الوريد، ويكون قد هُدِيَ إلى صراط مستقيم، وإذ ذاك يُفوِّض -بحق وصدق- أمره كله إلى الله ويتوكَّل عليه، بعد أن يرفض كل الأنداد.

* * *

بصائر وأحكام

عندما يتذكَّر الإنسان ضعفه ووحدته، ويتذكَّر جهله.. ثم يُتبع ذلك بتذكُّر قوة الله ومدده ورحمته وعلمه وتعليمه له.. فإنه في الحقيقة يبدأ بالسير باتِّجاه الخروج عن هوى النفس، ويعرف الشيء الكثير عن ربِّه القوي العزيز.

(١) سورة البقرة، آية ١٨٤.

الإصطفاء الإلهي

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ و ﴿ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا ﴾ و ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ و ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَفِعْلُ رُسُلِهِ وَمَلَائِكَتِهِ فِعْلُهُ؛ لِأَنَّهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. فَاصْطَفَى جَلَّ ذِكْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَسَفَرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾»[1].

(١) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٣٦٧.

تفصيل القول

تتحدَّث هذه الآية الكريمة عن قضية مهمة وحساسة جدًّا وهي أن بعثة الأنبياء والرسل إنما تتمخَّض بعد عملية اصطفاء وانتخاب. كما يتم اصطفاء الملائكة واختيارهم من جانب الله تبارك وتعالى لإرسالهم في مهمات وتكليفهم بواجبات.

ومن المعلوم أن أفعال الله تعالى قائمة على أساس العدل والحكمة.. وبالتالي فإن بعثة الأنبياء وتعيينهم قادة للبشر وجعلهم حجج الله في أرضه، يتبع حكمة بالغة.. ومن لوازم هذه الحكمة الربانية أنه تعالى يهب صفة العصمة والتسديد الدائم لأولئك المرسلين. فلا يصح إذاً نسبة الخطأ إليهم؛ لأن ذلك ينتهي إلى نسبة الخطأ إلى الرَّبِّ سبحانه حيث اختارهم. فهو تعالى إذا كان لا يبعث ملكاً لإيصال الوحي، ولا يُكلِّف ملكاً من الملائكة بأداء مهمة ما إلَّا بعد تمريره في ممر الاصطفاء، رغم أنهم مخلوقون مُجرَّدون عن الشهوات، فلا يتوقع منهم ممارسة الذنب والخطأ.. فلا بد وهذي الحال أن يكون اختيار شخص من بين البشر لمنزلة النبوة الأكثر أهمية لا يتم إلَّا بعد الاصطفاء أيضاً.

ويمكن القول بأن اصطفاء بشر خاصين ليكونوا رسلاً للناس من جانب الله تبارك وتعالى منبثق عن قاعدة الرحمة الإلهية الواسعة، لأنها تهدف بيان شريعته التي هي رحمة كبرى، وهذه الرحمة تتكامل مع الفطرة التي جعلها الله تعالى للإنسان ليتوجَّه بها إليهم وإليه سبحانه بعد أن يُقدِّره حق قدره.

فكما أنه سبحانه وتعالى غرز في ابن آدم حب الحياة -مثلاً- وحب المحافظة عليها، كذلك أعطاه منهجاً ينتهي إلى تكريس الحياة

الفاضلة، وهي المتجسدة في الدين وتشريعاته الحكيمة.

١ - ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي ﴾

غفلة الناس عن أسماء ربهم وعدم معرفة قدره سبحانه دفعتهم إلى إنكار رسالاته. لماذا؟

لأن الرسالة ذاتها دليل على أن الله سبحانه لم يتركهم سدى، وأنه رحيم بهم، محيط علماً بحاجاتهم، وقاضٍ لها بفضله. ومن هنا فإنه قد اختصَّ بالاصطفاء جماعةً دون أخرى، يصطفيهم ليُؤدوا ما يُحمِّلهم من رسالة. وهذا الاصطفاء نوع تجلٍّ رباني لخلقه، حيث يأمرهم باتِّباع من اصطفاهم واختارهم لغرض الهداية والقيادة.

٢ - ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾

فهو عز وجل لا يصطفي كل الملائكة، وإنما يصطفي ثلة منهم، لها دورها الذي يعهد إليها، كإيصال الوحي، أو حمل العرش، أو تدوين أعمال العباد، أو الحفاظ عليهم، أو قبض أرواحهم، وغير ذلك.

ويصطفي من الناس لأداء مهمة النبوة والإمامة، لئلا يضيع الناس في غياهب الشرك والجهالة، ولئلا تخلو الأرض من حجة.

فالله عز وجل يختار من الملائكة ومن الناس رسلاً، ولكن الملائكة تختلف في رسالتها عن المصطفَين للرسالة من الناس. ومعروف أن الله تعالى لم يجعل ملكاً نبيًّا أو إماماً؛ لأن هاتين المهمتين منوطتان بالبشر على وجه التحديد ليكونوا قدوة لسائر الناس وأسوة حسنة، ولكي تكون الحجة عليهم أبلغ وأتم، وليكون التعاطي معهم أفضل وأيسر.

ثم إن هذا الاصطفاء المباشر من قبل الله، والمحصور به دون

سواه، جدير بأن يلفت انتباه بني آدم إلى عدم جدوى طلب الرشاد من غير من يصطفيهم الله ويختارهم لعباده؛ لأن أولئك غير قادرين على تقديم الصلاح والنجاح.. وبالتالي؛ فإن كل توجُّه إلى غير الله، توجُّه باطل ومحكوم بالفشل سلفاً، لأنه لا طريق إلى الله غير الطريق الذي يختاره الله بحكمته لعباده، ولكي يسلكوه فيصلوا إلى معرفته وإلى ما عنده من كمال ورفعة.

* * *

بصائر وأحكام

١- الرسالة الإلهية تجلٍّ لرحمة الله، وفطرة البشر تهدي إليها، ولذلك فإن ربَّنا يختار لها من عباده من يعصمه ويُسدِّد خُطاه لإبلاغها، ولئلا تتسرَّب إلى نفوس البشر وسوسة بخطئهم فيعتذرون مِنِ اتِّباعهم، وقد جعل ربُّنا رسله من البشر لتكون أبلغ في الحجة وليكونوا لهم قدوات صالحة.

٢- إن الاصطفاء المباشر من قبل الله، والمحصور به دون سواه، جدير بأن يلفت انتباه بني آدم إلى عدم جدوى طلب الرشاد من غير من يصطفيهم الله ويختارهم لعباده؛ لأن أولئك غير قادرين على تقديم الصلاح والنجاح.

إلى اللّه ترجع الأمور

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

***

تفصيل القول

قدمنا القول آنفاً أن علم الله سبحانه وتعالى يتفاوت وعلم غيره من خلقه تفاوتاً ذاتياً. فالعلم الإلهي غير مسبوق بجهل؛ لأنه العالم بكل شيء بدءاً ودوماً وبلا حدود، يعلم قبل أن يكون الشيء: كيف يكون وما هو مصيره.

١ - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ﴾

فالله تعالى يعلم علماً تفصيلياً بكل الدقائق، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من خصوصيات الناس وشؤونهم في واقعهم، وما يُفيدهم في مستقبلهم.. لذلك فإنه سبحانه يعلم ما بين أيديهم، كما يعلم ما

خلقهم.. فهو مُطَّلع كل الاطلاع على أول نشأتهم وخلقتهم؛ لأنه هو الخالق لهم.

٢- ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

ولأن الأمور كلها ترجع إليه، فهو يحكم فيها كيف يشاء، ولا رادَّ لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ولو أن الإنسان وعي هذه البصيرة حقًّا لاطمأنت نفسه إلى ربِّه، وكبح جماح شهواته، وسلَّم إلى ربِّه شؤونه، واستراح من هموم الدنيا، لأنه يُفوِّض إلى ربِّه أموره، ولا يُعاجز آيات الله وأحكامه.

* * *

بصائر وأحكام

لو أن الإنسان أدرك أن الأمور كلها ترجع إلى الله، وهو يحكم فيها كيف يشاء، ولا رادَّ لحكمه.. لاطمأنت نفسه إلى ربِّه وسلَّم إليه كل شؤونه.

اعبدوا ربكم لعلكم تفلحون

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾: «فَهَذِهِ فَرِيضَةٌ جَامِعَةٌ عَلَى الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية رضي الله عنه: «فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ فَهَذِهِ فَرِيضَةٌ جَامِعَةٌ وَاجِبَةٌ عَلَى الْجَوَارِحِ»[2].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٦.
(٢) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٦٢٦.

تفصيل القول

بعد أن عاب الله تعالى على الكفار الذين ما قَدَّروه حق قدره وتجاهلوا أسماءه الحسنى فلم يتوجَّهوا إليه، ذكَّرنا السياق القرآني هنا بضرورة أن تكون حركة الإنسان في الحياة حركة مستقيمة وكادحة إلى الله عز وجل؛ لأن الانحراف -أي انحراف- قد يُؤدي إلى الهاوية، ولن يُعذر البشر لدى اختيار طريق خاص بهم يرسمونه لأنفسهم؛ لأن الله تعالى هو -وحده دون غيره- الذي يصطفي من الملائكة ومن البشر رسلاً لهداية الناس إليه، وأنهم دون سواهم يقودون الناس إليه تعالى؛ يقودونهم في إطار الدين الحاوي للعقيدة الصحيحة والتشريع القويم والخلق الفاضل.

والآية أعلاه تكشف لنا جانباً هو الأهم فيما يتعلَّق بفحوى الرسالات الإلهية التي كُلِّفَ بها المصطفون من قبل الله تعالى.. وخلاصتها العبادة، حيث إن الله تبارك وتعالى ما خلق الجن والإنس إلَّا ليعبدوه وحده لا شريك له.

والعبادة هي التقرُّب إلى الله تعالى والتذلُّل لمقامه الأقدس، والاستعانة به، والتماس الخير منه، ويتضمَّن ذلك طرد الأغيار. ولا ريب أن للعبادة شعائر خاصة أراد الله تعالى أن يُعبد من خلالها، فلم يعد صحيحاً أن يجعل الإنسان تلكم الشعائر وراء ظهره ويختار طريقة خاصة به؛ لأن التعبد بالشعائر الإلهية هو النوع الوحيد لتحقيق العبادة.

١ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾

بلى؛ إن العبادة هي الطاعة والخشوع والتسليم لله عز اسمه.. وكل ذلك يُمكن إيجازه بمفردة التوجُّه إلى الرَّبِّ الخالق الواحد الأحد.

ولا ريب أن نسبة المخلوق إلى خالقه هي نسبة الأخذ والتزوُّد؛

لأن المخلـوق فقير والخالق غني ذو القوة المتين، وهو الرزاق الوهّاب، قاضي الحاجات، وكاشف الهموم والكروب.

أما الركوع والسجود بمعناهما الفقهي، فلهما رحابهما الواسع في تشريعات الأحكام، حيث يقال للركوع: الانحناء المتصل بالانتصاب، كما يقال للسجود هو الاتّكاء على الأرض بالمساجد السبعة.

والركوع في أفق أوسـع هـو إعلان الطاعة، وهـو انحناء المُطيع المسلِّم إلى الرَّبِّ المُطاع.. والسجود هو التسليم التام لله.

ومثال الركوع والسجود الوارد في الآية الشريفة جاء لبيان كون حياة المؤمن كلها تسليم لربِّ العزة والجلالة.

فالعبادة أشـمل من الركوع والسـجود، وإنما الركوع والسجود عنوانان من عناوين العبادة، وهما يُساعدان العابد في تكريس عبادته.

٢- ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾

من أهم حقائق فعل الخير أن يُحوِّل المرء حياته كلها إلى مشروع أصيل للعبادة، فيعبد الله سبحانه وتعالى في كل أبعاد حياته ويأخذ من فضله وكرمه وجـوده. وطبيعـة صيغة الجمع في أمر الفعل يُوحي بأن يفعل الإنسـان الخير لنفسه ولغيره.. وإذ ذاك تتحقق النتيجة المرجوة المتجسدة بالقول الكريم:

٣- ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾

ففعـل الخـير سـبب لتحقـق النتيجـة المطلوبـة، وهي السـعادة الفرديـة والفـلاح الجمعـي في الدارين. وهـذه الكلمة التـي تتكرَّر في المنطق القرآني تعكس بصيرة الدين في شـمولية السـعادة للناس جميعاً، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: الفعل الذي ظاهره حسن ولكنه ذا نتائج سلبية في الواقع لا يُسمَّى خيراً؛ مثلاً الطعام اللذيذ الذي يحتوي على ميكروب قاتل ليس خيراً، وكذلك المال الحرام الذي يُؤدي إلى حرمان صاحبه الأصلي ليس خيراً.

ثانياً: الفعل الذي يُوفِّر السعادة لشخص على حساب غيره ليس خيراً، فإنما الخير ما يُشرَك في نفعه جميع الناس أو لا أقل أكثرهم.

ثالثاً: الفعل الذي يبدو حسناً ولكنه يستتبع غضب الرَّبِّ وعقابه في الآخرة، لا يُحسب خيراً.

وبكلمة؛ الخير هو الفعل المُؤدي إلى أحسن النتائج للنفس ولأكثر الناس في الدنيا والآخرة.

وهذا الفعل هو الذي أمرنا الله تعالى به، وقد فصَّل الدين مناهجه في تشريعاته.

والترجي الوارد بلفظ (لَعَلَّ) إنما هو استخدام قرآني يُراد منه الاقتضاء في إطار إرادة الله عز وجل، فليس هناك حتميات في عالم الخلقة.

والقرآن المجيد يُرشدنا إلى أهمية أن نُؤدي الركوع والسجود وعبادة الرَّبِّ المتعال بالصورة الصحيحة، التي تعني تأثيرها في حياة الإنسان؛ لأنها إذا كانت فارغة المحتوى تركت مفعولاً سيئاً، واستتبعت الويل لمؤديها كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[(٢)].

ومن آيات الأداء الحقيقي للركوع والسجود هي أنها يجب أن

---

(١) سورة الماعون، آية ٤.

(٢) سورة الأنفال، آية ٣٥.

يصدق عليها اسم العبادة، وهي التوجُّه إلى الله سبحانه وتعالى بكل أبعاد حياته، كما قال تعالى.

ومن هذه الأبعاد فعل الخير، وهو محتوى الصلاة بما فيها من طاعة وخضوع لله، بما يمنعه عن فعل الشر والتَّهرُّب من المسؤوليات التي من أجلها خُلق ابن آدم.

وفعل الخير هذا -في أول معانيه ومصاديقه- هو اعتماد القيم الصالحة كمبدأ للسلوك، دون تقديم المصلحة الذاتية، ولو كانت المصلحة الآنية والذاتية هي المقصودة، أو هي الغرض من ممارسة العبادة؛ لكان الله قد قال في هذا المجال، وبعد أداء الركوع والسجود والعبادة: وافعلوا ما يُحقق مصالحكم، كما تُملي النظم والقوانين الوضعية على أتباعها، حيث نراهم يُقدِّمون مصالحهم والتفكير بما يُحقق هذه المصالح، ويُعطونها الأولوية. وها هي المجتمعات والحكومات تخوض أشرس الصراعات وتُوقع ما لا يُحصى من الضحايا لإحراز هذه المصالح المحدودة بهم، ولربما عمد الكثير من هذه المجتمعات والحكومات إلى إفساد الأرض والجو والبحر حاضراً ومستقبلاً لضمان مصالحها الذاتية.. إلَّا أن دين الله سبحانه وتعالى أمر باعتماد القيم الحقة والموضوعية والشاملة كمنطلق للسلوك.

بصائر وأحكام

لقد حصر الله سبحانه وتعالى الفلاح بأداء الركوع الصادق والسجود الحقيقي والعبادة الخالصة والاجتهاد في فعل الخير للجميع. فلا فلاح يُرجى دون الانطلاق من هذه الأمور.

وتكونوا شهداء على الناس

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

* * *

تفصيل القول

عندما تصوغ آيات الذكر شخصية المؤمن الجهادية ويبدأ بالتحرّك في ساحة العمل يجد أمامه العقبات الاجتماعية فيأتيه الأمر بالجهاد.

١ - ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾

وجاءت كلمة الجهاد بصيغة المفاعلة، والمفاعلة بحاجة إلى

طرفين، دلالةً على التحوُّل إلى مرحلة الصراع مع المجتمع الفاسد. علماً بأن النصوص قد قسَّمت فريضة الجهاد إلى: جهاد العدو وجهاد النفس، والثاني أكبر من الأول. فماذا تعني المفاعلة في جهاد النفس؟

إن نفس الإنسان تنقسم بدورها إلى قسمين: نفس لوَّامة، ونفس أمَّارة بالسوء. والأولى تجاهد الثانية.

ولا يتحقق انتصار في واقع الحياة ما لم يُجاهد المؤمنون نفوسهم سلفاً ويتغلَّبوا عليها؛ لأن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم.

ولعل الأمر بالجهاد الجمعي إشارة إلى أن القرآن يُريد للمجتمع الإيماني، أن يكون كتلة حيوية فعَّالة. فلا يُمكن لمجتمع أن يُجاهد نصفه، ونصفه الآخر يتقاعس.

وحق الجهاد هو أن يبذل المرء قصارى جهده، ولولا أن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ لكان واجب الجهاد مستمراً إلى انقطاع النفس عن الحياة. ولكن الله تعالى أرحم بالإنسان المؤمن من ذلك، فلم يُكلِّفه إلَّا بما يسعه. وحيث إن الإنسان عاجز عن أداء حق الله تماماً، إلَّا أنه قادر على أن يبذل ما وسعه من جهد في سبيل الله، بما في ذلك جهاد نفسه وحملها على فضائل الأخلاق واستفراغ مكنته في هذا السبيل، سواء في باب العبادة المؤطرة بأحكام خاصة، أو في باب الطاعة، وباب تحصيل الرزق، وبناء العلاقات الاجتماعية الطيبة، وكل ما يُقرِّب إلى الله سبحانه وتعالى.

٢- ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾

في التفسير: خطاب الاجتباء مُوجَّه إلى جماعة المؤمنين الذين وعوا الفكر السليم والتكاليف الشرعية وعملوا بها ما استطاعوا.

بمعنى؛ أن الله سبحانه وفَّر هؤلاء فرصة الاختيار، فوجَّه إليهم التكليف الشرعي بتحقيق شروطه، ثم هم يُجتبون من قبل الله تعالى حين يعملون بما أُمروا به.

وإزاء هذه الحقيقة، ننتهي إلى القول بأن الله سبحانه وتعالى إنما يجتبي فرداً دون آخر، وأمة دون سواها، طبقاً لمعايير عادلة، وليس بناءً على اللون أو الجنس أو التمني والتظني، إنما لأن الجماعة المُجتباة قد شَمَّرت عن سواعد الجد وبذلت كل الجهود الممكنة ولم ترتضِ لنفسها الكسل والترهُّل والنفاق.

٣- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

هذا المقطع القرآني الشريف يُمكن أن يكون محوراً للتكليف، كما هو معيار إسقاط التكليف، تبعاً لوجود آيات كريمة تتحدَّث في هذين الإطارين، وما ينضوي تحتها من روايات شريفة مطابقة.

وفقه هذا المقطع يتم عبر فقه سائر النصوص القرآنية المحكمة، ومنها قوله سبحانه: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾(١).

وهكذا فإن أي حكم شرعي أصبح حرجيًّا، فإنه يُلغى من منظومة التكاليف.

فالدين دين يسر وليس بدين عسر، ولا يُكلِّف الدين بما لا يُطاق، وقد قال الرسول الأعظم ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»(٢).

ولا ريب في أن الدين قد ترك مسألة تحديد الحرج عموماً إلى العقل،

---

(١) سورة القيامة، آية ١٤ - ١٥.

(٢) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٧، ص١٧٤

فإذا كانت المسألة مُتعلِّقة بإطار فردي، فالفرد هو الذي يُحدِّد وضعه، وبالتالي يُحدِّد مستوى حرجه. وهكذا الأمر إن كانت المسألة مُتعلِّقة بإطارها الجمعي، فإن قيادة المجتمع تُحدِّده وفق الظروف الموضوعية.

وهكذا نستطيع استخلاص قاعدة دينية ذات مصاديق كثيرة جدًّا في الحياة الفردية والاجتماعية، وهي أن دين الله هو دين الاعتدال، كما أنه يدفع بالإنسان المؤمن ليكون مُعتدلاً، ففي الوقت الذي يحثُّه على أداء فريضة الجهاد، فإنّه يمنعه -مثلاً- من إيقاع نفسه في التهلكة. والأمثلة التالية قد تُوضِّح الأمر:

أولاً: جاء في الحديث عن النبي ﷺ وهو يُبيِّن حدود التعبُّد لله سبحانه: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ»[1].

ثانياً: في حقل العلاقات الاجتماعية، جاء في الآية الكريمة: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾[2].

ثالثاً: وفي حقل العلاقات الدولية، قال ربُّنا سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

٤- ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾

كما أن الاجتباء الإلهي لا يأتي من فراغ، كذلك لم تأتِ عظمة أمة النبي ﷺ من فراغ، بل إنها ذات امتداد تاريخي وجذور حضارية

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٨٦.
(٢) سورة الفرقان، آية ٦٣.

حتى أضحت أمة أصيلة.

والملة ترد أيضاً بمعنى الشريعة، ولها امتدادها المنطلق أساساً من الوحي الذي كان ينزل على النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والأبوة الإبراهيمية؛ أبوة روحانية.

وآية قرآنية أخرى تدل على هذه الحقيقة، وهي: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. ولم يخرجوا عن ملته ودينه.. وإنما انضووا تحت لوائه وصاروا مسلمين لله تعالى من حيث تسليمهم لإرادة الواحد الأحد، بعد أن عبدوه وركعوا له وسجدوا وفعلوا الخير وجاهدوا في سبيله حق الجهاد.

٥ - ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾

بعد أن اكتملت شخصية المؤمن بالركوع والسجود وفعل الخير، وبعد أن اكتملت الملة الإبراهيمية بالجهاد الدائب، حانت ساعة الانطلاق عبر الأمم بالشهادة عليها.

ولأن شهادة الرسول على الأمة قد بيّنها ربُّنا سبحانه في آيات شتى وبتفصيل، فهو الذي يدعو إلى الله، ويتلو آياته، ويُزكّي النفوس، ويُعلّم الأمة، ويُطاع فيها بإذن الله، وإليه يُردُّ ما يختلف فيه المسلمون، وهو الذي يقضي بينهم إذ لا رادَّ لقضائه، وهو بالتالي الذي تعتصم به الأمة وتنصهر في طاعته كل الفئات.

فكذلك الأمة تتحمّل المستويات ذاتها، أو لا أقل الكثير منها ولو بنسبة متفاوته فيما يتصل بعلاقاتها بسائر الأمم.

(١) سورة آل عمران، آية ٦٨.

٦- ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

هذه هي ملامح الأمة وركائز شهادتها على الناس. فالعلاقة بالله رَبِّها علاقة عبادة (صلاة)، وعلاقتها بغيره علاقة إحسان (الزكاة)، ومحور تجمُّعها الاعتصام بالله وحبله المتصل بينه وبين خلقه، المُتمثِّل بالنبي وآله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

* * *

بصائر وأحكام

١- لا يتحقق انتصارٌ ما لم يُجاهد المؤمنون أنفسهم سلفاً ويتغلَّبوا عليها؛ لأن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم.

٢- لقد ترك الدين مسألة تحديد الحرج عموماً إلى العقل، فإذا كانت المسألة مُتعلِّقة بإطار فردي، فالفرد هو الذي يُحدِّد وضعه، وبالتالي يُحدِّد مستوى حرجه. وهكذا الأمر إن كانت المسألة مُتعلِّقة بإطارها الجمعي فالقيادة الربانية تُحدِّد مستوى الحرج الذي يسقط به التكليف بالجهاد مثلاً.

٣- بعد أن اكتملت شخصية المؤمن بالركوع والسجود وفعل الخير، وبعد أن اكتملت الملة الإبراهيمية بالجهاد الدائب، حانت ساعة الانطلاق عبر الأمم بالشهادة عليها.